حنّا أبو حنّا

طلائع النهضة في فلسطين

(خريجو المدارس الروسية)

١٨٦٢-١٩١٤

مؤسسة الدراسات الفلسطينية



INSTITUTE FOR PALESTINE STUDIES
Anis Nsouli Street, Verdun
P.O.Box: 11-7164
Postal Code: 11072230
Beirut - Lebanon
Tel.: 804959. Fax: 814193
Tel. & Fax: 868387
E-mail: ipsbrt@palestine-studies.org
http://www.palestine-studies.org

مؤسسة الدراسات الفلسطينية

مؤسسة عربية مستقلة تأسست عام ١٩٦٣ غايتها البحث العلمي حول مختلف جوانب القضية الفلسطينية والصراع العربي ـ الصهيوني. وليس للمؤسسة أي ارتباط حكومي أو تنظيمي، وهي هيئة لا تتوخى الربح التجاري.

وتعبِّر دراسات المؤسسة عن آراء مؤلفيها، وهي لا تعكس بالضرورة رأي المؤسسة أو وجهة نظرها.

شارع أنيس النصولي ـ متفرع من شارع فردان

ص. ب.: ٧١٦٤ ـ ١١

الرمز البريدي: ١١٠٧٢٢٣٠

بيروت ـ لبنان

هاتف: ٨٠٤٩٥٩. فاكس: ٨١٤١٩٣

هاتف/ فاكس: ٨٦٨٣٨٧

E-mail: ipsbrt@palestine-studies.org
http://www.palestine-studies.org

طلائع النّهضة في فلسطين

(خرّيجو المدارس الروسيّة)

١٨٦٢ - ١٩١٤

Ṭalā'i' al-nahḍah fī Filasṭīn (khirrījū al-madāris al-rūsīyah), 1862-1914
Ḥannā Abū Ḥannā

Pioneers of the Renaissance in Palestine (Graduates of Russian Schools), 1862-1914
Hanna Abu Hanna

ISBN 9953-453-03-9

الطبعة الأولى - بيروت
حزيران/ يونيو ٢٠٠٥

طلائع النّهضة في فلسطين

(خرّيجو المدارس الروسيّة)

١٨٦٢ - ١٩١٤

حنّا أبو حنّا

مؤسّسة الدراسات الفلسطينيّة

المحتويات

مُقَدِّمَة

نشهد في العقود الأخيرة مزيداً من الاهتمام بدراسة مختلف جوانب التاريخ العربي الفلسطيني، بما في ذلك الحياة الثقافية التي انبعثت منذ القرن التاسع عشر ومطلع القرن العشرين.

لكن ثمة زوايا لم تسلط عليها الأضواء، بل تتكاثف العتمة التي تلفها كلما تطاول الزمن فيعسر الوصول إلى المصادر، وبالتالي قد تنطمس معالم تلك الجوانب من الصورة العامة.

شهد النصف الثاني من القرن التاسع عشر اهتمام عدد من الدول الأجنبية بإنشاء مدارس في فلسطين ولبنان وسورية في ظل الحكم العثماني لهذه البلاد. أمّا الحوافز فالحديث عنها مقبل بعد حين. إلاّ إنه مهما يكن من أمر فقد كان لتلك «الحملة» موقعها وآثارها في المسيرة الثقافية والتاريخية.

أمّا الجهد الروسي في هذا المضمار فكان، على الرغم من تأخره عن جهود الآخرين، متميزاً بإنشاء شبكة من المدارس في الجليل وبيت جالا وكثير من المواقع في لبنان وسورية، بلغت ١١٤ مدرسة سنة ١٩١٤، تضم ١٥,٠٠٠ طالب وطالبة، وبرزت منها دار للمعلمين في الناصرة ودار للمعلمات في بيت جالا. وكان هناك خطط لإقامة كلية أو جامعة في سورية، كما يقول هوبود، لكن نشوب الحرب العالمية الأولى أوقف ذلك كله.

وننظر إلى مجرى الحياة الثقافية فنرى أن أول من أنشأ الصحافة الأدبية في فلسطين كان من خريجي دار المعلمين في الناصرة (السِّمِنار)، بينما أنشأ آخرون صحفاً ومجلات في مصر وأميركا الشمالية وأميركا الجنوبية، وكان منهم طلائع كتّاب الرواية والقصة القصيرة في فلسطين، فضلاً عن ترجمة الروايات الروسية.

من ناحية أُخرى نجد أن نصف أعضاء الرابطة القلمية، التي أدت دوراً حاسماً في بعث الأدب العربي الحديث، كان من خريجي السِّمِنار، أو من خريجي المدارس الروسية الأُخرى.

لذلك سعيت للتعرف إلى حقيقة ما كان في تلك المدارس، وفي ذلك المعهد

الذي شع في الناصرة ٢٨ سنة (١٨٨٦ - ١٩١٤). وحاولت أن أجمع بين التفصيلات المادية اليومية وبين التقويم لدور هذا المعهد والإنتاج الأدبي لخريجيه.

عمدتُ أولاً إلى جمع كل ما له علاقة بالسِّمِنار وخريجيه، فكانت المهمة عسيرة لصعوبة العثور على المصادر والمواد. واقتضى المسعى القيام بزيارات لبيوت توسمتُ أن أجد فيها كتباً أو مجلات أو آثاراً أُخرى مما يتصل بالموضوع. وكنت أشبه بالصياد الذي يعود في بعض الأحيان ببعض الغنائم، وفي أحيان أُخرى أسافر إلى أماكن بعيدة ولا أعود إلاّ بأشياء قليلة، فأصل إلى البقيعة، أو بيت جالا، وأعود ببعض أسماء الخريجين، أو بصورة شهادة خريج من السِّمِنار. وتفرع البحث من الناصرة إلى حيفا ويافا والرامة والبقيعة، بل إلى القاهرة حيث بحثت عن آثار سليم قبعين. واقتضى الأمر اتصالات، واستفسارات، وتطفلاً على الناس في بيوتهم والطلب إليهم أن يبحثوا بين الأوراق القديمة والكتب التي وجدت طريقها إلى «عِلِّيَّة» البيت، وفي بعض الأحيان كنت أصل بعد فوات الأوان؛ فالجيل الجديد من الأحفاد كان تخلص من الأوراق، ومن الكتب التي أولمت عليها عثة الورق.

وقد عممت اهتمامي بمختلف الوسائل، سواء بالنشر، أو بالمحاضرات التي كنت ألقيها، أو عن طريق أصدقائي وطلابي. ولذلك وجدت بعض الغيورين على إحياء هذا التراث يتصل بي ليطلعني على عناوين يمكن أن أجد فيها بعض المصادر. ويكون السفر، وتكون العودة بمجلد من مجلة «النفائس العصرية»، أو بمجلد من مجلة «الإخاء»، أو من دون شيء.

وقمت بمقابلة بعض من تخرج من السِّمِنار كالأستاذ المرحوم خليل جدعون من الناصرة (وهو خريج آخر فوج سنة ١٩١٤) وسجلت حديثه، والأستاذ المرحوم جميل لبيب الخوري، الذي كانت له صلة ببعض الخريجين كخليل بيدس وإسكندر الخوري وسليم قبعين، كما قمت بمقابلة بعض من لهنّ معرفة بخريجات دار المعلمات الروسية في بيت جالا.

في بعض الأحيان كنت أقوم بعملية تمشيط للمجلات التي صدرت في أواخر القرن التاسع عشر ومطلع القرن العشرين (علاوة على المجلات التي أصدرها خريجو السِّمِنار) لعلّي أظفر بشيء من كتابات خريجي السِّمِنار، أو بإشارة إلى مؤلفاتهم، فاستعرضتُ بصورة خاصة مجلات «الهلال» و«المقتطف» و«الحسناء» و«المورد الصافي».

ونتيجة هذا السعي استطعت أن أجمع عدداً من المصادر المهمة، إذ عثرت

على مفكرة الأستاذ إسكندر جبرائيل كزما، مدير السِّمِنار، وكان دوّن فيها كثيراً من التفصيلات عن السنوات ١٨٩٥ - ١٨٩٨، بما في ذلك جدول الدروس، وأسماء الطلاب وعلاماتهم، وملاحظات عن النشاط الثقافي للدار، وجولاته التفتيشية على المدارس الروسية في الجليل. وحصلت على مجلدات «النفائس العصرية» للسنوات ١٩٠٨ - ١٩١٤ (أمّا مجلدات ما بعد الحرب العالمية الأولى فوجدتها في المكتبة القومية في القدس). واجتمعتْ لديّ أكثرية مجلدات مجلة «الإخاء»، كما حصلت على عدد من مؤلفات خريجي السِّمِنار (وإن يكن بعضها لا يزال مفقوداً، ومعرفتي بها من خلال «باب التقريظ» أو عرض الكتب في مختلف المجلات والصحف).

اكتشفت بعد أعوام وثيقة مهمة، هي عبارة عن كتاب بالروسية في جزأين، عنوان الجزء الأول «المؤسسات التعليمية والطبية التابعة للجمعية الإمبراطورية الفلسطينية في سورية وفلسطين»، تأليف ن.م. أنيتشكوفا، عضو مجلس الجمعية. وهو تقرير عن جولة تفتيشية في هذه المؤسسات، ووصف دقيق لزيارة كل مؤسسة ومدرسة. أمّا الجزء الثاني فعنوانه «المؤسسات التعليمية في الجليل». وفي الكتاب مجموعة من الصور الفوتوغرافية للطلاب والمباني، وقد تم إدراج بعضها في الملحق رقم ٣.

وعلى هذا، فإن **الجانب الأول**، وهو جانب اكتشاف المصادر وجمعها (وفي بعض الأحيان إنقاذها)، استغرق كثيراً من الجهد والزمن والتمحيص، وآمل بأن يكون في الجهد المبذول في هذا المجال مساهمة متواضعة في تسجيل وتأريخ ناحية لم تحظ بعد بالاهتمام الكافي.

أمّا **الجانب الثاني** للدراسة فينطوي على شقين:

أ) محاولة إنشاء صورة متكاملة من التفصيلات المتوفرة، للاطلاع على مساهمة خريجي السِّمِنار في مختلف ميادين النهضة الأدبية، كالتربية والتعليم، والصحافة، والترجمة، والإنتاج الأصيل.

ب) محاولة تقويم هذه المساهمات في المجالات المذكورة، بشكل موضوعي ونسبي؛ أعني رؤية تلك المساهمات في الأوضاع الزمنية العينية لمسيرة النهضة آنذاك. وقد اعتمدت دراسة سابقة لي في هذا المضمار.

ولاقتصار هذه الدراسة على الدور الفلسطيني فإني لم أعالج دور خريجي السِّمِنار من المهجريين إلاّ بمقدار ما للإشارة إلى دور هؤلاء من فائدة في تحديد الإطار العام والسمات الرئيسية لكل من السِّمِنار والمعاهد الروسية ومساهماتها. ولذلك لم أُسهب في دور ميخائيل نعيمه ونسيب عريضة وعبد المسيح حداد وندرة حداد

(وهم من أبرز أعضاء الرابطة القلمية في المهجر).

من ناحية أُخرى، لم أتعرض للآثار الشعرية لهؤلاء الخريجين، فلم أتوقف عند الإنتاج الشعري لإسكندر الخوري البيتجالي، والذي يحتاج إلى التفات خاص لأن له موقعه في المسيرة العامة للنهضة الأدبية في فلسطين، كما لم أشر بالتفصيل إلى آثار الآخرين. ويبدو أن كثيرين منهم عالجوا كتابة الشعر، إذ أرى أن المساهمة الرئيسية لخريجي السِّمِنار في بلدنا كانت في ميدان النثر، في الصحافة والأدب الروائي، المترجم والأصيل.

أخيراً، لا بد من تقديم الشكر إلى كثيرين كانوا قدموا لي المساعدة، سواء بالمواد أو المعلومات التي توفرت عندهم. وأخص بالذكر السيدة نجاة خوري رضوان، حفيدة إسكندر كزما، والسيد نصر عودة وأهل بيته، حيث اطلعت على ما بقي من كتب البروفسور كلثوم عودة فاسيليفا، والسيد نصار نصار الذي أطلعني على ما بقي لديه من مجلات من آثار والده المرحوم أيوب نصار، والأستاذة أولغا سليمان، ابنة المرحوم خليل سليمان خريج السِّمِنار، لما اطلعت عليه عندها من مجلات، وأبناء المرحوم أمين جرجورة، وأقارب المرحومين عودة ويونس الحلاق، وكثيرين غيرهم.

حيفا

أيار/ مايو ٢٠٠٥

ظروف تاريخية

أولاً

امتد الحكم العثماني على الشرق العربي أربعة قرون، من سنة ١٥١٧ حتى سنة ١٩١٨.

وقد بلغت الإمبراطورية العثمانية في القرن التاسع عشر حالاً شديدة من الضعف، حتى أطلق عليها ساسة الغرب اسم «الرجل المريض» الذي كانوا يترقبون هلاكه واقتسام ميراثه. وشهد هذا القرن صراعاً عنيفاً بين الدول الغربية الطامحة إلى ذلك الميراث، كما عرف أشكالاً من التحالف بين بعض تلك الدول وتركيا، إذ كان لكل موقف ثمن من الامتيازات. فبعد تدخل الأسطول البريطاني ضد وجود إبراهيم باشا في بلاد الشام سنة ١٨٤٠ كانت معاهدة لندن، وبعد مساندة بريطانيا وفرنسا لتركيا ضد روسيا في حرب القرم (١٨٥٣ - ١٨٥٦) كانت اتفاقية باريس التي أعطت تلك الدول مزيداً من الامتيازات في الساحة العثمانية.

أمّا ألمانيا فحالفت الإمبراطورية العثمانية وتوطدت بينهما العلاقات الاقتصادية والسياسية. ويقول رافق: «وكلما ازدادت العلاقات تأزماً بين تركيا والدول الأوروبية الأُخرى كلما توثقت علاقاتها مع ألمانيا.»(١) وتوّجت هذه العلاقات بزيارتين قام بهما غليوم للإمبراطورية العثمانية. «ولم يكن هدف زيارة غليوم للشرق حماية البروتستانت في الأراضي المقدسة ولا مجرد مجاملة صديقه عبد الحميد، وإنما اتفق وجوده في إستنبول مع منح امتياز مرفأ حيدر باشا إلى شركة الخطوط الحديدية الأناضولية الألمانية.»(٢)

علاوة على ذلك، وجد السلاطين العثمانيون أنفسهم يغرقون في الديون ويمدون أيديهم إلى الغرب منذ سنة ١٨٥٤ للحصول على القروض، ثم زادت تلك القروض وتفاقمت حتى وصلت إلى ٣,٥ مليارات فرنك سنة ١٨٥٧. فاضطر السلطان، في تلك السنة، إلى إعلان الإفلاس وإخضاع اقتصاد البلاد لِـ «إدارة الدَّيْن العثماني.»(٣)

وقد شهدت تركيا فيما بين سنة ١٨٣٩ وسنة ١٨٧٨ تحولات مهمة أُطلق عليها

اسم التنظيمات. وهي جملة من الإصلاحات اتخذت في ثلاث مراحل «أعلن السلاطين فيها التزامهم اتباع سياسة جديدة تضع الأسس لتحديث نظام الحكم والإدارة، وتضع قواعد جديدة للعلاقة بين أجهزة الدولة والسكان.»[٤]

في هذه المرحلة ازداد النفوذ السياسي الأوروبي في بلاد الشام واتسع النشاط باسم «حماية المسيحية».

ثانياً

طالما لبست السياسة قناع الدين.

باسم الدين شُنت حروب، وباسمه كان التدخل في شؤون لا تمت له بصلة. ولعل أكثر الأمثلة دموية ما سمي الحروب الصليبية، التي تعاقبت مداً وجزراً منذ القرن الحادي عشر الميلادي إلى القرن الثالث عشر الميلادي.

يقول فيليب حتي: «وجدير بالذكر أن ليس كل الذين حملوا شارة الصليب فعلوا ذلك عن دوافع روحية فقد كان عدد من زعمائهم ومنهم بوهمند قد قصدوا بحركتهم هذه أن يفتتحوا أراضي جديدة لهم يرفعون رايتهم عليها. أمّا تجار بيزا والبندقية وجنوى فقد كان رائدهم خدمة مصالحهم التجارية.»[٥]

وقد رأينا في تلك الحروب كيف يتقاطع التحالف ضد الإخوان في العقيدة، كما حدث في الهدنة التي عقدها الملك الكامل مع الإمبراطور فردريك الثاني سنة ١٢٢٩م «.. وقطع لفردريك عهداً على نفسه في أنه سيساعده على أعدائه وأكثرهم من الأيوبيين.»[٦]

أمّا في القرن التاسع عشر فنرى أن الدول الغربية، التي لبست قناع «حماية المسيحية» في هذه البلاد، عقدت تحالفات وشاركت في مناورات تناقض ادعاءها، وتؤكد الرؤية الجذرية لمصالحها الاستعمارية. وليس هنا مجال تفصيل تلك المواقف، وقد تكفي الإشارة إلى بعضها، مثل تدخل الأسطول البريطاني سنة ١٨٤٠ دعماً لتركيا ضد إبراهيم باشا وما تلا ذلك من امتيازات حظيت بها بريطانيا وغيرها في معاهدة لندن، مع العلم بأن عهد إبراهيم باشا اتسم بإلغاء كثير من القيود التي عانى جرّاءها المسيحيون. ويقول بازيلي عن هذا العهد «.. إنه لأمر لم يعهد له نظير في الإمبراطورية العثمانية أن يمنح المسيحيون الحرية لتجديد معابدهم وأديرتهم في كل مكان، وحتى لبناء الجديد منها.»[٧]

ثم ما كان من تحالفات في حرب القرم (١٨٥٣ - ١٨٥٦) التي نشبت بين روسيا وتركيا بشأن ترتيبات في كنيسة القيامة في القدس وكنيسة المهد في بيت لحم. فقد حظيت تركيا بدعم بريطانيا عسكرياً وساندتها في ذلك فرنسا. ثم كان مؤتمر باريس سنة ١٨٥٦ الذي أعطى دول أوروبا كثيراً من الامتيازات.

قد يخيل للبعض أن الإرساليات التبشيرية الأوروبية هي التي حملت المسيحية إلى العرب في الديار المقدسة. وقد لقيتُ مَنْ حَمَل هذا الوهم، ولذلك نذكّر ببعض الحقائق على سبيل الإشارة فحسب:

يقول الكاهن رفيق فرح: «كان العرب أول من اعتنق الإيمان المسيحي في تاريخ الشعوب وأظهروا في القرون الأولى نشاطاً فكرياً كبيراً في القضايا اللاهوتية، فكان بينهم شهداء وقديسون ورهبان ونسّاك ومفكرون وعلماء وأدباء اشتركوا في المجامع الكنسية المسكونية.»[٨]

ومعلوم أن بعض القبائل النصرانية أنشأ، قبل مجيء الإسلام، ممالك وإمارات. فأقامت قبائل الأباجرة مملكة إديسا (الرها أو أورفا)، وقامت مملكة المناذرة اللخميين في الحيرة، ومملكة الغساسنة في الشام. ونذكر من الشعراء عدي بن زيد والأخطل التغلبي وغيرهما، ومن العلماء والأطباء حنين بن إسحق وابن ماسويه، على سبيل المثال لا الحصر. وظهرت ذروة اللاهوت العربي المسيحي في شخص القديس العربي يوحنا الدمشقي (المولود سنة ٦٧٦)، الذي خدم الإدارة المالية في الدولة الأموية قبل أن يترهب ويذهب إلى دير مار سابا، ووضع كثيراً من الكتب أشهرها «ينبوع المعرفة»، كما ألّف الأناشيد الدينية ولحنها.[٩]

لم يكن المسيحيون العرب بحاجة إلى «حماية» في إبان الحكم العربي، فقد كانوا جزءاً من النسيج العام الثقافي والاجتماعي. وقد كُتب كثير عن العلاقات الطيبة بين العرب المسيحيين والمسلمين عبر العصور.[١٠]

ويؤكد الباحثون أن المسيحيين العرب لم يرحبوا بالمحاربين الصليبيين، «.. فالصليبيون، في نظر معظم المسيحيين العرب وفي نظر المسلمين جميعاً، كانوا مجرد أوروبيين دخلاء.»[١١]

سعت الدول الأوروبية للحصول على حق «حماية» المسيحيين الأوروبيين العاملين في البلاد المقدسة وغيرها، ثم وسّعت هذه الحماية لتشمل النصارى المحليين.

يقول ألبرت حوراني: «فمنذ القرن السادس عشر، كانت 'الامتيازات' قد

منحت فرنسا حق حماية الكاثوليك الأوروبيين بكنائسهم وكهنتهم في الأراضي العثمانية. ثم وسعت فرنسا تلك الحماية تدريجاً حتى أصبحت تشمل الكاثوليك العثمانيين والإرساليات الأوروبية العاملة بينهم.»(١٢)

لا يمكن أن يتصور أحد أن الإرساليات المسيحية الأوروبية سعت لتنصير المسلمين في إطار الحكم العثماني الإسلامي.(١٣) بل لم يكن هناك سعي للتنصير في فترة الحكم الصليبي الذي اضطهد المسيحيين العرب النساطرة للاختلاف المذهبي.

أين يتمحور نشاط الإرساليات والمبشرين إذاً؟

اتسمت «حماية المسيحيين» بحملة لاقتسامهم. فقد كان جُلّ المسيحيين العرب في إطار الطائفة الأورثوذكسية يخضع لحكم الكهنوت اليونانيين الذين احتكروا السيادة والتصرف في الأملاك، ونشب بينهم وبين أبناء الطائفة العرب صراع عنيف امتد عبر السنين (وقد تفاقم في أيامنا هذه - مطلع القرن الحادي والعشرين). فكان سعي المبشرين من الطوائف المسيحية الغربية (الكاثوليك واللاتين والبروتستانت) لاجتذاب أبناء الطائفة الأورثوذكسية.(١٤) وكانت الدولة الروسية آنذاك ترفع لواء الأورثوذكسية، وقد وطدت علاقاتها بالأورثوذكس في الدولة العثمانية(١٥) في معاهدة كوتشوك كاينرجي سنة ١٧٧٤، فسارعت إلى النشاط تحت شعار «استرداد الخراف الضالة» و«عضد الأورثوذكسية في البلاد المقدسة.»

فالمعركة، إذاً، كانت «داخل العائلة»، وقد احتدت كثيراً.

ولتيسير هذه الدراسة نصنف «دعاة الحماية» هؤلاء إلى ثلاث فئات:

(١) الكاثوليكية: وهي المرتبطة بالفاتيكان، وتلتقي تحت لوائها طوائف اللاتين والروم الكاثوليك ومختلف النظم الرهبانية، ومرجعيتها الأساسية فرنسا وإيطاليا.

(٢) البروتستانتية: وتلتقي فيها الأنغليكانية واللوثرية ومختلف الجمعيات التي نشأت في بريطانيا وبروسيا (ثم ألمانيا).

(٥) الأورثوذكسية: التي كانت أدارتها البطريركية، وما زالت إلى اليوم في يد اليونانيين. إلاّ إن مرجعية حَمِيَّة الدفاع عنها كانت روسيا القيصرية. وقد حاولت المؤسسات الروسية العاملة في الأراضي المقدسة أن تتلافى التصادم مع تلك البطريركية.

(١) عبد الكريم رافق، «العرب والعثمانيون: ١٥١٦ - ١٩١٦» (عكا، ط ٢، ١٩٧٨)، ص ٤٢٧.

(٢) المصدر نفسه، ص ٤٢٨.

(٣) يشير ألبرت حوراني إلى عوامل خارجية كثيرة أدت إلى الأزمة الاقتصادية التي عانت جرّاءها الإمبراطورية العثمانية ومنها: «توسّع أوروبا الجغرافي شرقاً وغرباً. فالمراكز التجارية الأوروبية المنشأة في الأوقيانوس الهندي كانت قد فككت الخطوط التجارية التقليدية بين الإمبراطورية والعالم الخارجي في آسيا وأوروبا معاً. وكان لاكتشاف أميركا تأثير أشد من ذلك أيضاً، إذ أدى إلى تحوّل الذهب والفضة إلى بلدان البحر المتوسط، وبالتالي إلى ارتفاع الأسعار، مما زعزع مالية الدولة وأنزل الضرر بالطبقات المنتجة.» أنظر: ألبرت حوراني، «الفكر العربي في عصر النهضة»، ترجمة كريم عزقول (بيروت، ١٩٩٧)، ص ٤٦.

(٤) عادل منّاع، «تاريخ فلسطين في أواخر العهد العثماني، ١٧٠٠ - ١٩١٨ (قراءة جديدة)» (بيروت، ١٩٩٩)، ص ١٦٥.

(٥) فيليب حتي وآخرون، «تاريخ العرب» (بيروت، تصوير أُفست عن ط ٣، ١٩٦٢)، ج ٢، ص ٧٧٤.

(٦) المصدر نفسه.

(٧) قسطنطين بازيلي، «سورية وفلسطين تحت الحكم العثماني»، ترجمة طارق معصراني (موسكو، ١٩٨٩)، ص ١٦٢. وانظر أيضاً: جورج أنطونيوس، «يقظة العرب»، ترجمة علي حيدر الركابي (دمشق، ١٩٤٦)، ص ٢٤.

(٨) رفيق فرح، «تاريخ الكنيسة الأسقفية في مطرانية القدس، ١٨٤١ - ١٩٩١» (بيروت، ١٩٥٥)، ج ١، ص ١٦.

(٩) للتوسع في الموضوع، أنظر:

Irfan Shahid, *Rome and the Arabs: A Prolegomenon to the Study of Byzantium and the Arabs* (Washington, D.C., 1984); idem, *Byzantium and the Arabs in the Fourth Century* (Washington, D.C., 1984); idem, *Byzantium and the Arabs in the Fifth Century* (Washington, D.C., 1989); idem, *Byzantium and the Arabs in the Sixth Century* (Washington, D.C., 1995).

وانظر أيضاً: أنطوان عيسى، «تاريخ العرب المسيحيين في الأرض المقدسة»، في: «مؤتمر التراث العربي المسيحي والإسلامي» (القدس: اللقاء - مركز الدراسات الدينية والتراثية في الأراضي المقدسة، أيلول/سبتمبر ١٩٨٤)، ص ٩٩ - ١٢٠.

(١٠) عبد اللطيف البرغوثي، «العلاقات بين عرب القدس المسلمين والمسيحيين عبر التاريخ»، في: «مؤتمر التراث العربي للمسيحيين والمسلمين في الأراضي المقدسة»، الدورة العاشرة (القدس: اللقاء - مركز الدراسات الدينية والتراثية في الأراضي المقدسة، ١٠ - ١٢ أيلول/سبتمبر ١٩٩٢)، ص ٧٧ - ١٠٨.

(١١) سليمان عبد الله شليفر، «سقوط القدس» (بيروت، ١٩٧١)، ص ١١.

(١٢) حوراني، مصدر سبق ذكره، ص ٥٠.

(١٣) قاومت السلطات التركية من وقت إلى آخر محاولة المرسلين القيام بتعليم التلاميذ والتلميذات من المسلمين في المدارس، أو التبشير في القرى، أو فتح مدارس جديدة، وكذلك العمل في المستشفيات. ففي سنة ١٨٨٤، على سبيل المثال، أرسل محمد رؤوف، حاكم لواء القدس، منشوراً إلى مخاتير اللواء جاء فيه:

«وصل أمر من وزارة الداخلية بتاريخ ١٤ شباط [فبراير] ١٨٨٤ رقم ١٦٧ - أن جلالة السلطان يمنع دخول أولاد المسلمين إلى أية مدرسة أجنبية في جميع أنحاء الإمبراطورية العثمانية وأن من يخالف هذا الأمر سيتحمل نتائج مخالفته.. هذا وإذا لم يجبر المخاتير في القرى الحكومة عن مخالفة ما فإنهم سيتعرضون لأقسى العقوبات.» فرح، مصدر سبق ذكره، ج ١، ص ١٥٥.

(١٤) أنظر الوثيقة ١١٧ في: كامل العسلي، «وثائق مقدسية تاريخية» (عمان، ١٩٨٩)، المجلد ٣، ص ١٥٨. إذ تتدخل السلطة العثمانية (القرن الثامن عشر) لمنع ما يحدث «وأن بعض رهبان الإفرنج المرسل من طرف بابا يتبدلون ويتوجهون من ولاية ويُضِلون طوايف النصارى من روم وأرمن وغيرهم من ساير طوايف النصارى على متابعة دين الإفرنج ويحولونهم عن مذهبهم بحسب اعتقادهم الفاسد وأنه بسبب ذلك صار بين الرعايا الذميين اختلال وفساد، واتصل ذلك بمسامعنا الهمايونية وأن حدوث هذه القضية الغير مرضية ليس لنا رضى بذلك وأبرز خطنا الهمايوني الواجب الامتثال بمنع ذلك.»

(١٥) حوراني، مصدر سبق ذكره، ص ٥١.

مدارس وتعليم

من أهم عوامل النهضة الأدبية والثقافية في الشرق العربي في القرن التاسع عشر ومطلع القرن العشرين إقامة المدارس والمعاهد التربوية، وما أعقب ذلك من اتساع رقعة التعليم ودخول الطباعة وظهور الصحافة واتساع ميادين الثقافة.

ولا بد من عرض موجز سريع لما كانت عليه أوضاع التعليم والثقافة في بلدنا قبل العهد العثماني وفي إبانه، ثم ما كان من نشاط البعثات الأوروبية في هذا المضمار.

أولاً

أحاط الدكتور إحسان عباس في كتابه «فصول حول الحياة الثقافية والعمرانية في فلسطين»[١] بالملامح الأساسية لأحوال الثقافة في فلسطين العربية عبر العصور، فتحدث عن الأعلام والمراكز والصلات بالبلاد العربية الأُخرى، وبذلك توفر في هذا الكتاب مرجع مهم للدارسين.

غلبت الصفة الدينية على الحياة الثقافية في فلسطين في العصور الوسطى. وتمثلت الثقافة الدينية في دراسة الحديث وأصول الفقه وعلم الكلام ومسائل الخلاف واللغة وما إلى ذلك.

يتحدث ابن عساكر «عن طلاب الحديث وهم ينتقلون في المدن الفلسطينية، فينزلون بيت المقدس والرملة وطبرية وعسقلان وقيسارية لسماع الحديث فيها.»[٢] وتتوالى أسماء العلماء، فإذا فيهم الفقهاء والقضاة والمحدّثون. ونقرأ عن ظهور المدارس في القدس حين «يتحدث ابن العربي عن دخوله إلى 'مدارس' الحنفية والشافعية. ويميز منها مدرستين: مدرسة الشافعية بباب الأسباط ومدرسة أبي عقبة الحنفية بإزاء كنيسة القيامة.»[٣]

لكن التعليم تجاوز تلك الموضوعات. وقد لمع في القرن العاشر الميلادي (الرابع الهجري) أعلام، أبرزهم اثنان تجاوزت آثارهما حدود هذا البلد هما التميمي الطبيب والمقدسي الجغرافي. يقول عباس: «وتدل دراسة سيرة محمد التميمي

وبخاصة معرفة شيوخه الذين أخذ عنهم على أن القدس كانت في القرن الرابع تتمتع ببيئة علمية غنية، عدا العلوم اللسانية والدينية، فقد كان جده سعيد طبيباً، وكان الراهب الأنبا زخريا بن ثوابه فيها يتكلم في شيء من أجزاء العلوم الحكمية والطب، وعليه درس التميمي كما كان أكبر شيوخه في الطب الحسن بن محمد بن أبي نعيم المقيم في القدس.»(٤)

وللتميمي كثير من المؤلفات في الطب وصناعة الأدوية. أمّا المقدسي فهو الجغرافي الذي اعتبره أحد المستشرقين «أكبر جغرافي عرفته البشرية قاطبة»، بينما رأى فيه آخر أنه «أكثر الجغرافيين العرب أصالة.»(٥) وهو صاحب الكتاب المشهور «أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم».

ونقرأ عن كثرة توافد العلماء إلى القدس بصورة خاصة، وأبرزهم أبو بكر بن العربي الذي جاءها من الأندلس وطالت إقامته بها حين رآها تعج بالعلماء. وقد دوّن أخبار رحلته إلى بلدنا في مقدمة كتابه «قانون التأويل»، تلك الرحلة التي تمت نحو سنة ٤٨٨هـ/ ١٠٩٥م. ويرى عباس أن ما كتبه ابن العربي في الجزء الذي تحدث فيه عن فلسطين «أهم وثيقة في تصوير الحياة الثقافية والعمرانية فيها، حين زارها.»(٦)

ظل البلد حافلاً بالحيوية العلمية والثقافية. وعلاوة على القدس، كثرت المراكز في طبرية وصفد والرملة وغيرها. إلاّ إن الضربة العنيفة التي أنزلتها الحروب الصليبية بالبلد أصابت العلم والثقافة أيضاً، فشرد كثيرون من العلماء، وضربت معاهد التعليم حتى كان الفتح الصلاحي.

في تلك العهود في ظل الحكم العربي في بلادنا، كانت الحياة الثقافية حية مزدهرة، ولا بد من ذكر ذلك قبل الحديث عن التعليم والثقافة في العصور التالية.

ثانياً

أُهمل التعليم في ظل الحكم العثماني الطويل على الشرق العربي، ولم يتح إلاّ لنخبة أن تتعلم بجهود ذاتية. أمّا عامة الناس فقد سادت بينهم أمّية محزنة.

ولم تكن الحال في تركيا ذاتها أحسن من الولايات، فلم يبدأ اهتمام الدولة العثمانية رسمياً بالتعليم إلاّ في أواسط القرن التاسع عشر. ففي سنة ١٨٤٧ عُيّنت أول لجنة للمعارف لمراقبة المدارس في الولايات العثمانية، ولم تنشأ وزارة للمعارف إلاّ سنة ١٨٥٧.(٧)

أجمل أحمد أمين صورة الوضع الثقافي في الولايات العثمانية بقوله: «والولايات من مصر والشام والعراق والحجاز متدهورة متضعضعة، قد أمات نَفَسها توالي الاستبداد عليها؛ العلم فيها كتاب ديني شكلي يُقرأ، أو جملة تُعْرَب أو مَتْن يُحفظ... أمّا علوم الدنيا فلا شيء منها إلاّ حساب بسيط يستعان به على معرفة المواريث، أو قبس من فلك قديم يستدل به على أوقات الصلاة.»(٨)

وبعد أن وضعت الدولة العثمانية خطة للتعليم كان التنفيذ بطيئاً جداً، ولم يوفَّر لعامة الشعب إلاّ مدارس قليلة في بعض المدن. وكانت مدة الدراسة فيها أربعة أعوام، وقد عرفت باسم المدارس الرشدية. وكان يتعلم التلاميذ فيها «العلوم الدينية واللغة التركية ومبادئ اللغتين العربية والفارسية. كانت تدرّس اللغة العربية للاستفادة منها في تفسير القرآن والحديث، كما كانت تدرّس اللغة الفارسية للاستعانة بها في دروس الأدب العثماني.» أمّا ما سمي المدارس الإعدادية فيكون إنشاؤها «في مراكز الأقضية أو الألوية التي يتجاوز عدد سكانها (١٠٠٠) بيت.» وكانت موضوعات التعليم فيها: «اللغة التركية والحساب والهندسة والقانون العثماني والتاريخ العام والجغرافية والطبيعة والمنطق والكيمياء والجبر والرسم. ويتعلم التلاميذ لغة أوروبية هي اللغة الفرنسية، ولا تدّرس فيها اللغة العربية.»(٩)

أمّا المدارس السلطانية فهي أبعد منالاً، لا يُقبل فيها إلاّ الناجحون في المدرسة السابقة، ولا توجد إلاّ في مراكز الولايات. ويقسم التعليم فيها إلى قسمين: ١ - القسم العالي: ومدة الدراسة فيه ستة أعوام، ويتفرع إلى شعبتين: شعبة الآداب وشعبة العلوم. ٢ - القسم العادي: ومدة الدراسة فيه ثلاثة أعوام. «والتعليم في هذه المدارس باللغة التركية ولا تدرّس فيها اللغة العربية.»(١٠)

رسم والي سورية أحوال التعليم في خطاب ألقاه في حفل افتتاح المجلس العمومي سنة ١٩١٠، فقال:

«... إن المدارس في حالة يرثى لها، وهي ليست على شيء من العلم والتعليم وتغذية نفوس أبناء الوطن، ومن المؤسف أن المعلمين فيها ليسوا على شيء من علم تربية الأطفال ومعرفة طرق التعليم ولوصول مدارسنا إلى هذه الحالة سببان: أحدهما: ظلم الدور البائد واستبداده وثانيهما: انتظار الأهالي من الحكومة تأسيس المدارس ومع هذا فإن الأهالي في احتياج شديد لإرشاد الحكومة في سبيل نشر المعارف وتعميمها.»(١١)

أُنشئت أول مدرسة رشدية في فلسطين في القدس سنة ١٨٦٨. وكان عدد

تلاميذها ٨٠ تلميذاً، علّمهم معلمان. بعد ذلك أُنشئت مدرسة رشدية أُخرى في عكا سنة ١٨٧٦، بلغ عدد تلاميذها ٥٠ تلميذاً وعدد معلميها ٥ معلمين. ولم يزدد عدد المدارس الرسمية في فلسطين حتى سنة ١٩١٤ على ٩٥ مدرسة، وكانت لغة التعليم فيها التركية.

حيال ذلك بدأت جمعيات إسلامية، مثل جمعية المقاصد الخيرية، إنشاء مدارس خاصة، سنة ١٨٧٠، «كردة فعل على المدارس التركية والمسيحية، وبحافز سياسي - قومي ضمني.»[١٢] وانطلقت من مدرستين (القدس وعكا) واتسعت في الثمانينيات حتى وصل عددها سنة ١٩١٤ إلى ٣٧٩ مدرسة، بلغ مجموع طلابها ٨٧٣١ طالباً وطالبة.

تعرضت هذه المدارس في مطلع الأمر لاضطهاد السلطات جرّاء تعليمها اللغة العربية، وهو ما كان يتعارض مع سياسة التتريك. كما كانت تغذي الروح القومية، الأمر الذي دعا إلى اتخاذ قرار بجعلها تحت مراقبة حكومية شديدة للإشراف على ما يجري فيها.[١٣]

وللتمثيل على ذلك الاضطهاد وتلك الملاحقة ما ورد في ترجمة محمد إبراهيم الشاعر في كتاب يعقوب العودات (البدوي الملثم) «من أعلام الفكر والأدب في فلسطين» إذ يقول: «كان جده عبد الخالق الشاعر أول من أسس مدرسة نظامية في يافا عام ١٨٦٠ لتدريس اللغة العربية وآدابها، غير أن السلطات التركية اعتبرت عمله الثقافي هذا تحدياً لسياسة التجهيل التي تبنتها في الولايات العربية، فلاحقت عبد الخالق وأغلقت مدرسته أكثر من مرة.»[١٤]

وورد في ترجمة الشيخ محمد الصالح ما يلي: «وفي هذه السن [سن الأربعين] رأى إقبال الإرساليات الأجنبية على تأسيس المدارس التبشيرية شديداً، ولمس تخلف المدارس الحكومية وتعثرها في مجاراة المعاهد الأجنبية، فأخذ يفكر بحاجة مواطنيه لمعهد وطني عال يسد الفراغ الذي يشعر به كل قومي غيور على أمته... فأقدم غير هيّاب على تأسيس (روضة الفيحاء) في أواخر عهد الخليفة العثماني السلطان عبد الحميد... ومن أبرز طوابع ذلك المربي الصالح إقدامه بجرأة على تدريس النحو والتاريخ والدين بالعربية بينما كانت تدرّس هذه المواد للطلاب العرب في المدارس الأميرية باللغة التركية.»[١٥]

يتحدث الدكتور ناصر الدين الأسد عن الأوضاع المعوقة للنهضة في فلسطين والأردن، فيشير أولاً إلى إغفال الحكومة العثمانية المركزية عن إصلاح شؤون الألوية

التي قُسّم إليها هذان البلدان (لواء القدس ولواء نابلس ولواء عكا ولواء الكرك)، وثانياً إلى فقدان التعليم العربي الثانوي والعالي، وما نجم عن ذلك من جهل مطبق كان يخيم على السواد الأعظم من السكان. «فلم تكن في هذين البلدين حتى سنة ١٨٨٩ أية مدرسة إعدادية [ثانوية متوسطة] قط، ثم لم تنشأ فيهما أية مدرسة ثانوية كاملة إلاّ قرب زوال الحكم التركي سنة ١٩١٣.

«لذلك كان هذان البلدان طوال القرن التاسع عشر خاليين من أي ضرب من ضروب التعليم الحكومي الحديث الذي يعين على إيجاد نهضة أدبية عربية آنئذ. فقد كانت المدارس إمّا 'كتاتيب وقفية' قديمة لم تنل أي حظ من الإصلاح، مهمتها شيء من القراءة والكتابة والتجويد، وإمّا مدارس رسمية قليلة العدد، لغة التعليم فيها التركية لا العربية.» وأمّا العامل الثالث، كما يراه الأسد، فهو «ضعف صلة هذين البلدين بالعالم الخارجي.»(١٦)

ثالثاً

في هذه الأوضاع سبق نشاطُ الدول الأوروبية في إنشاء المدارس في فلسطين وبلاد الشام تحرُّكَ الدولة العثمانية في هذا المضمار.

بدأ هذا النشاط وظيفياً، شرعت فيه الكنيسة الكاثوليكية، لـ «تزويد حراسة الأراضي المقدسة بعدد وافر من المسيحيين يتقنون لغة أجنبية للعمل في الأديار ولخدمة الحجاج كمترجمين.»(١٧) فكانت أول مدرسة أنشأها الآباء الفرنسيسكان في بيت لحم في القرن السادس عشر.

أمّا في القرن السابع عشر فكان نصيب فلسطين من هذه المدارس ستاً، يتعلم فيها الأولاد «الإيمان الكاثوليكي والعلوم فيخلف الأولاد آباءهم كمترجمين.» أمّا في مدرسة القدس فكان برنامج التعليم «يشمل الترنيم الكنسي والموسيقى واللغة الإيطالية واللاتينية والتعليم المسيحي.» أخذ نشاط الكنيسة الكاثوليكية يتسع في القرون التالية حتى بلغ أوجه في أواسط القرن التاسع عشر، إذ شهدت سنة ١٨٥٦ إنشاء مدارس جديدة في رام الله واللد وجفنة، ثم في حيفا سنة ١٨٥٨، وفي عكا سنة ١٨٦١. وشرع في تحسين مستوى التعليم و«تحويل المدارس من مدارس خاصة إلى عامة وفتحها لكافة المواطنين.» ولا بد من الإشارة إلى المؤسسات المتعددة التي عملت في هذا المضمار، فهناك الفرير (أخوّة المدارس المسيحية)،(١٨) والرهبنة الساليسية

(الساليزيان)، وراهبات المحبة، وراهبات الناصرة، والراهبات الكرمليات، وراهبات القديس يوسف، وراهبات المخلص.[١٩]

ونشير إلى بعد آخر من هذا النشاط، هو إنشاء المدارس الزراعية والصناعية والمياتم. ففي سنة ١٨٦٧، أسس الأب بلوني أول مدرسة زراعية في فلسطين في قرية بيت جمال، وأسس مدرسة أُخرى فيما بعد في ضواحي بيت جالا، هي كريمزان. وتوسع في مشاريعه الخيرية واشتهر لقبه في فلسطين بـ «أبو اليتامى».

وفي سنة ١٨٩٢، أنشئت في بيت لحم مدرسة لإعداد المعلمين للمدارس الكاثوليكية.

رابعاً

أمّا النشاط البروتستانتي فتلتقي في إطاره الإرساليات الإنكليزية والبروسية (الألمانية) والأميركية:

«أنشئت مطرانية القدس الأسقفية باتفاق وتنسيق بين السلطات الحكومية والروحية البروسية (الألمانية) والإنكليزية سنة ١٨٤١، وتم الاتفاق على كيفية التعامل مع الجماعات البروتستانتية الألمانية التي تقيم في حدود المطرانية. وتم التعاون بين العديد من الجمعيات الإرسالية في هذا الإطار. أمّا الإرساليون الأميركان فكانوا في القدس منذ عشرينيات القرن التاسع عشر ثم انسحبوا منها بعد تأسيس مطرانية القدس لتقوية عملهم في بيروت ولبنان بناء على تفاهم متبادل مع جمعية المرسلين الكنسية.»[٢٠]

كشف المطران صموئيل غوبات (المطران الثاني، وكان عُيّن سنة ١٨٤٦) عن رأيه في التعليم وإنشاء المدارس في رسالة بعث بها إلى القنصل العام البريطاني في بيروت، الكولونيل روز، في تشرين الأول/أكتوبر ١٨٤٧، إذ قال: «أعتقد أنه إذا قامت بريطانيا لتحمي الدروز وتعلمهم فسيثبت لها بالبرهان أن هذه وسيلة لوضع قدمها في البلاد مثل فرنسا وروسيا. وإني على يقين أنه إذا أصبحت بريطانيا حامية البروتستانتية، أي حامية الحرية الدينية بيد قوية فستكون هذه وسيلة للتأثير الثابت العادل على هذه البلاد خلال سنوات قليلة.»[٢١]

أول المدارس التي أنشأها المطران غوبات كانت في القدس والسلط ونابلس والناصرة، ثم أعقبتها مدارس أُخرى في بيت لحم وبيت جالا واللد والرملة ويافا

ورفيديا ونصف جبيل والزبابدة وبرقين وشفا عمرو. وكان في معظم هذه المدارس معلم واحد أو اثنان وعدد الطلاب يتراوح بين ١٠ و٦٠ طالباً.(٢٢)

من أهم المعاهد التي أنشأتها تلك الإرساليات:

- مدرسة صهيون (١٨٥٣ - ١٩٤٨): كان فيها قسم داخلي منذ سنة ١٨٩٨. وارتفع التدريس فيها إلى مستوى الشهادة الثانوية التي تهيئ لدخول الجامعة الأميركية في بيروت،(٢٣) وكثيرون من خريجيها تابعوا دراستهم في تلك الجامعة. تعلم فيها الطلاب من مختلف الطوائف، وتخرّج منها نابهون كان لهم دور مهم في الحياة الثقافية والوطنية في البلد.
- مدرسة الشباب (١٨٧٧ - ١٩٠٤): انضم إلى الهيئة التدريسية فيها سنة ١٨٩٢ المعلم نخله زريق الذي، بشهادة خليل السكاكيني، «استطاع بنفوذه وشخصيته الراقية أن يجعل من تلك المدرسة الأجنبية مدرسة وطنية تخرّج مبشِّرين بالوطنية كما كانت تخرّج مبشرين بالدين.»(٢٤) وقد عرف نخله بحب اللغة العربية والتضلّع منها والحماسة لترسيخها ونشرها. وقال فيه تلميذه حبيب الخوري الذي أصبح مفتشاً للعربية فيما بعد: «كان من أكبر العوامل لإحياء اللغة العربية، ولقيام نهضة أدبية في فلسطين.»(٢٥)
- الكلية الإنكليزية (١٩٠٤ - ١٩٣٠): أنشئت بعد إغلاق مدرسة الشباب، وكانت الدراسة فيها ثلاثة أعوام. يقول حسن الكرمي الذي جاء ليدرس فيها سنة ١٩٢٤ «.. ولم تكن الكلية كاملة وكان فيها ثلاثة صفوف أو أربعة، اثنان منها جامعيان وصف أو صفان دون المرتبة الجامعية، وطلابها خليط من فلسطينيين وأردنيين وعراقيين ويهود، نذكر من طلابها سليمان النابلسي الذي صار فيما بعد سفيراً للأردن في لندن ثم رئيساً للوزارة الأردنية وبهاء طوقان الذي صار فيما بعد وزيراً للبلاط الأردني.»(٢٦) أغلقت هذه الكلية في تموز/يوليو ١٩٣٠ بسبب العجز المالي.
- مدرسة سان جورج في القدس أو كما اشتهرت شعبياً باسم مدرسة المطران (١٨٩٩ حتى اليوم): كان بين المعلمين فيها خليل السكاكيني وخليل بيدس، ومن طلابها الشاعر إبراهيم طوقان.(٢٧)
- وفي إطار المدارس التبشيرية البروتستانتية يشار إلى دار الأيتام السورية - الألمانية، أو كما عرفت شعبياً باسم مدرسة شنلّر، نسبة إلى مؤسسها. وكانت فيها فروع لتعليم النجارة والحدادة وصناعة الأحذية والخياطة والطباعة والزراعة. وفي سنة ١٨٨٠، فتح شنلّر مدرسة في الخليل، كما

فتح في السنة نفسها فرعاً لليتيمات يتعلمن فيه تدبير المنزل، علاوة على الدروس العادية، ومدرسة للمكفوفين. وفي سنة ١٩٠٦، أضيف إلى المؤسسة فرع زراعي في بير سالم ضُم إليه قسم ثانوي وآخر لتدريب المعلمين. وفي تلك السنة أقيم فرع ابتدائي في الناصرة يلتحق بعده الأولاد إمّا بالقدس أو ببير سالم.

- مدرسة طاليتا قومي للبنات: أنشأتها الإرساليات الألمانية سنة ١٨٥١ في القدس. وفي سنة ١٩٠٤، افتُتحت فيها صفوف لتدريب المعلمات.
- الميتم - الأورفانج في الناصرة (١٨٧٤ - ١٩٦٦): مدرسة داخلية ابتدائية للبنات.
- المدرسة الإنكليزية العليا للبنات في حيفا: كان في حيفا مدرسة إرسالية للبنات سنة ١٨٩١. وفي سنة ١٩٢٣، وضع تصميم لبناء يتسع لـ ٢٥٠ طالبة في القسم الخارجي ولـ ٣٠ طالبة في القسم الداخلي. وافتتح هذا المبنى سنة ١٩٢٩، وظلت المدرسة فيه حتى نهاية الانتداب البريطاني. كذلك أقيمت في يافا مدرسة إنكليزية عليا للبنات استمرت حتى نهاية الانتداب.

هكذا ساد النشاطان البروتستانتي والكاثوليكي على الساحة في المجالات التعليمية والعلاجية والخيرية عامة. وانتقل كثيرون من بنات وأبناء الطائفة الأورثوذكسية إلى هاتين الطائفتين الجديدتين. فجاء النشيطون الروس لإقامة شبكة واسعة من المدارس «لحفظ الأورثوذكسية في البلاد المقدسة» على حد تعبيرهم.

وقد اشتدت المنافسة بين تلك الإرساليات، كل توسّع نشاطها، وتحرض على سواها، وتسعى لاجتذاب مزيد من الأتباع على حساب الفئات الأُخرى.

يقول حنا كلداني: «وبدون شك فإن وجود الجمعيات الرهبانية الكاثوليكية ارتبط بسياسة بلادها الأصلية، ونشرت هذه الجمعيات لغاتها من خلال التعليم، كالألمانية والفرنسية والإيطالية. وقد رأى بعض المحللين لتاريخ فلسطين الديني في القرن التاسع عشر أن هذه الجمعيات بمدارسها ومستشفياتها ومؤسساتها، حققت التوازن تجاه الجمعيات الإنكليزية البروتستانتية والروسية الأورثوذكسية. ونظرة التوازن والتنافس هذه لم تكن قصراً على كنيسة معينة بل عمت جميع الكنائس، وعُدّت قاعدة للتعامل في السلطنة العثمانية في ظل نظامي الامتيازات والملل.»[٢٨]

هذه المنافسة لتحقيق التوازن حفزت تلك الإرساليات على إنشاء المزيد من المدارس والمؤسسات الخيرية.

الهوامش

(١) إحسان عباس، «فصول حول الحياة الثقافية والعمرانية في فلسطين» (بيروت، ١٩٩٣).

(٢) المصدر نفسه، ص ٢٤؛ أنظر أيضاً: ص ١٣٢ - ١٣٥، عند الحديث عن أهم المدارس، ومنها في القدس: «المدرسة الصلاحية والمدرسة العثمانية والمدرسة الفارسية والمدرسة التنكزية والمدرسة المأمونية.»

(٣) المصدر نفسه، ص ٢٧.

(٤) المصدر نفسه، ص ٣٥.

(٥) المصدر نفسه، ص ٤١.

(٦) المصدر نفسه، ص ٤٧.

(٧) سنة ١٨٤٨، أنشئت أول دار للمعلمين في الآستانة. أمّا أول مدرسة ثانوية للبنات فكانت سنة ١٨٦١. وفي سنة ١٨٧٠، فتحت دار المعلمات لتخريج معلمات للمدارس الثانوية.

(٨) أحمد أمين، «زعماء الإصلاح في العصر الحديث» (القاهرة، ١٩٤٨)، ص ٣ - ٤.

(٩) عبد العزيز محمد عوض، «الإدارة العثمانية في ولاية سورية، ١٨٦٤ - ١٩١٤» (القاهرة، ١٩٦٩)، ص ٢٥٥.

(١٠) المصدر نفسه، ص ٢٥٦.

(١١) المصدر نفسه، ص ٢٦٠.

(١٢) Abdul Latif Tibawi, *Arab Education in Mandatory Palestine: A Study of Three Decades of British Administration* (London, 1956), p. 11.

(١٣) Ibid.

(١٤) يعقوب العودات (البدوي الملثم)، «من أعلام الفكر والأدب في فلسطين» (القدس، ط ٣، ١٩٩٢)، ص ٢٩٧.

(١٥) المصدر نفسه، ص ٣٤٢.

(١٦) ناصر الدين الأسد، «الشعر الحديث في فلسطين والأردن» (القاهرة، ١٩٦١)، ص ١٠ - ١١.

(١٧) حنا كلداني، «المسيحية المعاصرة في الأردن وفلسطين» (عمان، ١٩٩٣)، ص ١٥٣ - ١٥٤.

(١٨) من الذين تعلموا في مدارس الفرير: الحاج أمين الحسيني؛ يوسف هيكل؛ موسى العلمي؛ عيسى البندك؛ عميد الإمام؛ محمود سيف الدين الإيراني؛ عارف العزوني؛ مؤيد إبراهيم؛ ضياء الخطيب؛ عيسى العيسى (منشئ جريدة «فلسطين») وغيرهم. بشأن سِيَر هؤلاء، أنظر: العودات، مصدر سبق ذكره.

(١٩) كلداني، مصدر سبق ذكره، ص ١٥٣ وما بعدها.

(٢٠) رفيق فرح، «تاريخ الكنيسة الأسقفية في مطرانية القدس، ١٨٤١ - ١٩٩١» (بيروت، ١٩٩٥)، ج ١، ص ٩٨.

(٢١) المصدر نفسه، ج ١، ص ١٢٤.

(٢٢) المصدر نفسه.

(٢٣) المصدر نفسه، ج ٢، ص ٥٠٧.

(٢٤) خليل السكاكيني، «ما تيسّر» (القدس، ١٩٤٦)، ج ٢، ص ١٩.
(٢٥) العودات، مصدر سبق ذكره، ص ٢٣٦.
(٢٦) جريدة «القدس الدولي»، العدد ٢٥٧، ٢٤ و٢٥ شباط/فبراير ١٩٩٠.
(٢٧) من الذين تعلموا في مدرسة المطران أو مدرسة صهيون أو مدرسة الشباب: خليل السكاكيني؛ أحمد سامح الخالدي؛ حسين فخري الخالدي؛ إسحق موسى الحسيني؛ روحي الخطيب؛ حبيب الخوري؛ متري برامكي؛ عمر الصالح البرغوثي؛ نصري الجوزي؛ فؤاد سابا؛ جميل سعيد؛ بولس شحاده؛ جورج شهلا؛ أنيس صايغ؛ عزّة طنوس؛ وصفي عنبتاوي؛ إميل الغوري؛ نبيه أمين فارس؛ إبراهيم طوقان؛ شريف النشاشيبي؛ حسني المقدادي؛ أسعد منصور.
ومن الذين تعلموا في مدرسة المصلّبة (القدس): بندلي الجوزي؛ نجيب الساعاتي؛ جورج سكسك؛ المطران نقولا عبد الله.
ومن الذين تعلموا في السِّمنار الروسي: خليل بيدس؛ سليم قبعين؛ إسكندر الخوري؛ فضيل النمر؛ نعمه الصباغ.
ومن الذين تعلموا في الفرندز: سعيد الفاروقي؛ سعيد العيسى؛ رجا العيسى؛ هشام شرابي؛ خلوصي الخيري؛ عماد الأنشاصي...
بشأن سِيَرَهم، أنظر: العودات، مصدر سبق ذكره.
(٢٨) كلداني، مصدر سبق ذكره، ص ٢٦٢.

المدارس الروسيّة

يعود اهتمام روسيا بفلسطين إلى عهد بعيد، انطلاقاً من الصلة الدينية بالبلاد المقدسة بعد انتشار المسيحية هناك في القرن العاشر. وزار بلدنا كثيرون من الحجاج والرحالة في عصور متعددة، وكتب بعضهم ارتساماته عن تلك الزيارات. ولعل أقدم الإشارات هي التي تتحدث عن «رحلة الأسقف دانييل في القرن الثاني عشر.»[١]

أمّا الاهتمام بالاستشراق في الجامعات الروسية فيعود إلى أواخر القرن السابع عشر، وكانت قائمة المستشرقين الروس منذ ذلك الحين طويلة.

ومن اللافت للنظر استقدام الشيخ المصري محمد الطنطاوي إلى روسيا سنة ١٨٤٠ لتعليم اللغة العربية في جامعة سان بطرسبرغ، وقد تتلمذ على يده كثيرون.

إلاّ إن الاهتمام السياسي هو الذي تجسد في السعي لإقامة صلات مباشرة وإنشاء المؤسسات الثقافية والطبية.

اعتبرت روسيا نفسها موئل المسيحية الأورثوذكسية، وسعت لإقامة علاقات بالطائفة الأورثوذكسية الموجودة في إطار الدولة العثمانية. «وقد جعلت روسيا لنفسها، في معاهدة كوتشوك كاينرجي عام ١٧٧٤، أساساً حقوقياً لتلك العلاقات، أصبح له فيما بعد مضاعفات سياسية هامة، إذ كان الأورثوذكس يشكلون أكبر طائفة مسيحية في الإمبراطورية.»[٢]

أورد شكري سويدان قائمة بالجمعيات الإرسالية التي عملت في فلسطين في أواخر القرن التاسع عشر، فكانت أربع منها إنكليزية، وست ألمانية، وخمس فرنسية، واثنتان روسيتين هما:

أ) الرسالة الروحية الروسية في أورشليم، سنة ١٨٥٤.

ب) الجمعية الإمبراطورية الأورثوذكسية الفلسطينية الروسية، تأسست في ٢١ أيار/مايو ١٨٨٢ «لحفظ الأورثوذكسية في البلاد المقدسة ورتق ما فتقه من ثوبها القشيب أولئك الجمعيات المتقدم ذكرها.»[٣]

هذه الجمعية هي التي أنشأت شبكة من المدارس في فلسطين وسورية ولبنان ظلت تتسع باطراد حتى بلغ عددها ١١٤ مدرسة تضم معاً ١٥,٠٠٠ طالب وطالبة سنة

١٩١٤،[٤] وهي السنة التي توقف فيها عمل الجمعية، وأغلقت مدارسها، لأن الدولتين العثمانية والروسية أصبحتا آنذاك متحاربتين في خندقين متعادين.

وقد أشار ألكسندر سالفيوف (الباحث العلمي في معهد الاستشراق التابع لأكاديمية العلوم السوفياتية) إلى الأوضاع التي نشأت فيها هذه الجمعية فقال:

«في القرن التاسع عشر تعاظم سيل الحجاج [إلى فلسطين] بشكل ملحوظ. وبدأ تبادل تجاري نشيط بين روسيا وفلسطين. وشرعت سفن الشركة الروسية للملاحة والتجارة التي تأسست عام ١٨٥٧ تتردد على الموانئ العربية بانتظام...

«.. وفي عام ١٨٨٢ تشكلت الجمعية الروسية الفلسطينية التي نظمت نشر مجلات الدراسة الفلسطينية. وكانت المهمة الرئيسية التي وضعتها نصب عينيها هي الدعاية لأحدث المنجزات في مجال دراسة فلسطين. إن مجلات الدراسة الفلسطينية وعدداً من الكتب كانت مكرسة للبحث في حقول التاريخ والتنقيب والآثار والطب والجغرافيا والفن والأدب واللغة في بلدان الشرق الأوسط. وكانت الجمعية الروسية الفلسطينية توفد العلماء والرحالة الروس: يليسييف، مار، أوسبنسكي، كونداكوف وغيرهم للقيام برحلات خاصة في أرجاء سورية وفلسطين بغية التعرف والبحث المفصل لهذه المنطقة. كما أن التقارير التي أسفرت عنها هذه البعثات كانت تناقش في اجتماعات الجمعية، ثم يتم نشرها.»[٥]

كان المستشرق الروسي فاسيلي خيتروفو (ت ١٩٠٣) الروح الحية التي عملت على إنشاء الجمعية الإمبراطورية الأورثوذكسية الفلسطينية. فقد تمكن من أن يجند لفكرته الأمير سرجيوس، عم القيصر قسطنطين الثاني، والذي كان حجّ إلى فلسطين سنة ١٨٨١. وقد صاغ خيتروفو غايات تلك الجمعية فيما يلي:

١ - عضد الأورثوذكسية في الأرض المقدسة.

٢ - مساعدة الزوار الروس المسافرين إليها.

٣ - تأليف وطبع الأخبار عن الأرض المقدسة ونشرها بين الروس.[٦]

وفي إطار الغاية الأولى وضعت الجمعية نصب عينيها:

١ - إنشاء مدارس من أجل أن يتعلم ويتربى فيها الأحداث في روح الإيمان القويم، ومساعدة المدارس الموجودة.

٢ - بناء كنائس جديدة ومساعدة الموجود منها.

٣ - تقديم المساعدة الطبية لسكان الأرض المقدسة عامة من دون تفريق في الجنس والمذهب.[٧]

وقد تقيد نشاط الجمعية منذ البداية بمشكلة الصراع مع البطريركية اليونانية الأورثوذكسية في القدس، التي كانت ترى نفسها مسؤولة عن الطائفة الأورثوذكسية في البلد، إذ «بموجب نظام الملة العثماني كان التعليم مسؤولية كل طائفة، وكان واجب البطريرك، وفقاً لنصوص الأنظمة السلطانية سنة ١٨٧٥، 'أن يوجه اهتمامه إلى. . . الإدارة الصالحة. . . للمدارس القائمة'.»(٨) لذلك لم ترضَ البطريركية عن نشاط الجمعية التي تزاحمها السلطة، فاصطدمت بها، وكان لا بد للجمعية من أن تناور.

ونجد خطة عمل الجمعية في رسالة كتبها خيتروفو في كانون الأول/ ديسمبر ١٨٨٢ إذ قال: «سنفتح مدارس في الجليل، إنْ أمكن، بعيداً بعض الشيء عن البطريركية التي يمكن أن تتدخل إذا كنا قريبين. وفي حال لم نكن قريبين جداً فسيكون اهتمامها بنا قليلاً، وبهذا الشكل يمكننا أن نتحرك من الشمال إلى الجنوب. وحين تنشأ عشرون أو ثلاثون مدرسة كهذه يمكننا أن نبدأ التفكير في جمنازيوم أورثوذكسي، لكن في هذه الأثناء يمكن أن نأخذ عربيين أو ثلاثة لنعلمهم هنا [في روسيا].»(٩)

فتحت الجمعية مدرستها الأولى في فلسطين في قرية المجيدل في أيار/ مايو ١٨٨٢ (وما زالت آثار الكنيسة الأورثوذكسية هناك يتيمة، فقد دُمرت القرية وأقيمت على موقعها مستعمرة يهودية). وبعد ذلك فتحت ثلاث مدارس أُخرى: في الرامة في ٢٣ شباط/ فبراير ١٨٨٣، وفي كفر ياسيف في ٢٧ نيسان/ أبريل من السنة نفسها، وفي الشجرة في ١ شباط/ فبراير ١٨٨٤.(١٠)

ثم رأت الجمعية أن يكون لها في فلسطين وكيل لمراقبة مدارسها، فاستدعت، في حزيران/ يونيو ١٨٨٣، إسكندر جبرائيل كزما، الدمشقي الأصل، وكان يدرس اللاهوت في موسكو، كي يعود إلى البلد لهذه الغاية. وقد ثبت أن هذا الاختيار كان موفقاً. إذ أشرف إسكندر كزما على العمل منذ البداية، وواكب نشاط الجمعية في إنشاء المدارس، وظل مديراً لدار المعلمين الروسية في الناصرة (السِّمِنار) حتى وضع نشوب الحرب العالمية الأولى سنة ١٩١٤ نهاية لذلك النشاط وتلك الجهود.

في بيان ألقاه كزما في اليوبيل الفضي للجمعية، سنة ١٩٠٧، تحدث عن المشكلات التي جابهها في عمله، فقال: «لمّا حضرت باشرت بما عهد إليّ اعترضتني لسوء الحظ عند خطواتي الأولى صعوبات فلسطينية شديدة(١١) فاضطررت بأمر الجمعية أن أتوقف عن متابعة عملي وأترك فلسطين وأحضر إلى بيروت حيث بقيت أنتظر زوال الشدة صارفاً الوقت في تدريس اللغة الروسية في المدرسة الأورثوذكسية المحلية ونقل بعض الكتب التدريسية إلى العربية من الروسية اللازمة

لمدارس الجمعية وكانت إقامتي في بيروت وتوقفي عن العمل فرصة مناسبة أمعنت الجمعية في أثنائها النظر فيما يتوجب عليها عمله والتروي في الطرق الضامنة لها ثمرة هذا العمل. فاتصلت بالاعتقاد بضرورة إعداد المعلمين قبل فتح المدارس التي لا تكون منها منفعة بدون معلمين مستعدين تخرّجوا في مدرسة قانونية.»[١٢]

كانت الخطة أولاً أن يقام هذا المعهد في بيروت، لكن «في آخر سنة ١٨٨٤ أخذت تنقشع غيوم الصعوبات الفلسطينية. . . وتيقنت بالأكثر بضرورة الإسراع بإنشاء مدرسة للمعلمين قبل مدارس القرى الابتدائية وقررت أن يكون مركزها في الناصرة حيث عزمت أيضاً أن تفتح مدرسة للبنات التي كانت الحاجة ماسة إليها جداً لخلو فلسطين والناصرة خصوصاً إذ ذاك من مدرسة للإناث أورثوذكسية ما عدا مدرسة في بيت جالا للروسيين وإنما اختارت الجمعية الناصرة دون غيرها لأسباب أهمها وجود دار للزوار الروسيين فيها تكون أغلب السنة فارغة وضعف الظروف الفلسطينية المعاكسة في الجليل عموماً وفيها خصوصاً وتوسطها بين المجيدل والرامة حيث توجد مدارس للجمعية.»

بعد إتمام الاستعدادات افتتحت المدرسة الداخلية للمعلمين في احتفال جرى في ٣ أيلول/سبتمبر ١٨٨٦، وكان فيها ١٢ طالباً (٦ داخليون و٦ خارجيون)، وكانت المدة القانونية للدراسة فيها «أربع سنوات مقسومة إلى نصفين والعلوم التي دخلت في لائحتها الأولية كانت التعليم المسيحي والعربية والروسية واليونانية والإفرنسية والحساب والجغرافيا والتاريخ والترتيل الكنائسي والخط الروسي والعربي.»[١٣]

أمّا الطلاب الذين يُقبلون في هذا المعهد فهم المتفوقون في المدارس الابتدائية التي أنشأتها الجمعية. وكان طلاب العام الأول من خريجي مدرسة الرامة ومدرسة المجيدل، وواحد من مدرسة بيروت الأورثوذكسية، ثم خمسة طلاب من مدرسة البروتستانت (كان بينهم سليم قبعين).

هكذا، أخذ هذا المعهد يهيئ فرصة ثقافية مهمة لمجموعات من الطلاب الموهوبين من فلسطين وسورية ولبنان. وكان عليهم بعد أربعة أعوام من الدراسة أن يصبحوا معلمين في مدارس القرى الابتدائية، بعد أن يكونوا مارسوا التعليم في المدرسة الابتدائية «الخارجية» التابعة للجمعية في الناصرة، بإشراف أحد معلمي «الداخلية».

وذكر إسكندر كزما في البيان الذي ألقاه في اليوبيل الفضي للجمعية أنه «دخل المدرسة من حين تأسيسها لغاية أيلول [سبتمبر] سنة ١٩٠٦ ١٧٠ تلميذاً منهم نحو

٥٠ تلميذاً، لا يزالون يتعلمون فيها وأمّا المئة والعشرون الباقون الذين تعلموا فيها فقد نال منهم ٥٨ الشهادة المدرسية وتعيّنوا معلمين في مدارس الجمعية الابتدائية ومن هؤلاء ٥٤ من فلسطين و٤ من سورية وعلاوة على ذلك فمن أولئك الـ ١٢٠ أرسلت الجمعية ٩ أولاد إلى روسيا ليكملوا علومهم في مدارسها الكلية.»[١٤]

ظل هذا المعهد يحمل اسم المدرسة الداخلية للمعلمين.[١٥] ويستخدم خليل بيدس هذه التسمية حين يُعرّف بنفسه على غلاف كتابه «العقد الثمين في تربية البنين»، المطبوع في لبنان سنة ١٨٩٨، أنه «أحد خريجي المدرسة الروسية الداخلية في مدينة الناصرة.»

«وفي سنة ١٩٠٠ رقت المدرسة الداخلية إلى سِّمِنار علمي يتخرج فيه الآن المعلمون الرسميون لمدارس الجمعية في فلسطين وسورية.»[١٦]

وقد أصبحت الدراسة في السِّمِنار ستة أعوام،[١٧] وأدخل إلى البرنامج الاختيار ما بين اللغة التركية واللغة الإنكليزية، وبعض الدروس المهنية، وجعلت للغة الروسية حصة أكبر في الصفوف العليا.

وفي سنة ١٨٩٨، كان يعلم في هذا المعهد تسعة معلمين، خمسة من الروس وأربعة من العرب. وكان إسكندر كزما مشرفاً على شؤون «الداخلية»، ومعلماً فيه، ثم مديراً حتى إغلاقه سنة ١٩١٤.

وكان هناك دار للمعلمات في بيت جالا موازية لدار المعلمين في الناصرة. وكانت أنشأتها، كمدرسة، محسنة روسية في القدس في بداية الأمر سنة ١٨٥٨. لكن ضغط البطريركية اليونانية اضطر المسؤولين إلى نقلها إلى بناية مستأجرة في بيت جالا. وفي سنة ١٨٦٩، أنجزوا إقامة مبنى لها. وفي سنة ١٨٩٠، افتتحت كمدرسة داخلية للبنات، ثم مضت في امتيازاتها وتطورها، موازية لدار المعلمين في الناصرة. وفي سنة ١٨٩٨، بعد انتهاء الفوج الثاني من المتخرجات كان خُمْس المعلمات في مدارس الجمعية، والبالغ عددهن ٨٢ معلمة، من خريجات هذا المعهد.[١٨]

وفي حزيران/يونيو ١٩١٤، أُقرّ برنامج جديد لداريّ المعلمين في الناصرة وبيت جالا، وفي المدارس الروسية كافة. وقد شمل الإصلاح إدخال الأدب الروسي المعاصر، والتاريخ والجغرافيا الحديثين، والعلوم، واختيار تعلُّم اللغة الإنكليزية أو اللغة الفرنسية. وكان هناك خطط لإقامة كلية أو جامعة في سورية،[١٩] لكن الحرب العالمية الأولى كانت على الأبواب، فلم تتح لهذه القرارات أن تنفذ، إذ أُغلقت كل المعاهد الروسية في البلد.

(١) عمر محاميد وآنا دولينينا، «الاستشراق الروسي» (أم الفحم، ١٩٩٨)، ص ١١.

(٢) ألبرت حوراني، «الفكر العربي في عصر النهضة»، ترجمة كريم عزقول (بيروت، ١٩٩٧)، ص ٥١.

(٣) شكري سويدان، «تاريخ الجمعية الإمبراطورية الأرثوذكسية الفلسطينية» (بوسطن/ماس، ١٩١٢)، ص ٢١ - ٢٢.

(٤) يوسف داغر، «صفحة مجهولة من تاريخ التعليم في سوريا ولبنان وفلسطين، الجمعية الإمبراطورية الفلسطينية الروسية»، مجلة «الأديب»، العددان ١ و٢، كانون الثاني/يناير - شباط/فبراير، ١٩٨٠، ص ١٨. واعتماداً على مقال بعنوان «مرور مئة عام على الجمعية الروسية الفلسطينية في فلسطين وما جاورها» بقلم أ.ن. مشثرسكيا وك.ن. يوزباشيان، ترجمة صلاح الدين عثمان هاشم، «مجلة الثقافة العالمية» (الكويت)، العدد ٣٤، أيار/مايو ١٩٨٧، يقول الدكتور حسام الخطيب إن المدارس الروسية في فلسطين وسورية الطبيعية «بلغ عددها مئتين ومدرستين عام ١٩٠٩.» أنظر: حسام الخطيب، «حركة الترجمة الفلسطينية من النهضة حتى أواخر القرن العشرين» (بيروت، ١٩٩٥)، ص ١٦.

(٥) عن «الصداقة» نشرة لمرة واحدة (حيفا، أيار/مايو ١٩٨٢).

(٦) سويدان، مصدر سبق ذكره، ص ٧٩، من خطاب إسكندر كزما.

(٧) المصدر نفسه.

(٨) Derek Hopwood, *The Russian Presence in Syria and Palestine, 1843 - 1914: Church and Politics in the Near East* (Oxford, 1969), p. 139.

عن ذلك الصراع يقول يوسف داغر: «أبدت الجمعية اهتمامها ببلاد الجليل، فأنشأت مدارس خارجية في كل من قرى المجيدل والشجرة وكفر ياسيف، مما أثار حفيظة البطريرك الأورشليمي اليوناني ورهبان أخوية القبر المقدس إذ رأوا في هذا العمل تحدياً لهم وتعدياً على حقوقهم الكنسية، فوقفوا في وجه الجمعية وأقاموا أمام عملها العراقيل. ولم تلبث أن تركزت أعمال الجمعية الإمبراطورية في مدينة الناصرة نفسها، وهي إذ ذاك قلب الإرساليات الإنجيلية واللاتينية..» أنظر: داغر، مصدر سبق ذكره، ص ١٧.

(٩) Hopwood, op. cit., p. 141.

(١٠) سويدان، مصدر سبق ذكره، ص ٨٠.

(١١) المقصود الصراع مع البطريركية اليونانية في القدس.

(١٢) سويدان، مصدر سبق ذكره، ص ٨١.

(١٣) المصدر نفسه، ص ٨١ - ٨٢. ويشير سليم قبعين إلى أنهم كانوا يدرسون ألفية ابن مالك في النحو، ويذكر أن أحد زملائه، عيسى داود من الرامة، كان يحفظ الألفية متناً وشرحاً. أنظر: مجلة «الإخاء»، عدد شباط/فبراير ١٩٣٢.

(١٤) سويدان، مصدر سبق ذكره، ص ٨٤.

(١٥) المصدر نفسه، ص ٨٣.

(١٦) المصدر نفسه، ص ١٤٩.

(١٧) يشير هوبود إلى أن الأنظمة الجديدة للدراسة في ستة أعوام كانت سنة ١٨٩٤، وأن التحول إلى سِّمِنار كان سنة ١٨٩٨.

Hopwood, op. cit., p. 143.

(١٨) Ibid., p. 147.

(١٩) Ibid., p. 156.

وَثَائِق وَمَصَادِر

علاوة على ما أورده ميخائيل نعيمه في كتابه «سبعون» من ذكرياته عن مدرسة بسكنتا والسِّمِنار في الناصرة، وما جاء في كتاب شكري سويدان «تاريخ الجمعية الإمبراطورية الأرثوذكسية الفلسطينية» الذي وثّق فيه احتفالات اليوبيل الفضي بإنشاء الجمعية، سنة ١٩٠٧، كان لا بد من الحصول على مصادر أُخرى لمزيد من المعلومات عن الحياة اليومية وموضوعات الدراسة ومناهج التعليم وآفاقه. وقد وفقنا في الوصول إلى بعض الوثائق المهمة التي تشكل مراجع أولية للتعرف والدراسة وأهمها:

(١) «مفكرة إسكندر جبرائيل كزما» الذي علّم في السِّمِنار، ثم أداره. وكان منذ البداية مسؤولاً عن شبكة المدارس الروسية في الجليل. وقد دوّن فيها أدق التفصيلات لمجرى الحياة اليومي، كما سنفصل بعد قليل.

(٢) كتاب في جزأين باللغة الروسية، ترجمة عنوان الجزء الأول: «المؤسسات التعليمية والطبية التابعة للجمعية الإمبراطورية الفلسطينية في سورية وفلسطين» (سان بطرسبرغ، ١٩١٠). وأخذنا عنه بعض الصور في الملحق رقم ٣.

(٣) شهادة المرحوم الأستاذ نعمه الصباغ، أحد خريجي السِّمِنار في نهاية القرن التاسع عشر.

(٤) دفتر بخط أحد الطلاب، إبراهيم ورور، سجل فيه الأناشيد التي كان طلاب السِّمِنار يحفظونها وينشدونها. ونطل عبره على ناحية مهمة من «عناء الثقافة» في تلك الأوضاع. وقد أدرجنا بعض تلك الأناشيد في الملحق رقم ٢.

أولاً: مفكرة كزما

تؤدي المصادفة أحياناً دوراً طيباً.

كان الحديث يدور عن التعليم والتربية في فلسطين في أواخر القرن التاسع عشر، حين كان البلد تحت الحكم العثماني. وورد ذكر السِّمِنار الروسي في الناصرة حيث تعلم ميخائيل نعيمه وآخرون.

وفجأة تكشف مضيفتنا السيدة نجاة خوري أن جدّها لوالدتها كان مدير هذا المعهد، وأن عندها أوراقاً ووثائق من مخلفاته. وكم كانت الفرحة حين وجدنا بين تلك الأوراق مفكرة صغيرة الحجم جداً، كتب على غلافها: «مفكرة لإسكندر جبرائيل كزما - من ١٥ تشرين الثاني [نوفمبر] ١٨٩٥ إلى آخر ٩٨ [١٩]».

صاحب هذه المفكرة هو أهم شخصية عربية في مسيرة المعاهد الروسية التعليمية في هذا البلد في أواخر القرن التاسع عشر ومطلع القرن العشرين.

وهذه المفكرة الصغيرة وثيقة مهمة تلقي الضوء على جوانب متعددة من حياة دار المعلمين الروسية، والمدارس المحيطة في الجليل، وسلوك الطلاب، والتعامل معهم، والشؤون الأُخرى التي حملها كزما على عاتقه ونفذها بروح المسؤولية الغيورة على الهيكل العام والتفصيلات. وهي ليست تقريراً أُعد ليقدم لأحد، وإنما ملاحظات كتبها هذا الرجل لنفسه للتذكر والمراجعة وبرمجة العمل، ولم يكن ينتظر أن يقرأها أحد سواه. فهو لا يهتم بعملية الصوغ اللغوي، أو بأي غاية أسلوبية.

هذه المفكرة زاخرة بالمعلومات الدقيقة عن نشاط هذا الرجل خلال ثلاثة أعوام تعليمية. نقرأ ونتذكر أن الحديث فيها هو عن أحوال غابرة طواها أكثر من قرن. فالمدارس غير ما نعرف ونألف اليوم، وحياة الناس مختلفة، وبرامج التعليم تحكمها رؤية صاغتها ظروف تاريخية بعيدة.

تُعجَب من دقة التبويب، إذ تتقيد المعلومات في كل باب بمسرد أيام كل شهر، وتتضمن تسجيلاً دقيقاً لما جرى في ذلك اليوم في موضوع ذلك الباب.

ولنوضح أولاً بعض المصطلحات المركزية التي تتعامل معها المفكرة:

يجري الحديث عن «المدرسة الداخلية» و«المدرسة الخارجية». أمّا «الداخلية» فهي المعهد الذي كان يتعلم فيه الطلاب المنتخبون للدراسة من مختلف الأنحاء من سورية ولبنان وفلسطين، من حمص وطرابلس ودمشق وبسكنتا وغيرها إلى الجليل، من البقيعة والرامة وحيفا وسواها. ويقيم هؤلاء الطلاب بالمعهد، ويعود بعضهم إلى بيته في عطلة «الثلث». أمّا مَنْ كانت بيوتهم بعيدة تقتضي أياماً من السفر[1] فيبقون ويعد لهم برنامج خاص. وكان كل من التعليم والكتب[2] والطعام والكساء مجانياً، ولذلك نجد في المفكرة «مقاسات» كل طالب، ونجد في مواقع أُخرى ذكراً لبعض المواد الغذائية المقتناة، أو بعض الوجبات المقدمة للطلاب في مناسبات متنوعة.

ونذكّر بأن هذه «المدرسة الداخلية» هي التي اعتُرف بها كسِّمنار علمي. وكانت الدراسة فيها، في البداية، أربعة أعوام في صفين، ومنذ سنة ١٨٩٤، أصبحت ستة

أعوام في ثلاثة صفوف. وتتعامل المفكرة مع ثلاثة صفوف، وكيف وزعت دروسها وجدول دوامها اليومي.(٣)

أمّا «المدرسة الخارجية» فهي المدرسة الابتدائية التي كان طلابها من الناصرة. وكان طلاب الصف الثالث في «الداخلية» يتمرنون على التعليم فيها بإشراف أحد معلميهم. وفي الجدول الذي أورده شكري سويدان عن معاهد الجمعية سنة ١٩٠٧، نجد مدرستين خارجيتين في الناصرة، آنذاك، يبلغ مجموع الطلاب فيهما مئة طالب وطالب.(٤)

- تستهل المفكرة بجدول الدروس للصفوف الثلاثة التي كانت تتألف منها المدرسة آنذاك.
- الدراسة في ستة أيام في الأسبوع. والعطلة يوم الأحد.
- يبدأ الدرس الأول في الساعة الثامنة صباحاً، ويستغرق كل درس ساعة تتلوه استراحة مدتها عشر دقائق.
- يتعلم الصف الأول أربع ساعات في اليوم، من الساعة الثامنة حتى الساعة الثانية عشرة والدقيقة الثلاثين.
- أمّا الصف الثاني ففي برنامجه حصة خامسة من الساعة الثانية والدقيقة الثلاثين إلى الساعة الثالثة والدقيقة الثلاثين. وموضوعات هذه الحصة لا تقتضي جهداً ذهنياً خاصاً لأنها بعد الظهر ففيها: «الخط العربي»، و«الترتيل»، و«التنزه»، و«الرسم»، و«الترتيل» مرة أُخرى. أمّا يوم السبت فينتهي الدوام ظهراً من دون حصة خامسة.

وأمّا الصف الثالث فكان طلابه يعلّمون في الصباح في «المدرسة الخارجية» ويتعلمون بعد ذلك. وفي جدول الدروس للعام الدراسي ١٨٩٧/١٨٩٨، يتعلم هؤلاء الطلاب حصتين يومياً، من الساعة الواحدة والدقيقة الثلاثين إلى الساعة الثالثة والدقيقة الثلاثين. وتقتصر موضوعات الدراسة على التربية، واللغتين العربية والروسية، والحساب.

هذه المعلومات مدرجة في صفحة واحدة صغيرة، تلحق بها قائمة الموضوعات المقررة لكل صف وعدد الحصص. وفي طرف آخر هناك قائمة بالمعلمين المناوِبين في «الداخلية» و«الخارجية». ومن اللافت للنظر تسمية بعض الموضوعات: فما نسميه اليوم «هندسة» يسمى هناك «مساحة»، وما نسميه «رياضة» سموه «تمرين جسد»، وما نسميه «مناوبة» كان يسمى «دورية».

وسنجد تعليم اللغة التركية في برامج الأعوام التالية:

- مجموع الطلاب في المدرسة «الداخلية» كان ٣٥ طالباً سنة ١٨٩٥:
في الصف الأول ١٤ طالباً
في الصف الثاني ١٢ طالباً
في الصف الثالث ٩ طلاب

وإلى جانب كل اسم مقياس ملابسه.

- هناك سجل دقيق للعلامات اليومية والشهرية والسنوية. وكانت العلامة القصوى ٥. وهناك علامات على السلوك تُقرر في اجتماع المعلمين الشهري. وإلى جانب كل علامة ذكر السلوك الذي اقتضى هبوطها.
- العقاب البدني ممنوع. وفي المفكرة إشارات إلى توبيخ أحد المعلمين على استخدام العقاب البدني. فالعقاب يكون توبيخاً أو خصماً من علامة السلوك. وقد لجأ أحد المعلمين إلى أن يفرض نسخ نص معين ثمانين مرة عقاباً لأحد الطلاب!!

وورد في الملاحظات على سلوك أحد الطلاب: «خشن المعاملة مع الأولاد بالخارجية.» وهي ملاحظة على سلوكه كمعلم متمرن.

وقد أشار ميخائيل نعيمه في حديثه عن المدرسة التي تعلّم فيها في بسكنتا إلى منع العقاب البدني فقال: «والأهم في نظرنا، أن القصاصات بالقضيب والكف والرجل أصبحت محظورة تحت طائلة العقاب للمعلم الذي يلجأ إليها.»(٥)

- يشير كزما إلى بعض «المشكلات» في البرنامج. وفي ملاحظة على «الاجتماع الشهري»، في ١٨٩٦/١/٤، يقول: «يلزم مطالعة حرب روسيا وتركيا، وعن اليونان وثورتهم لئلا يكون شيء غير مناسب.»

لم تكن «حرب القرم» التي نشبت بين روسيا وتركيا بعيدة.

يتعلم الطلاب التاريخ في مصادر روسية، والأتراك الذين يحكمون بلاد الشام وبقية البلاد العربية اعتُبروا أعداء في تلك النصوص - «شيء غير مناسب». والمشكلة الأُخرى: كيف يكون الحديث عن الثورة اليونانية ضد الاحتلال التركي، تلك الثورة التي استثارت التضامن في أوروبا، وجاء ليشارك فيها الشاعر الإنكليزي بايرون وقتل هناك، في بلاد اليونان.

إنها قضية عسيرة يجابهها المراجِع وواضع المنهاج: كيف يوفّق بين الولاءين، للسلطان العثماني الحاكم من جهة، والقيصر الروسي الداعم من جهة أُخرى، في

صوغ المادة التي يتعلمها الطلاب عن هذه الحرب.

- أمّا تعليم اللغة التركية في هذا المعهد، فهو مشكل أيضاً. ويتوجه بيدس إلى القائمقام في الناصرة ليقترح معلماً لهذه اللغة.

ورد في المفكرة بتاريخ ٢٥/١٢/١٨٩٥: «أخبرت القائمقام (الذي جاء للمعايدة بعيد الميلاد) أننا ندرّس اللغة التركية وأنه في الوقت الحاضر لا يوجد معلّم لأننا بعد التفتيش لم يمكنّا أن نعثر عليه وكنا اتفقنا مع نقولا قعوار إلاّ إنه ثاني يوم الاتفاق استعفى.»

بعد نحو شهرين، في ١ آذار/مارس ١٨٩٦، كتب كزما: «باشر معلّم التركية في تدريس التركية في الداخلية.»

كان على كزما، إذاً، أن يهتم بانتظام العلاقة بالسلطة التركية الحاكمة في البلد. فهي التي تصادق على شهادات التعليم في المدارس. وتشير المفكرة إلى وصول المصادقة على ١٢ معلماً في ١٤/١/١٨٩٧: «الشهادات المصادق عليها من مجلس معارف الناصرة صار إرجاعها لأصحابها: ١) للمعلم سليم قبعين. ٢) للمعلم عساف الجرجس وحبيب الداود.»

ولا بد من مراعاة الأعياد الرسمية. فقد ورد في المفكرة في ٧/١/١٨٩٧:

«فتحت المدارس ولكن بداعي عيد مولد جلالة السلطان في ذلك النهار (الواقع في ١٥ شعبان) قطعت الدروس وأُقفلت المدارس. والمساء صار زينة ولم أجبر المعلمين على الحضور.»

ويتعلم الطلاب النشيد التركي الرسمي «باد شاهم» وينشدونه في المناسبات.

«فعندما مثّل الطلاب بتاريخ ٢/١/١٨٩٦ مسرحية (قدوم أب مسافر) أمام حفل من الشخصيات الرسمية والوجهاء بدأ الاحتفال بـ 'ترتيل باد شاهم' وتلاه النغم الروسي.. وانتهت الرواية بترتيل النغم الروسي وبعده باد شاهم.»

إضافة إلى ذلك كان عليهم الاحتفال بذكرى تتويج القيصر (في ١٤ أيار/مايو ١٨٩٦)، وتوزيع صوره على المدارس.

- من اللافت للنظر استخدام بعض الأجهزة التعليمية (الحديثة آنذاك)، كالخرائط والفانوس السحري، ثم الاهتمام بالرياضة، وإثراء المكتبة، والتمثيل، والرحلات:
- ١٨ ت٢ ١٨٩٥: «مساء. صار تركيب تربيعة الفانوس السحري وتجريبها.»

وفي مواضع أُخرى إشارات إلى استخدام هذا الفانوس.

أمّا المكتبة فهناك ملاحظة في ٣٠ كانون الثاني/يناير ١٨٩٦ فحواها: «قائمة الكتب المرغوب شراؤها للمكتبة المدرسية» ومنها: ١) «البطل الخالد» لإسكندر شاهين، رواية تاريخية أدبية، ثمنه ٦ قروش مصرية، من إدارة «الهلال»؛ ٢) «الحركات الرياضية» لحسن أفندي توفيق؛ ٣) «استبداد المماليك» لجرجي زيدان؛ ٤) «التاريخ العام»، له أيضاً؛ ٥) «أساليب العرب» لشاكر شقير (وقد وجدتُ لائحة أولية بمحتويات مكتبة المدرسة، راجع الملحق رقم ٣، ص ١٧٢، ١٧٣).

أمّا التمثيل فهناك سجل دقيق بأسماء الطلاب الذين مثلوا مسرحية «قدوم أب مسافر» أمام وجهاء البلدة وكبار الموظفين. وقد قاموا بعرض تجريبي قبل العرض الرسمي. وكانت تتخلل الحفل «تراتيل» بالعربية والروسية.

- وأمّا الرحلات فكان بعضها إلى قرى قريبة، وبعضها الآخر إلى جبل الطور وكفر ناحوم وأقصاها إلى القدس. ولنذكّر بأوضاع المواصلات آنذاك.. فالاعتماد كان على الساقين وبعض الدواب.

ونقتبس هنا الملامح الرئيسية المسجلة عن رحلة القدس التي انطلقت بتاريخ ٢٨ آب/أغسطس ١٨٩٧:

«الخميس الساعة ٧ صباحاً من الناصرة.

بتنا في الليل في قرية جبع في البستان بجانب العين. دفعنا للبستاني مبات.. حسب طلبه.

الجمعة ٢٩:

صباحاً الساعة ٥ خرجنا من جبع ولم نعرّج على نابلس لأننا ذهبنا رأساً إلى بير السامرية ومنها إلى حوّارة حيث تغدينا ثم قمنا منها وبتنا في خان اللّبن حيث دفعنا أجرة مبات (...)

السبت ٣٠:

الساعة ٥ صباحاً قمنا من خان اللّبن وتغدينا في البيرة ثم قصدنا القدس الساعة ٥ مساء. عملوا لنا وللأولاد حمّاماً.»

أمّا الملاحظة على أهداف الرحلات وتعامل الطلاب معها فنجدها في مرجع آخر (أنظر تقرير المفتشين أدناه، ص ٣٧).

- بين مشاغل كزما الكثيرة كانت المسؤولية عن مدارس القرى: الإشراف على المدارس القائمة؛ إنشاء مدارس جديدة؛ معالجة كل الشؤون، المالية والإدارية والتعليمية. فهو يسافر إلى هذه المدارس في المجيدل ومعلول

ويافا والرينة وكفر كنا وطرعان والبروة والبعنة وشَعَب والرامة وكفر ياسيف والبقيعة وحيفا. ويدوّن في مفكرته القضايا التي عالجها، ومنها ما له صلة بالمعلمين أو علاقة بأصحاب البيوت المستأجرة للمدرسة، وكذلك مشكلات الطائفة الأورثوذكسية في بعض البلدات. ولا ينسى أن يسجل الوقت الذي يقتضيه السفر من مكان إلى آخر. يُعْجَب المرء من حيوية هذا الرجل وزخم جدول أعماله الذي يحيط بكثير من المسؤوليات. فهو يشرف على اختيار الطلاب من مختلف المدارس للمدرسة الداخلية، وكذلك الطالبات المرشحات للدراسة في دار المعلمات في بيت جالا (٢٦ أيار/مايو ١٨٩٦: قبول طلاب من الحصن وأميون وسوق الغرب).

وهو الذي يهتم بتعيين المعلمين وإرسالهم إلى مختلف المدارس (الأحد: ٢١ نيسان ١٨٩٦): «تعيين إسحق شحاده معلماً في حمص.. عليه أن يستقل أول بابور إلى محلّ شغله»؛ «السبت (٣٠ ك١ - ١٨٩٥): غداً الأحد ٣١ ك١ تسافر المعلمة مريم الخليل إلى الرامة وأنسطاسيا قندلفت إلى حيفا»؛ ١٠ ت٢/ ١٨٩٥: «إرسال خليل بيدس إلى بيروت بأول بابور.»

وهو الذي يدفع المعاشات للمعلمين وغيرهم، وهو الذي يقرر: «تبليغ معلم الشجرة أن يدرس الروسية إذا أراد التقدم وزيادة المعاش بإعطائه مركزاً أكبر.» (٢٧ أيار/مايو ١٨٩٦)

وهو الذي يرتب برنامج الدروس في «الخارجية»: «رتبت مع المعلم خليل دروس الخارجية.»

ويستأجر لمدارس القرى غرفاً ويتفق على أجرتها.

«والمدرسة»، عادة، في غرفة واحدة تبدأ من صف «البستان». وقد تكون فيها ثلاثة صفوف، يسمي كل صف جوقاً. ويميز كزما بين برنامج طلاب البستان والطلاب الآخرين فيقول في إحدى الملاحظات: «طلاب البستان يجلسون على حصير وتكون الحصة نصف ساعة، ونصف ساعة لعب.»

وهو يعلّم في الداخلية في بعض الأيام ويزور مدارس القرى وحيفا في الأيام الأُخرى: «أتفقد وأفحص»، ويدوّن كل زيارة في تاريخها:

يوم الأربعاء ٨ ت١ ١٨٩٥: «كنت في معلول حيث فتحت مدرسة البنات.» وفي ١٣ من ذلك الشهر: «سافرت للشجرة». وفي ٢٥ منه «كنت في البروة...»

وفي شهر كانون الأول ١٨٩٥ «من ١٤ إلى غاية ٢٢ ك٢ كنت مسافراً أفحص

مدارس القرى.» وفي ١٦ من ذلك الشهر إلى غاية ٢٢ «كنت في الرامة وكفر ياسيف.»

ويسجل عدد التلاميذ في المدارس التي يزورها:

- ١٧ شباط ١٨٩٧: «زرت مدرسة يافا للبنات. كان موجوداً فيها ٢٠ بنت و١٢ صبي.»

وفي اليوم نفسه: «مدرسة معلول: البنات الحاضرات ٧ بنات، و٧ صبيان.»

وفي ٢٧ شباط: «زرت المجيدل: الحاضرين من الصبيان ١٠ والبنات ١١.»

ولننظر في هذا الجدول، حيث يسجل زمن السفر في بعض الحالات:

الأحد - ١٧ ك١ - ١٨٩٥: «سافرت من الرامة إلى شَعَب (من الرامة لشعب ٢/١ ٢ ساعة) نزلت في بيت موسى النجار ثم أجريت الفحص في المدرسة. بعد الفحص توجّهت للبروة.»

١٨ منه: «أجريت الفحص في مدرسة الصبيان بكفر ياسيف.»

/١٩ «كمّلت الفحص في مدرسة الصبيان وأجريت الفحص من بعد الظهر في مدرسة البنات.»

/٢٠ «صباحاً تحت المطر سافرت من كفر ياسيف إلى حيفا فوصلتها الظهر. في الساعة ٢ بعد الظهر بدأت الفحص في مدرسة البنات.»

/٢٢ «زرت مدرسة الصبيان بحيفا وكان فيها ٢٢ ولداً وعلى قول المعلم (جرجي الحلبي) إن فيها ٣ أولاد روم والباقون كاثوليك. أخبرته أن يبعث شهرياً عدد التلاميذ.»

«سافرت من حيفا للناصرة فوصلتها الساعة ٥ مساء.»

/٢٧ «معلم البروة لطف الخوري استعفى من مصلحته بدعوى قلة المعاش وسلمني قائمة موجودات المدرسة التي أبقاها أمانة عند صالح السَّكَس على السّدّة في محل سكنه.»

أخيراً، لا بأس في اقتباس بعض الملاحظات الطريفة التي سجّلها كزما في مفكرته:

- «٢٢ ت٢: «سمعان اليوسف لابس طربوشه محنيّاً إلى قُدّام. رأيته في الخارجية كذلك.»

- «٧ شباط (١٨٩٦): «وبّخت حنا الخليل ونقولا فار على عدم لياقة لبس الطرابيش.»

من الطبيعي أن يكون ما أثار الأستاذ هو إمالة الطربوش إلى أمام؛ وفي ذلك تعبير عن التعالي، أو عن السلوك العابث، ولذلك كان التوبيخ لضمان سلوك رزين متواضع.

- «الثلاثاء، ٩ نيسان: حبيب الداود كلّم البنت الجارة كلاماً غير لائق: (أعطيني بوسه) فأتت أمها إلى المدرسة وصارت تصيح وتسبّ، فلما بلغني ذلك من أخي - للحال كتبت للمعلم متري صاحب الدور أن يفحص عن ذلك فأجابني بعد الفحص حسب شهادة حنا خوري والأم والبنت: حبيب قال ذلك الكلام. أمّا هو فيقول إنه قال لها: أعطيني البِسّه. وقد بلغني أن نقولا فار سمعه يقول كما شهد حنا خوري.»
- «٧ شباط ١٨٩٦: «وبّخت حنا خليل على خشونة معاملته للتلاميذ (مسك الولد بعنف ودفعه).»
- «١٤ أيار ١٨٩٧: المعلمون الروسيون يتوهمون في كل كلمة وعمل تصدر من الصف الثالث وقاحة مقصودة وبسبب ذلك يصير وجع راس دائم ويتهيّج الأولاد ضدهم.»
- «٢٢ نيسان: إذا وجدت كنيسة المجيدل وسخة وغير نظيفة لا ينبغي أن أعطي الخوري معاشه عن ذلك الشهر.»

ثانياً: تقرير

يقول ميخائيل نعيمه:

«مرة أو مرتين في كل عام كان يأتينا مفتش روسي وبصحبته ترجمانه. وكنا ندعوه 'الناظر' أو 'المُناظر'، ونشعر يوم مجيئه أن مدير المدرسة وباقي المعلمين والمعلمات كانوا يتهيبونه كما لو كانت حياتهم من يده. فيرتبون المدرسة أحسن الترتيب، ويوصوننا أن نلبس خير ما نملك من الثياب، ويخرجون بنا إلى ساحة المدرسة حيث ينظموننا في صفوف متناسقة، ويلقننا المدير عبارة ترحيب باللغة الروسية مؤداها: 'نطلب لكم العافية ونهنئكم بسلامة الوصول'. حتى إذا أطل الناظر الأشقر رحنا ننغّم تلك العبارة تنغيماً مضحكاً وبأعلى أصواتنا.»(٦)

كان هؤلاء النظّار/المفتشون يكتبون تقارير مفصلة عن المعلمين والدروس التي

يحضرونها سواء في المدارس الابتدائية في البلدات المتعددة أو في دارَي المعلمين في الناصرة وبيت جالا. وقد كان أحد هؤلاء المفتشين في أحد الأعوام المستشرق الروسي كراتشكوفسكي الذي «قام بزيارة إلى فلسطين وبلاد الشرق ما بين الأعوام (١٩٠٨ - ١٩١٠) كبعثة من كلية الاستشراق ومندوب عن الجمعية الإمبراطورية الأورثوذكسية الفلسطينية لمراقبة المدارس الروسية في منطقة سورية وفلسطين ولبنان.»[٧]

وتمتاز هذه التقارير بالتفصيل ودقة الملاحظات، والتعليق على أساليب التدريس في مختلف الموضوعات والصفوف، كما تشتمل على تنويه ببعض القضايا الفردية.

وقد صدر في سان بطرسبرغ سنة ١٩١٠ كتاب في جزأين، عنوان الجزء الأول هو: «المؤسسات التعليمية والطبية التابعة للجمعية الإمبراطورية الفلسطينية في سورية وفلسطين»، تأليف ن.م. أنيتشكوفا، عضو مجلس الجمعية. أمّا الجزء الثاني فهو بعنوان: «المؤسسات التعليمية في الجليل». وهو في ٢٦٠ صفحة.

في الجزء الثاني هناك تقرير عن جولة تفتيشية في مؤسسات الجمعية سنة ١٨٩٩. وهو حافل بالتفصيلات الدقيقة عن كل المدارس الروسية في الجليل. وقد حظيت المدارس الابتدائية والسِّمِنار في الناصرة بالحصة الكبرى، إلاّ إن المدارس في حيفا والقرى المتعددة: يافا؛ المجيدل؛ معلول؛ الرينة؛ كفر ياسيف؛ كفر كنا؛ طرعان؛ الشجرة؛ الرامة؛ البعنة؛ شَعَب؛ إعبلين، حظيت كل منها بمادة تزيد أحياناً على عشر صفحات. كذلك فيه كثير من الصور الفوتوغرافية لهذه المؤسسات وطلابها، بما في ذلك صور مدارس وطلاب في سورية ولبنان، كما أن فيه كثيراً من صور دار المعلمات في بيت جالا.

وفيما يلي فقرات من التقرير عن السِّمِنار في الناصرة:[٨]

«خلال ١٣ عاماً طرأت على السِّمِنار تقلبات كثيرة، لأن المعلمين الروس فيه تغيروا كثيراً. كان بعضهم أكفاء ذوي خبرة عادوا إلى روسيا ليكونوا في مواقع تلائم مؤهلاتهم البداغوجية. لكن عدداً من هؤلاء المعلمين كانت كفاءته وخبرته دون المطلوب ولم يستطع التأقلم وفق البيئة الجديدة التي جاء إليها. لم ترض الطائفة عن هذه الحال وبعثت بعدة شكاوى.

«كما أن نُظّار المعهد في الجليل لم يبقوا في مناصبهم زمناً طويلاً، فقد توالى على النظارة خلال عشرة أعوام ثلاثة هم: أ. يعقوبوفتش، وأ.ن. مالينين، وف.ف. نقولايفسكي، أمّا الناظر إ.ج. كزما فهو الوحيد الذي صمد في عمله بنجاح.

«فيما يلي أسماء أعضاء الهيئة التدريسية سنة ١٨٩٩:

«جبران فوتيه: وهو معلم جديد، يعلّم العربية، حصل على تأهيل للتعليم سنة ١٨٩٨ فقط. درس في المدرسة الأورثوذكسية في بيروت وجاء خلفاً للأستاذ القدير أ.م. وردي[٩] الذي اضطر إلى السفر إلى بيروت في أعقاب مرضه الشديد.

«جبران فوتيه معلم جيد قدير على الرغم من قلة خبرته بالتعليم.

«ر.د. ترزي: معلم سوري الأصل. درس في الأكاديمية الروحية في كييف، وبعد تخرجه جاء إلى فلسطين. لم يحصل على تأهيل للتعليم سنة ١٨٩٨ على الرغم من اعتباره مستشاراً في الشؤون التربوية.

«بعد حين بدأ بتعليم اللغة الروسية خلفاً للمعلم سولوبيوف الذي لم يكن يعرف اللغة العربية، ولذلك تعسر عليه أن يعلّم صفاً لا يعرف طلابه إلاّ العربية. أمّا ترزي فقد أفلح في أن يعلم الصف بفضل أصله السوري، ولم يحتج إلى معلم متمرن يساعده كما كانت حال سولوبيوف.

«ن.م. بوغويفلينسكي: من كلية المعلمين في بلغراد. أُهّل لتعليم الرياضيات والهندسة. لا يعرف العربية أبداً، ويستعين بمعلم متمرن ليترجم للتلاميذ في أثناء الدرس.

«أ.أ. ستسيفيتش: من كلية المعلمين في غلوخوفسكي. أُهّل لإدارة المدرسة الابتدائية للبنين والإشراف على مجرى الدروس وتعليم أصول التدريس للطلاب.

«في مطلع سنة ١٨٩٩ دعي ف.ف. نقولايفسكي للإشراف على المدارس في الجليل [قبل كزما]، وأثبت قدرة وجدارة في التعليم. لكن على الرغم من ميزاته الكثيرة جوبه بصعوبات جمة حينما أراد أن يتأقلم وفق مهنته الجديدة، إذ كان عليه أن يدرس أوضاع كل المدارس في الجليل ليحسن إدارتها.

«صعب عليه الأمر لأن المدارس في الجليل كانت متناثرة على مساحة واسعة، فاستقال وعُيِّن بدلاً منه إ. كزما.

«إسكندر كزما: ولد في دمشق وتعلم في روسيا. درس في موسكو في الأكاديمية الروحية حيث اجتاز آخر المتطلبات، لكن لأسباب صحية كان عليه أن يعود إلى وطنه. عندما وصل إلى بيروت عمل ثلاثة أعوام في التعليم وقام بمهمات أُخرى.

«على الرغم من حداثة سن إسكندر كزما فقد أدى كل مهماته بإخلاص ونجاعة. انتخبته الطائفة الأورثوذكسية ليدير شؤون ‹الداخلية›[١٠] ويشرف على المدارس الأورثوذكسية في الناصرة.

«عندما تسلم كزما منصبه تعامل مع الطلاب معاملة الأب لأبنائه، لكنه فرض عليهم نظاماً وطاعة شديدين ورعى حاجاتهم كافة.

«كما أفلح كزما في أن يكون معلماً في سِّمِنار المعلمين وأن يدير شؤون المدارس في الجليل بحزم ومهنية.

«**ف. ميروشنيكوف**: من كلية المعلمين في غلوخوفسكي. يعلم التاريخ والجغرافيا.»

في نطاق الحديث عن الكادر التعليمي يفرد التقرير باباً للحديث عن مشكلة المعلمين المتمرنين. وهم جماعة من الروس خريجو معاهد تربوية جيء بهم ليتمرنوا على التعليم ويساعدوا في التدريس. ويورد التقرير أن كثيرين منهم لم يكونوا ذوي كفاءات ولم يكن لديهم حافز على تعلم دقائق مهنة التدريس. وتعاملوا مع معلمي السِّمِنار وطلابه بتعال وازدراء.[١١] وسعى بعضهم جاهداً ليعاد إلى روسيا سريعاً.

لكن الإجراءات التي اتخذتها السلطات التربوية الروسية كبحت جماح المعلمين المتدربين، إذ اعتبرت استقالة أي منهم فشلاً مهنياً ينتقص حقوقه، وشرحت لهم أن «المطلوب من المعلمين المتدربين وسواهم في فلسطين أقل مما في روسيا. فعلى كل معلم متمرن أو مؤهل أن يعلّم ١٠ ساعات فقط في الأسبوع وعدد تلاميذه في الدرس ثمانية، بينما على المعلم في روسيا أن يعلم ٢٠ - ٣٠ ساعة في الأسبوع في صفوف يتراوح عدد التلاميذ فيها بين ٣٠ و٥٠. كما أن على المعلم المتمرن في روسيا أن يشرف على ٧٠ - ٨٠ تلميذاً في المدرسة الداخلية، وراتبه أقل من راتب المعلم في فلسطين.»

ويخلص التقرير إلى أن «في ضوء هذا الشرح ندم المعلمون الشبان على تصرفهم وعلى استهتارهم بعملهم وبعثوا برسالة اعتذار إلى هيئة الإدارة. ومنذ ذلك الحين تحسنت كثيراً العلاقة بين المعلمين والإدارة وظهر ذلك في تحسن المستوى التربوي للمدرسة بعد ذلك.»

أمّا عنوان الباب الثالث من التقرير في هذا الإطار فهو: «الطلاب في سِّمِنار المعلمين».

وقد بلغ «مجموع الطلاب ٤١ طالباً. في الصف الثالث ١٠ طلاب وفي الصف الثاني ١٥ طالباً وفي الصف الأول ١٤ طالباً. اثنان من الطلاب الذين يسكنون في الداخلية تعلّما في مدرسة البنين الأورثوذكسية الابتدائية في الناصرة.

«في بداية العام الدراسي ١٨٩٨/١٨٩٩، وصل إلى السِّمِنار ١٣ طالباً جديداً اجتازوا كلهم امتحان دخول قبل قبولهم في المدرسة، ما عدا تلميذاً اسمه كرتسفليس من مدينة طرابلس في لبنان.» وقد جاء الباقون من حمص وسوق الغرب وحيفا وغيرها. وكان لا بد من بذل جهود كبيرة لإعدادهم في شتى الموضوعات، وخصوصاً في معرفة اللغة الروسية التي كانت تدرّس بها موضوعات متعددة.

وهناك تفصيل بأسماء الطلاب وبلداتهم ومستوى معرفتهم باللغتين الروسية والعربية.

ويورد التقرير: «من مجموع الطلاب الثلاثة عشر الجدد احتاج كثيرون إلى تمرين وجهود ليصلوا إلى مستوى التعليم في السِّمِنار.»

أمّا الملاحظات عن سلوك الطلاب فمنها:

«من الحديث مع إ. كزما ومن التقارير التي قدمها سلفه ف.ف. نقولاييفسكي أمكن التعرف إلى أنماط سلوك الطلاب أول ما يصلون إلى الداخلية... ويمكن القول إن لهم ميلاً شديداً إلى العنف الجسدي والكلامي، وفي كثير من الأحيان كان على المعلمين أن يفرقوا بين الطلاب المتنازعين. وقد ظهر سلوك الطلاب العنيف بصورة خاصة في التعامل مع الحيوانات، فإذا رأوا عصفوراً امتدت أيديهم حالاً إلى الحجر لضربه، وكذلك إذا رأوا كلباً. كما كان على المعلمين أن يتعاملوا مع كذب الطلاب عند تقديمهم شكاوى كاذبة على غرمائهم.»

تحت عنوان «الطلاب في السِّمِنار» يورد التقرير تفصيلات دقيقة عن عدد الطلاب في كل صف، وأسماء الطلاب الجدد في ذلك العام، والجهود التي بذلت لإعدادهم كي يكونوا على مستوى لائق بالدراسة في السِّمِنار. بل يشير إلى حالات خاصة وإلى القضايا التي عولجت.

أمّا مستوى الطلاب التعليمي ففي تقدم عاماً بعد آخر، ومن الواضح أن تبدّل المعلمين الذي ساد حيناً كان له دور في ذلك.

ويعود التقرير إلى الملاحظات عن سلوك الطلاب، فيشير إلى ميزات إيجابية أهمها مساعدة الغير، ويعطي أمثلة لطلاب متفوقين بذلوا جهوداً كبيرة ناجحة لمساعدة طلاب ضعفاء في صفوف أدنى. ويشير إلى سلوك الطلاب في الصف حيث الهدوء والانتباه، بينما يختلف الأمر في ساعات الفراغ.

وينتهي هذا الباب بالإشارة إلى المعضلة التي يواجهها المعلم: كيف يوفّق بين ضمان السلوك الحميد للطالب وبين تفريغ الطاقة الكامنة في كونه فتيّاً حافلاً بالنشاط؟

أمّا الباب التالي في التقرير فيتحدث عن الجدول اليومي لحياة الطالب في السِّمِنار، وفيه المعلومات التالية:

- يفيق الطلاب (في القسم الداخلي) في الساعة السادسة صباحاً. بعد نصف ساعة - صلاة الصباح وقراءة من الإنجيل.
- من الساعة ٧ حتى الساعة ٨: وجبة الصباح وترتيبات.
- من الساعة ٨ حتى الساعة ١٢:٣٠: أربعة دروس متتابعة، بين الدرس وما يليه فترة عشر دقائق.
- في الساعة ١٢:٣٠ غداء واستراحة حتى الساعة ١٤:٣٠.

بعد ذلك درس حتى الساعة ١٥:٣٠ على أن يكون ذلك الدرس من الموضوعات السهلة، كالنشيد أو الخط أو الرسم أو مطالعة مواد جذابة من الأدب الروسي أو الأدب العربي.

بعد ذلك: إذا كان الطقس ملائماً يذهب الطلاب إلى العمل في البستان أو المشتل بإشراف معلمين مؤهلين أو متمرنين. يستمر العمل من الساعة ١٥:٣٠ إلى الساعة ١٧:٣٠. بعد ذلك: اغتسال وتغيير الملابس.

- في الساعة ١٨:٠٠ يعدّ الطلاب دروسهم حتى الساعة ١٩:٣٠ موعد العشاء.

بعد العشاء: استراحة مدتها نصف ساعة. ثم بين الساعة ٢٠:١٥ و٢١:١٥ متابعة تحضير الدروس.

كما يتاح للطلاب الكبار أن يستمروا في إعداد الدروس حتى الساعة ٢٢:٣٠.

في يومي الأربعاء والسبت لا يتعلم الطلاب بعد الظهر. يوم الأربعاء يخرج الطلاب في «مشوار» إلى خارج المدينة. أمّا يوم السبت فيقومون بالتنظيف وترتيب الأمور الشخصية.

ثم ترد تفصيلات عن مواسم العمل في البستان، وكيفية تقسيم المشتل والعمل فيه.

ويقوم طلاب الصف الثالث (وهم على وشك التخرج ليكونوا معلمين) بالمساعدة في التعليم في المدرسة الابتدائية. كما يساعدون طلاب الصفوف الأُخرى في إعداد دروسهم.

ومن الفعاليات التي يقوم بها طلاب الصفين الأول والثاني: القيام برصد الطقس باستخدام مقياس الحرارة والبارومتر ومقياس كمية المطر.

أيام الأحد والأعياد يذهب الطلاب إلى الصلاة في كنيسة البشارة.

وترد في هذا الباب الملاحظة التالية:

«أشار المعلمون والمربون في 'الداخلية' إلى أهمية غرس احترام الإمبراطورية الروسية في نفوس الطلاب وذلك بالاحتفال بأعياد شخصيات مهمة في الإمبراطورية، ومنها احتفال كبير بميلاد القيصر نقولا الثاني في التاسع من أيار [مايو].» ويكون احتفال طلاب الداخلية بقراءة مادة عن الأدب الروسي أو تمثيلها، وكذلك بإنشاد أناشيد الإمبراطورية الروسية والإمبراطورية العثمانية.

أمّا الرحلات فمنها الطويلة ومنها القصيرة. وتكون الرحلات القصيرة يومي الأربعاء أو الأحد أو في الأعياد، مشياً إلى ضواحي مشارف الناصرة.

أمّا الرحلات الطويلة، ففي العام الدراسي ١٨٩٧/١٨٩٨ جرت رحلة إلى القدس وضواحيها. وفي أيار/مايو ١٨٩٨ جرت رحلة إلى طبرية وكفر ناحوم. وكانت هاتان الرحلتان على الحمير ومن دون اشتراك طلاب الصف الأول.

«كانت مهمة الطلاب في الرحلات الطويلة دراسة كل قرية يصلون إليها: السكان، والمدارس وما شابه. جمع الطلاب تفصيلات من سكان القرية ثم قدموا تقريراً. من الأمثلة الجيدة لتلك التقارير، واحد عن بلدات الجليل كتب باللغة الروسية وبخط مقروء.»

في الرحلة إلى جبل الطور التي جرت في ١٦ أيار/مايو ١٨٩٩، لاحظ المعلمون المرافقون أن الطلاب لم يلتفتوا قط إلى المناظر المحيطة بهم مع أن سلوكهم كان جيداً. لعل ذلك كان نتيجة عدم القيام برحلات كافية ليتعلم الطلاب عن الحيوان والنبات في الطبيعة. وكانت الصعوبة في تلك الرحلة في السبيل الوعر والضيق على سفح الجبل مما صعّب تسلقه، وكان لا بد من أن يسير الطلاب أفراداً الواحد تلو الآخر.

ثالثاً: شهادة

الأستاذ نعمه سليمان الصباغ، ابن الناصرة، ولد سنة ١٨٨٥، وتخرج من السِّمِنار الروسي سنة ١٩٠٤.

روى في نبذة عن حياته، بخط يده،[١٢] عن تعلمه حتى الالتحاق بالسِّمِنار أنه «تربى في مدرسة الإناث الروسية حتى الخامسة من عمره، ثم انتقل إلى المدرسة الإنكليزية في الناصرة واستمر فيها حتى العاشرة من عمره ثم رجع إلى المدرسة

الخارجية للذكور الروسية وبقي مدة ثلاث سنوات وفي الرابع عشر من شهر أيلول [سبتمبر] في السنة الثامنة والتسعين بعد الألف والثمانمئة دخل مدرسة السِّمِنار الروسية الداخلية في الناصرة واستمر فيها ست سنوات وفي ١٤ أيلول [سبتمبر] عُيّن مديراً لمدرسة 'الجمعية الإمبراطورية الفلسطينية الروسية' في منيارة عكار.»

وقد نشر في مجلة «الورود»، كانون الأول/ ديسمبر ١٩٦٤ وكانون الثاني/ يناير ١٩٦٥، مقالاً يفصّل فيه معرفته بالسِّمِنار، نقتطف منه ما يلي:

«... وكان لا بد من إيجاد رجل عربي يتقن اللغة الروسية ليقوم بمهمة المدارس، فإذا بشاب دمشقي كان يتعلم في 'كييف' اسمه إسكندر جبرائيل كزما، وكان قد صرف في المدرسة اللاهوتية مدة سنتين وبقيت من حياته المدرسية سنتان اثنتان، فوقع الاختيار عليه لكنه رفض الطلب إلاّ أن تمنحه الجامعة الشهادة الكاملة. واستمر يدرس ستة شهور بجد ونشاط فنال الشهادة باستحقاق. وحزم ثيابه إلى الشام قاصداً إنشاء مدرسة لتخريج معلمين قادرين على القيام بأمور المدارس الابتدائية، لكن الجمعية في بطرسبرغ لم توافق المعتمد كزما على طلبه لأن الجمعية كان اسمها 'الجمعية الإمبراطورية الروسية الفلسطينية' فانتقل الأستاذ كزما إلى القدس فلم يلق آذاناً مصغية لطلبه، بل وجد تعنتاً ورفضاً من 'أخويّة القبر المقدس' اليونانية، فجاء إلى عكا الحافلة بأثرياء ووجهاء الطائفة الأورثوذكسية، وهنا واجه العناد من المتروبوليت. فيمم الناصرة حيث رحب به الوجيه طنوس قعوار وأنزله في جناح من داره الرحبة فاستدعى 'كزما' المعلم نقولا أبو طبيخ وباشر الاثنان يعلّمان بشغف ونشاط اللغة الروسية [وكانت من نصيب كزما] واللغة العربية [وكانت من نصيب أبي طبيخ].

«وكانت مدرستهما أول مدرسة في الشرق العربي لقنت الطلاب الأدب العربي العالي والمعاني والبيان والعروض وقرض الشعر. ومن برامجها العليا: الجغرافيا والتاريخ وعلم الصحة والرياضة البدنية والموسيقى والرسم وصناعة النجارة والتجليد، وعنيت بالترجمة عن الروسية وبالقيام برحلات على الدواب وعلى الأقدام إلى الأماكن التاريخية لتعزيز المعلومات من الوقوف على الآثار وما كان أكثرها في فلسطين. وكان من طلابها اللامعين: جميل بولس قعوار وقسطندي قنازع وجرجس أبو درويش وسليم قبعين وكلهم من أبناء الناصرة.

«وشاءت الجمعية أن تختار قسطندي قنازع للجامعة في موسكو، وبدأ سليم قبعين يعلّم في قرية المجيدل وأبو درويش في قرية الرامة وذلك سنة ١٨٩٣.

«وتخرّج من مدرسة الناصرة سنة ١٨٩٤ ستة شبان يحملون شهادة التعليم الابتدائي والثانوي العالي وانتشروا في سورية ولبنان وقاموا بأعمالهم خير قيام في حمص واللاذقية ودمشق وطرابلس وأميون وعكار ومرجعيون وصافيتا.

«وفي سنة ١٨٩٦ قضى أبو طبيخ نحبه ودفن في الناصرة، فاستدعى الرئيس 'كزما' الأستاذ خليل الله وردي من دمشق وكان أديباً طويل الباع في اللغة العربية وخطيباً مفوهاً. وكانت مدارس عدة في قرى الناصرة وعكا، وكانت مدرسة دار المعلمات في بيت جالا التي أنجبت خير المعلمات فيهن الأستاذة كلثوم عودة من الناصرة المعروفة في الأوساط الثقافية الروسية.

«وهكذا تغلغلت النهضة الأدبية في لبنان وأفادت الطائفة الأورثوذكسية ودب النشاط في أقاصي البلاد فشرع أهل القرى يشيّدون الأبنية والجمعية الروسية تهتم بانتخاب المعلمين والمعلمات الذين كانوا يتخرجون كل سنتين بعد دراسة تدوم ست سنوات.

«وتراكمت الأعمال الشاقة على الأستاذ الرئيس 'كزما' فكان لا بد من انتخاب مساعدين له، فحضر من روسيا مالينين، ثم نقولاييفسكي، ثم رياجسكي، ثم بغدانوف، ثم سباسكي، وسواهم بوصفهم نظاراً وممثلين للجمعية الروسية يقيمون في الناصرة ودمشق وطرابلس، وظل الأستاذ 'كزما' في دار المعلمين في الناصرة يؤلف الكتب الدينية التي ملأت مكتبات المدارس ولم يعرف الطلاب غيرها.

«ومات الأستاذ خليل وردي سنة ١٨٩٨ فوقع الاختيار على الأستاذ جبران ميخائيل فوتيه البيروتي ودام في منصبه ست سنوات فاستقال ورجع إلى إدارة مدرسة الثلاثة الأقمار الأورثوذكسية في بيروت، فحلّ محله في الناصرة الأستاذ جورج شاهين عطية، بينما كان أبوه في بيت جالا في 'سِّمِنار' البنات يساعده الناشئ خليل السكاكيني المقدسي، ويرجع الأستاذ فوتيه إلى منصبه في الناصرة بعد غياب سنتين.

«ويضع الأستاذ فوتيه كتاب 'السائغ الصرف في علمي النحو والصرف' للصفوف الابتدائية، بينما يستسيغ ألفيّة ابن مالك ويغدق شروحاته عليها للمنتهين، بأسلوب سهل المأخذ فيحل 'السائغ الصرف' محل كتاب 'القواعد الجلية' و'الأجرومية'، ويلقي بين أيدي الطلاب المنتهين كتابه في العروض، وهو كتاب جامع مفيد سهل المأخذ حل محل كتاب العروض للشيخ ناصيف اليازجي وسمّاه 'البسط الشافي في علمي العروض والقوافي'.

«ويتوالى التخريج والتدريس حتى عام ١٩١٤ إذ وقعت الحرب الكونية الكبرى،

فأقفلت المدارس الروسية في فلسطين وسورية ولبنان ورجع الأساتذة إلى مدنهم وقراهم، وأحرق الأتراك ما في المكتبات من كتب توزع على الطلاب مجاناً، وأتلفوا معالمها.

«وتناول الأساتذة المنقطعون عن العمل اعترافاً رسمياً من وكلاء الجمعية بدفع مرتباتهم طول الإقفال، ولكن هذا لم ينفذ لأن الجمعية فقدت صندوقها وزال بزوال الإمبراطورية الروسية.

«وانتشر المتخرجون في سائر الأقطار يتولون إدارات المدارس الابتدائية والثانوية على أكمل وجه ومارسوا التعليم في فلسطين وسورية ولبنان والعراق فكانوا خير مدرسين وأفضل معلمين في المدارس وكان لهم مقام في عالم الأدب، منهم أصحاب القلم والتأليف والشعراء المجيدون، نظير: ميخائيل نعيمه، إيليا أبو ماضي، نسيب عريضة، ناصر عيسى، إسكندر الخوري البيتجالي ونعمه الصباغ.

«واشتهر من أرباب القلم: خليل بيدس، وسليم قبعين، وإيليا حاماتي، وشبلي رزق.

«ونبغ معلمون ماهرون منهم: أديب سعادة، وأنطون بلان، وقسطندي قنازع، ونعمه الصباغ وغيرهم. ولم يكن يدخل دار المعلمين 'السِّمِنار' الروسي في الناصرة إلاّ مَن كان متفوقاً في مدرسة قريته، ولذلك لم تكن الصفوف تضم إلاّ النبغاء ولهذا لم تخرّج مدرسة الناصرة إلاّ أرباب الأدب العالي جملة وأفراداً.

«ومما يجب الإشارة إليه أن المدارس الروسية الابتدائية في المدن الفلسطينية والسورية واللبنانية كانت تقدم لجميع الطلاب فقراء كانوا أم أغنياء، الكتب والدفاتر والأقلام والريش والحبر وورق النشاف وبعض الأدوية والشاش المعقم مجاناً.

«وفي عام ١٩١٤ كان عدد المدارس الابتدائية يربو على مئة وعشرين مدرسة لا تزال الأوساط الأدبية تتحدث عنها وعن فضلها ولا سيما صفوف الحضانة فيها.

«ولقد سافر إلى روسيا، على نفقة الجمعية، نخبة من المتفوقين منهم: إبراهيم ورور ونايف وهبة وقسطندي قنازع (من الناصرة)، وميخائيل نعيمه (من بسكنتا)، ونسيب عريضة[١٣] وميخائيل إسكندر وعبده سليمان (من حمص)، وسواهم ممن أتموا دروس اللاهوت، ورجع منهم إلى الناصرة عدد انضموا إلى أساتذة السِّمِنار الروسي بإشراف الرئيس 'كزما' وبمساعدة أربعة معلمين من أكاديمية 'كييف' فبرع الطلاب في اللغة الروسية والعربية واقتبسوا اللغة التركية وكان لا بد من تعلمها.»

يمكن أن نجمل السمات التي امتازت بها المعاهد التعليمية الروسية فيما يلي:

(أ) انتشرت هذه المدارس في القرى الفلسطينية في الجليل، ومنطقة بيت جالا، وفي كثير من قرى لبنان وسورية. فأتاحت العلم لأبناء الفلاحين الفقراء، ولمواهب ما كان يتاح لها أن تتفتح لولاها، وخصوصاً أن التعليم فيها كان مجانياً و«الكتب والدفاتر والأقلام كانت توزع بالمجان»، كما يقول ميخائيل نعيمه، بل إن الملابس علاوة على الطعام والكتب وغير ذلك كانت كلها مجانية في السِّمِنار في الناصرة.

وبينما أنشأت أغلبية الإرساليات مدارسها في القدس، ولم يكن يستطيع الوصول إليها إلاّ أبناء العائلات التي تتمكن من تحمّل النفقات، كانت المدارس الروسية في مختلف القرى تتيح لأبناء العائلات الفقيرة إمكان التعليم، وتفسح المجال أمام المتفوقين متابعة دراستهم في السِّمِنار في الناصرة.

ومن ثم فلعل الأصل الطبقي لهؤلاء الطلاب أثّر في مواقفهم من التحرر، والاستعداد للتمرد على المواقف التقليدية، الأمر الذي سنراه في موقف خريجي السِّمِنار من المعركة بشأن تجديد الأدب العربي.

(ب) تميزت هذه المعاهد بإتاحة المجال لتعليم الفتيات بحيث يكاد عدد الطالبات يساوي عدد الطلاب. ومن مراجعة «جدول يحتوي على معاهد الجمعية في سورية وفلسطين سنة ١٩٠٧»[١٤] نلاحظ ما يلي:

إن مجموع عدد الطلاب الذكور في تلك المعاهد بلغ ٥٢٤٦ طالباً، بينما بلغ عدد الطالبات ٤٥٧٥ طالبة،[١٥] وأن عدد الطالبات في مدرسة بيت ساحور الخارجية بلغ ٨٤ طالبة، بينما بلغ عدد الطلاب ٤١.

وفي حيفا حيث كانت مدرستان روسيتان، نجد أن إحداهما كان طلابها من الذكور فقط وعددهم ٤٨، بينما كان في الأُخرى ذكور وإناث: عدد الذكور ١٢، وعدد الإناث ٧٥. وقد أشار ميخائيل نعيمه إلى التطور الذي طرأ على مدرسة قريته بسكنتا، عندما انتهى البناء الجديد للمدرسة سنة ١٨٩٦، فقال: «.. وإن المدرسة - من بعد أن كانت للذكور وحدهم - أصبحت مختلطة للذكور والإناث، وقد قفز عدد المدرسين فيها من اثنين إلى تسعة، بينهم ثلاث معلمات، وقد قفز عدد التلاميذ من العشرين إلى ما يقارب المئتين، وعدد الصفوف من صفين إلى ثمانية تبدأ بـ 'البستان'.»[١٦]

وكما كان هناك اهتمام بإنشاء دار للمعلمين في الناصرة، أُنشئت دار للمعلمات في بيت جالا، تستقبل الطالبات المتفوقات من مختلف الأنحاء، وتخرّج المعلمات لتطوير شبكة التعليم وتوسيعها.

إن التشديد على تعليم الفتيات في تلك المرحلة، وإيجاد مدارس ابتدائية مختلطة، أمر في غاية الأهمية من حيث الأثر الاجتماعي، وتقدمية الرؤية.

(ج) الموقف التربوي: «يقول أسعد داغر: 'والتدريس في هذه المدارس لا يعول على حفظ الدروس غيباً في الكتب، بل في الأكثر على شرح الأساتذة وبسطهم للمواضيع المهمة في ذلك الدرس حتى أنهم يدرسون فنوناً كثيرة، إلقاء، وبلا كتب.'»[١٧] كما امتازت هذه المدارس بالرعاية الفردية للطلاب. ويشير ميخائيل نعيمه إلى أمر مهم في التربية في هذه المدارس بقوله: «والأهم في نظرنا، أن القصاصات بالقضيب والكف والرجل أصبحت محظورة تحت طائلة العقاب للمعلم الذي يلجأ إليها.»

من هنا كان احترام الطفل، وصيانة كرامته، وإتاحة المجال أمامه للتطور والنمو.

(د) الاهتمام بتعليم اللغة العربية: معلوم أن المدارس التبشيرية كانت تهتم أساساً بتعليم لغة القوم المبشرين، ولذلك كانت اللغة الإنكليزية أو الفرنسية أو الإيطالية تحظى بتأكيد أكثر مما تحظى به اللغة العربية. أمّا المدارس الروسية فكانت تشدد على تعليم اللغة العربية. ويقول ميخائيل نعيمه عن التعليم في هذه المدارس الابتدائية: «لقد كانت تبذل للغة العربية عناية خاصة، ومثلها للحساب. فاللغة والحساب كانا في الدرجة الأولى. والجغرافيا والتاريخ ودروس الأشياء في الثانية. ومبادىء اللغة الروسية في الثالثة.»[١٨]

ويؤكد ذلك جورج حنا إذ يقول: «تعليم اللغة العربية أعلى مستوى مما هو في المدارس الأجنبية الأُخرى.»[١٩]

أمّا في السِّمِنار فقد كانت اللغة العربية وآدابها تحظى باهتمام خاص، ويشهد على ذلك برنامج التعليم وكتب التدريس التي ألّفها معلمو اللغة العربية في هذا المعهد، مثل الأستاذ جبران فوتيه مؤلف كتاب «السائغ الصرف في علمي النحو والصرف»، وكتاب «البسط الشافي في علمي العروض والقوافي». إلاّ إن ميخائيل نعيمه يشير إلى ميزة كان السِّمِنار فيها سبّاقاً، إذ يقول: «ولعل دار المعلمين الروسية في الناصرة كانت المدرسة الأولى في العالم العربي التي اهتمت بتدريس تاريخ الأدب

العربي وفن التربية والتعليم. ولأنه لم يكن قد قام بعد من العرب من يكتب تاريخ الأدب العربي بطريقة جامعة تصلح للتدريس في المدارس فقد كنا نستعين بترجمة خطية لكتاب وضعه في الموضوع أحد المستشرقين الروس، وكان على كل منا أن ينسخ الترجمة بنفسه لنفسه.»[٢٠]

ولعل الملاحظة الجديرة بالتأكيد هنا هي أن المدارس القليلة جداً التي أقامها العثمانيون في بلاد الشام، كانت لغة التعليم فيها هي اللغة التركية، كما ذكر ناصر الدين الأسد، وكما يؤكد سامي الكيالي إذ يقول: «فحين تأسست المدارس المدنية في سورية كان التدريس فيها باللغة التركية.. حتى اللغة العربية كان يدرّسها أساتذة أتراك ليست لهم السليقة العربية.»[٢١]

لكن نظام الجماعات، أو الملل، التركي، كان يتيح «لكل جماعة أن تعلّم باللغة الشائعة بينها، فكان للأرمن مثلاً أن يعلّموا باللغة الأرمنية، وللبلغار أن يعلّموا باللغة البلغارية، وللمسيحيين العرب أن يعلّموا في مدارسهم باللغة العربية.»[٢٢]

وهنا المفارقة: فالطلاب المسلمون العرب يتعلّمون بالتركية، أمّا المدارس المسيحية فهي التي تعلّم بالعربية، وتهتم بإحياء هذه اللغة، ووضع كتب لتدريسها وتطويرها والتعامل معها. وقد أشار ساطع الحصري إلى هذا الواقع فقال: «إن السياسة التي سارت عليها الدولة العثمانية في هذا المضمار أدت إلى نتائج غريبة جداً بالنسبة للبلاد العربية.

«كان نظام الجماعات [الذي ذكر أعلاه] خاصاً بغير المسلمين، فلم يتمتع المسلمون من العرب بشيء من التنظيمات والامتيازات التي كان يتمتع بها إخوانهم المسيحيون في أمور المدارس والتعليم. ولذلك فقد انحصرت المعاهد التعليمية المفتوحة أمام هؤلاء في المدارس الرسمية التي كانت تعلّم باللغة التركية، في حين أن إخوانهم المسيحيين كانوا قد كونوا جماعات منظمة، بحكم القانون، وأسسوا مدارس خاصة بهم وجعلوا اللغة العربية لغة التعليم فيها. ولهذا انتشر ‹التعليم الحديث› بين المسيحيين قبل المسلمين، ولهذا السبب أيضاً كان معظم الكتّاب والمؤلفين والخطباء الذين ظهروا في الولايات العربية في العهد العثماني مسيحيين بالرغم من قلة عدد هؤلاء بالنسبة إلى المسلمين.»[٢٣]

هذه الحقيقة، إذاً، حقيقة التعليم باللغة العربية مهمة جداً في رؤية دور الريادة في النهضة الأدبية الذي قامت به فعلاً المعاهد التعليمية الأجنبية في أواخر العهد العثماني، ومنها المعاهد الروسية التي امتازت بصورة خاصة باحتفائها باللغة العربية

وآدابها، كما سنرى فيما بعد.

(هـ) التوعية القومية: لعل أبرز شاهد في هذا المضمار ما ذكره ميخائيل نعيمه عن الأستاذ أنطون بلان. فبعد أن تحدث عن فضل هذا المعلم عليه في تعلّم اللغة الروسية، وأسلوبه في التعليم قال: «والأهم من ذلك أن المعلم أنطون كان أول مَن نبه فينا الشعور الوطني. فقد كان يحدثنا، كلما سنحت الفرصة، عن البؤس الذي تعانيه بلادنا تحت النير التركي، وعن استبداد عبد الحميد، وجرائم البوسفور، والفساد المتفشي في دوائر الدولة من السلطان حتى آخر مختار في آخر قرية. فلا بد للعرب، إذا هم شاؤوا عيشاً فيه شيء من الاستقلال والكرامة، من أن يستردوا أرضهم وحرياتهم السليبة. وعلى المسلمين منهم أن يستردوا الخلافة المغتصبة. فالخلافة للعرب وحدهم. ولا يجوز أن تنتقل إلى الأتراك والأعاجم. رحمة الله عليك يا أنطون بلان.»[٢٤]

من اللافت للنظر أن خريجي المدارس الروسية أشاروا في أكثر من موقع إلى الحوافز السياسية لإقامة المدارس التبشيرية عامة، ومنها الروسية طبعاً.

وقال إسكندر الخوري:

«كانت فلسطين ولا تزال مطمح أنظار الدول لموقعها الجغرافي والاستراتيجي. وكانت تركيا وقتئذ تُدعى بالرجل المريض، فمن استولى عليها استولى على الشرق لأنها مفتاحه ولأن فيها مهد مؤسس النصرانية وقيامتها، ولم يكن من الصعب على أية دولة من دول الغرب الانقضاض عليها وضمها إلى أملاكها لولا خوف الدول بعضها من البعض الآخر، ولا سيما روسيا الطامعة في الدردنيل توصلاً إلى الظفر بميناء حر يطل على البحر الأبيض المتوسط ويطلق بواخرها من عقالها. لذلك التجأت الدول بحجة المحافظة على الأماكن المقدسة وحماية المسيحيين فيها إلى التدخل في شؤون الدولة العثمانية، فكانت الامتيازات الأجنبية، وجعلت كل دولة تتبارى في استمالة الأهالي إليها عن طريق فتح المؤسسات الخيرية والثقافية، فكان لكل من الإنكليز والفرنسيين والألمان مدارس وملاجئ ومؤسسات طبية مجانية. ولم يقتصر ذلك على فلسطين بل تجاوزها إلى سورية ولبنان.»[٢٥]

ويعلق ميخائيل نعيمه، في حديثه عن المدرسة الروسية الجديدة في بلدته بسكنتا، على الهدف الكامن وراء هذا الاهتمام التبشيري فيقول: «ما كان لنا نحن الصغار أن نعرف من أين جاءتنا تلك النعمة وكيف. وكل ما عرفناه أن 'المسكوب' قوم أشداء وكرماء يحكمهم قيصر تهتز لكلمته جميع ملوك الأرض. وأنهم يقطنون

بلاداً شاسعة وباردة في الشمال. وأنهم 'روم' مثلنا. ولذلك يعطفون علينا ويحرصون على الدفاع عنا وعن 'ديننا' الذي هو الدين الوحيد الصحيح. أمّا أن دولتنا 'العلية' كانت قد بلغت من الهرم والتفكك حد الانحلال، وأن الدول الغربية، تحت ستار الدين، راحت تتسابق إلى بسط نفوذها في أجزاء تلك الدولة المتداعية، فكان لنا فيض من المدارس الفرنسية والإنكليزية والألمانية والإيطالية والأميركية والروسية وغيرها في فلسطين وسورية ولبنان - أمّا ذلك كله فقد كنا غافلين عنه، وغير شاعرين بوجوده.»[٢٦]

إلاّ إن سليم قبعين يرى ذلك النشاط الثقافي في الإطار السياسي العام لأهداف البلد الذي يتبناه، ويرى تأكيد العنصر الطائفي الديني، أو توزع الميول في الطلاب بمقدار توزع المبشرين ومدارسهم على الدول التي جاء منها أولئك.

ففي مقال نشره قبعين في مجلة «الإخاء»[٢٧] يشير إلى بعض الآثار السلبية للمدارس التبشيرية على صعيد الوحدة الوطنية فيقول: «أساءت تركيا في عهد وجودها إلى فلسطين بتصريحها للأجانب بإنشاء المدارس المختلفة المبادئ والنزعات التي كانت ترمي جميعها إلى أغراض سياسية وتمزيق رابطة الاتحاد بين أبناء الوطن الواحد..»

لكن حين نعرض مجرى عملية التعليم والثقافة بصورة عامة على خلفية الجهل الذي كان سائداً، فلا بد من رؤية الوجه الآخر، المباشر، للنشاط الذي قامت به الإرساليات المتعددة التي كان لها قسط كبير في اتساع شبكة المدارس والمعاهد الثقافية، وبالتالي ساهمت مساهمة مباشرة في مجرى النهضة الأدبية الحديثة.

تعلّم في المعاهد الروسية كثيرون، منهم من لم يصل إلى السِّمِنار، لكنه تابع دراسته في معاهد أُخرى، وكان له شأنه في الحياة الثقافية العربية، مثل الدكتور جورج حنا الذي أشار إلى تجربته الدراسية في المدرسة الروسية في بلدته الشويفات في كتابه «قبل المغيب»، وكذلك الشاعر رشيد أيوب، والشاعر ندرة حداد، وكانا عضوين في الرابطة القلمية في المهجر الشمالي إلى جانب ميخائيل نعيمه ونسيب عريضة وعبد المسيح حداد، وهم من خريجي السِّمِنار في الناصرة. ومنهم من تخرّج من السِّمِنار وبرز في عالم الأدب والترجمة والصحافة والتعليم، من أمثال سليم قبعين، وخليل بيدس، وإسكندر الخوري البيتجالي، ونعمه الصباغ، وفضيل النمر، وناصر عيسى وغيرهم.

ولمّا كان الحديث عن أثر خريجي السِّمِنار في النهضة الأدبية الحديثة، رأيتُ

أن أتقصى أثر هؤلاء الخريجين في الميادين التالية:

١ - التربية والتعليم.

٢ - الصحافة الأدبية بصورة خاصة.

٣ - ترجمة الأدب الروسي.

٤ - الإنتاج الأدبي الأصيل.

الهوامش

(١) يذكر ميخائيل نعيمه أن رحلته من قريته بسكنتا في لبنان إلى الناصرة «براً وبحراً استغرقت خمسة أيام. وبإمكانك أن تقطع اليوم المسافة عينها بالسيارة في خمس ساعات أو ست.» أنظر: ميخائيل نعيمه، «أبعد من موسكو ومن واشنطن»، في: «المجموعة الكاملة لمؤلفات ميخائيل نعيمه» (بيروت، ١٩٧٢)، المجلد ٦، ص ٢٠١.

(٢) كانت الكتب توزع مجاناً على التلاميذ في مختلف مدارس القرى والمدن. وفي حديث نعيمه عن عهد تعلمه في مدرسة بسكنتا الروسية يقول: «والأبهج من كل ذلك أن الكتب والدفاتر والأقلام كانت توزع بالمجان.» المصدر نفسه، المجلد ٦، ص ٢٠٠.

(٣) يتحدث نعيمه عن دار المعلمين حين تعلّم فيها فيقول: «.. تضم ٤٥ طالباً، أصغرهم في مثل سنّي... موزعون على ثلاثة صفوف، تستغرق الدراسة في كل منها عامين.» المصدر نفسه، المجلد ٦، ص ٢٠٢.

(٤) شكري سويدان، «تاريخ الجمعية الإمبراطورية الأرثوذكسية الفلسطينية» (بوسطن/ماس، ١٩١٢)، ص ٢٠١.

(٥) نعيمه، مصدر سبق ذكره، المجلد ٦، ص ٢٠٠. لكن ما دوّن في مفكرة كزما بتاريخ الاثنين ١٣/١/١٨٩٧ مؤلم. فهناك إشارة إلى إضراب قام به طلاب الصف الثاني (من دون ذكر السبب).

بدأ الطلاب إضرابهم يوم الأحد في أثناء النزهة إذ رفضوا أن يلعبوا. ثم ورد في المفكرة: «المساء - لمّا حضروا من التنزه لوحظ حركة فيه ومذاكرة على غير العادة. لمّا جلسوا للعشاء لم يقبلوا جميع التلاميذ أن يتعشوا وثاني يوم صباحاً لم يفطر الصف الثاني ولمّا بدأ بعضهم في الأكل على دعوة المعلم، للحال امتنعوا عن الأكل حينما أشار إليهم قيصر. حالما علمت ذلك وبخت الصف الثاني قبل ابتداء الدرس وأركعت قيصر ومعه بعض رفاقه وسمّعوا الدرس الأول ركوعاً وكذلك فعلت بالصف الأول مع بعضهم.

«ثم الظهر تغدى الصف الثاني خبزاً حافاً ركوعاً وفي ١٤ منه تعشّى ركوعاً كذلك خبزاً حافاً.»

ونَدهش: أليس الركوع عقاباً جسدياً، وهل أكل الخبز الحاف ركوعاً مجرد عقاب معنوي؟

(٦) نعيمه، مصدر سبق ذكره، المجلد ٦، ص ٢٠١.

(٧) عمر محاميد وآنا دولينينا، «الاستشراق الروسي» (أم الفحم، ١٩٩٨)، ص ١٠.

(٨) تقرير: ن. م. أنيتشكوفا، «المؤسسات التعليمية في الجليل» (سان بطرسبرغ، ١٩١٠)، ج ٢، ص ٣٥ وما تلاها.

(٩) ورد اسمه في شهادة نعمه الصباغ: خليل الله وردي.

(١٠) الاسم الذي أطلق عليها بالروسية: «بنسيون».

(١١) نلمح هذا السلوك أيضاً في شكوى ضد رئيسة دار المعلمات في بيت جالا تضمنتها رسالة من الطالبة آنذاك كلثوم عودة، مؤرخة في ١٥ أيلول/سبتمبر (شرقي) ١٩١٢، بعثت بها إلى المستشرق الروسي كراتشكوفسكي تقول فيها: «السنة الماضية شربنا العلقم من الرئيسة لأنها لا تحب أولاد العرب وكأنها أُرسلت للأمر فقط والنهي واحتقار الغير ولهذا كنت أحاربها بكل قواي، وهذا مما كان يزيد من مرضي - الله يدبّر أو يقصر هذا العمر. في هذه السنة تحضر لعندنا رئيسة جديدة ولا ندري كيف تكون هذه السنة» - الرسالة بخط اليد وقد أُدرجت في: محاميد ودولينينا، مصدر سبق ذكره، الفصل الثالث.

(١٢) أنظر: وليد خليف وسهير دياب، «أوراق من الماضي ورسائل منسية» (الناصرة، ١٩٩٤)، الملحق، ص ١٢٦.

(١٣) كان تقرّر سفر نسيب عريضة للدراسة في روسيا بعد إنهاء الدراسة في السِّمِنار. إلاّ إن أوضاع الحرب الروسية - اليابانية حالت دون ذلك.

(١٤) سويدان، مصدر سبق ذكره، ص ٢٠١ - ٢٠٨.

(١٥) قوبل فتح مدارس للإناث بالمعارضة في بعض القرى (معلول). وقد أشار كزما في مفكرته إلى ذلك.

(١٦) نعيمه، مصدر سبق ذكره، المجلد ٦، ص ٢٠٠.

(١٧) يوسف داغر، «صفحة مجهولة من تاريخ التعليم في سوريا ولبنان وفلسطين، الجمعية الإمبراطورية الفلسطينية الروسية»، مجلة «الأديب»، العددان ١ و٢، كانون الثاني/يناير - شباط/فبراير ١٩٨٠، ص ١٨.

(١٨) نعيمه، مصدر سبق ذكره، المجلد ٦، ص ٢٠٠؛ ميخائيل نعيمه، «سبعون»، في: «المجموعة الكاملة لمؤلفات ميخائيل نعيمه» (بيروت، ١٩٧٢)، المجلد ١، ص ٧٥.

(١٩) جورج حنا، «قبل المغيب» (بيروت، لا تاريخ)، ص ٨٦.

(٢٠) نعيمه، «أبعد من موسكو...»، مصدر سبق ذكره، المجلد ٦، ص ٢٠٢.

(٢١) سامي الكيالي، «الأدب العربي المعاصر في سوريا» (القاهرة، ط ٢، ١٩٦٨)، ص ١٢. يقول الشيخ عبد الحميد السائح في مذكراته: «وفي المدرسة تعلمت مبادئ اللغة التركية وكنت أتحدث بها، لكن نسيتها بسبب عدم الممارسة. وقد كان يُطلب منا الحديث بالتركية في المدرسة، ومن كان يتحدث بالعربية كانت توضع في جيبه بطاقة اسمها (سرناف) يعاقَب حاملها عند انتهاء وقت الدوام.

«وكانت جمعية الاتحاد والترقي العثمانية تهدف إلى تتريك العرب، فأُدخل تعليم اللغة التركية في الأقسام الابتدائية وفُرض علينا التحدث بها، حتى أن علم النحو والصرف العربي كان يدرّس بها. فمثلاً إذا أراد المعلم تعريف الأفعال والأسماء، يقول: فعل ماضي نه در؟ أي ما هو الفعل الماضي وهكذا.» أنظر: عبد الحميد السائح، «فلسطين، لا صلاة تحت الحراب: مذكرات الشيخ عبد

الحميد السائح» (بيروت، ١٩٩٤)، ص ٨.

(٢٢) ناصر الدين الأسد، «الشعر الحديث في فلسطين والأردن» (القاهرة، ١٩٦١)، ص ٢٦. وانظر أيضاً:

Abdul Latif Tibawi, *Arab Education in Mandatory Palestine: A Study of Three Decades of British Administration* (London, 1956), pp. 21-22.

إذ يشير إلى أصل هذا النظام من الناحية التاريخية، اعتماداً على نمط الإدارة الإسلامية الأولى، ثم على الاتفاقات التي عقدها السلاطين العثمانيون مع الغرب في القرن السادس عشر لتشجيع العلاقات التجارية.

(٢٣) عن «حولية الثقافة العربية»، السنة الأولى، ص ١١، تم اقتباسه في: الأسد، مصدر سبق ذكره، ص ٣٦ - ٣٧.

(٢٤) نعيمه، «سبعون»، مصدر سبق ذكره، المجلد ١، ص ١٤٢.

(٢٥) إسكندر الخوري، «ذكرياتي» (القدس، ١٩٧٣)، ص ١١.

(٢٦) نعيمه، «أبعد من موسكو...»، مصدر سبق ذكره، المجلد ٦، ص ٢٠٠.

(٢٧) «الإخاء»، عدد أيار/مايو ١٩٢٨، ص ١٢٩ (سليم قبعين من خرّيجي الفوج الأول من السِّمنار الروسي في الناصرة).

التربية والتعليم

يمكن أن نرصد أثر السِّمِنار في ميدان التربية والتعليم، كأحد العوامل المهمة في النهضة الثقافية والأدبية، فيما يلي:

أولاً: إعداد كادر من المعلمين المؤهلين، نظرياً وعملياً

فعلاوة على دراسة علم التربية (البداغوجيا)، كان على الطلاب أن يعلّموا في «المدرسة الخارجية» التابعة للجمعية في الناصرة، بإشراف أحد معلّمي السِّمِنار. ولا شك في أن إنشاء دار المعلمين (ودار المعلمات) بهذا المستوى، كان أمراً فريداً في نوعه في هذا البلد. وهو أول معهد من نوعه في المجتمع العربي الفلسطيني. وقد ظل كذلك إلى أن خلفته دار المعلمين (التي أصبحت فيما بعد الكلية العربية) في القدس، والتي أنشأتها إدارة المعارف أيام الانتداب البريطاني، على مستوى البلد كافة.

وقد انتشر خريجو السِّمِنار يعلّمون في مختلف مدارس الجمعية الإمبراطورية التي ظل عددها في ازدياد. ومضى أبناء الجليل يعلّمون في فلسطين وسورية ولبنان. فخليل بيدس (من الناصرة) أصبح مديراً لمدرسة بسكنتا، وهو الذي أرسل ميخائيل نعيمه من هناك ليدرس في السِّمِنار في الناصرة. وعيسى الداود (من الرامة) يعلّم في اللاذقية. وقسطندي قنازع (من الناصرة) عاد بعد دراسته في روسيا ليعلّم في السِّمِنار. وسليم قبعين (من الناصرة) بعد أن علّم في قرية المجيدل انتقل إلى مصر حيث علّم آداب اللغة العربية في المدرسة العبيدية في القاهرة. وفضيل النمر (من الناصرة) علّم في زحلة، ثم انتدبه ساطع الحصري، في إبان الحكم الفيصلي في سورية، لإدارة مدرسة نموذجية، ثم عاد إلى فلسطين وتولى إدارة المدرسة الحكومية في بيت لحم، ثم في رام الله. ونعمه الصباغ (من الناصرة) علّم في لبنان، في منيارة وكوسبا وأميون، وعندما عاد إلى فلسطين علّم في شفا عمرو وبيت لحم، ثم في الناصرة. وخليل سليمان (من الناصرة) علّم في جزين والحدث، في لبنان، ثم أصبح مديراً لمدرسة الطيرة، وعلّم بعد ذلك في الناصرة. وجرمس سعيد (من كفر ياسيف) علّم

في دمشق. كذلك يني يني (من كفر ياسيف، وكان في آخر حياته رئيساً للمجلس المحلي في البلدة) علّم في دمشق.

بل إن المعلمات، من خريجات دار المعلمات في بيت جالا، انتُدبن للتعليم في لبنان، ومنهن، على سبيل المثال، حلوة سليمان مكركر (من بيت جالا)، وقد علّمت في بتغرين وضهور الشوير، وهيلانة أبو رمان، وحنة سابا، وكاترينا عوض (وهن من بيت جالا أيضاً) علّمن في مدارس متعددة في لبنان.[١]

قدمتُ هذه الأسماء، على سبيل المثال لا الحصر، لتأكيد الدور الذي اضطلع به خريجو السِّمِنار الفلسطينيون في مسيرة التعليم والتربية في أواخر القرن التاسع عشر ومطلع القرن العشرين.

وقد تولى كثيرون من هؤلاء الخريجين التعليم وإدارة المدارس في كثير من أنحاء فلسطين أيام الانتداب البريطاني.

تقول أسمى طوبي في حديثها عن السِّمِنار: «ويكفي أن نعلم أن الحكومة البريطانية نفسها كانت إبان احتلالها البلاد تختار لمدارسها ولإدارة مدارسها من بين آلاف المتعلمين في البلاد تختار خريجي هذا المعهد... فتكل إليهم وإليهن أمر تدريس اللغة العربية في مدارسها وخاصة قواعد اللغة والرياضيات رغم تطور أساليب التعليم. ذلك لأن تلك المعاهد كانت قد سبقت عصرها وظلت تصلح قاعدة لتصدير المدرسين حتى أواسط القرن العشرين.»[٢]

ظل هؤلاء الخريجون المعلمون والمربون يقودون المسيرة التعليمية والتربوية زمناً بعد مجيء الانتداب البريطاني. ففي المؤتمر الفلسطيني الأول لمديري المدارس، الذي عقد في دار المعلمين في القدس في الفترة ١٩ - ٢٢ نيسان/أبريل ١٩٢٧، وشارك فيه المديرون من مختلف أنحاء فلسطين، كان للأستاذ قسطندي قنازع خريج السِّمِنار، الذي درس في روسيا، وعاد ليعلّم فيه حتى سنة ١٩١٤، وعُيّن مديراً للمدرسة الثانوية في الناصرة أيام الانتداب، دور بارز في التوجيه، إذ ألقى محاضرة عن الامتحانات المدرسية، نشرت في عدد من الصحف، ناقش فيها أنواع الامتحانات الكتابية والشفوية وكيفيتها ودورها في تطور التعليم. وأشار إلى تجربته الشخصية حين كان طالباً في المدارس الروسية بقوله: «إن الامتحانات المدرسية عاشت زمناً كانت لها فيه صيغة غير الصيغة الحالية. وإيضاحاً لذلك سألتفت إلى السنين التي قضيتها تلميذاً في مدارس عديدة منها دار المعلمين الروسية بالناصرة ومدرستان من أعمال الإمبراطورية الروسية وعدد تلك السنين ١٣ تبتدئ في سنة ١٨٨٦ وتنتهي في

١٨٩٩.» ويصف قنازع كيف كانت تلك الامتحانات شفوية كلها، ما عدا الإملاء والإنشاء. ويفصّل في ذلك، ويخلص من تلك الملاحظات إلى الدعوة إلى أشكال أُخرى من الامتحانات.(٣)

وقد علّمني في الناصرة ثلاثة من هؤلاء الخريجين، وهم المرحومون: خليل سليمان، ونصر رمضان، ونعمه الصباغ. أمّا الأول فعلّمني الرياضيات، وأمّا الأستاذان الآخران فعلّماني اللغة العربية. وكانا علاوة على قدرتهما التدريسية ينظمان الشعر، ويشعان في نفوس التلاميذ محبة اللغة العربية والرغبة في الاطلاع على الآثار الكلاسيكية. وأعترف بأن لهما أثراً في محبتي للغة العربية وآدابها، وفي تشجيعي على الكتابة.

ثانياً: التوعية التربوية

اهتم هؤلاء الخريجون بنشر الوعي التربوي، ومناقشة قضايا التربية والتعليم، وأشير هنا إلى بعض الآثار في هذا المجال:

نشر خليل بيدس كتابين سنة ١٨٩٨: الأول بعنوان «مرآة المعلمين»، والثاني بعنوان «العقد الثمين في تربية البنين». ولم يتح لي أن أطلع على الكتاب الأول. أمّا الكتاب الثاني فقد أهداه إلى أستاذه «إسكندر جبرائيل كزما، مدير المدرسة الروسية الأورثوذكسية الداخلية في مدينة الناصرة الزاهرة»، مؤكداً له أن جهوده «في سبيل تعليم وتهذيب مَن علمتموهم وهذبتموهم لم تبق عقيمة بل نمت وأزهرت وجاءت بأثمار يانعة.»(٤) والمؤلِّف متأثر بمطالعاته للنظريات التربوية في أوروبا،(٥) بالاستناد إلى الكتاب المقدس في الرؤية المسيحية التربوية. وهو يعرض في البداية استعداد العائلة لاستقبال الطفل قبل ولادته، فيشير إلى مدى الاهتمام بصحة الطفل الجسدية، ويتساءل: هل هناك من إعداد للناحية النفسية والروحية؟ ولذلك يبدأ بضرورة إعداد الوالدين روحياً. ثم ينتقل إلى ولادة الطفل، وما يتوجب من الاستعداد لها، ويعالج في الفصول الأُخرى عدداً من القضايا التربوية قل مَن عالجها قبله، منها «القدوة» التي يهيئها الوالدان للطفل، والتربية البدنية.

وفي مجلة «النفائس العصرية»، التي أصدرها خليل بيدس، معالجات تربوية كثيرة، ومناقشات لأوضاع المدارس، ولاتجاه التعليم والتربية. وأشير هنا إلى أمثلة لذلك:

ففي تلك المجلة من المقالات والمعالجات ما يلي: «التربية والتعليم»، ص ٣٣؛ «نفس الطفل»، ص ٨٠؛ «إلى أساتذة المدارس»، ص ٢١٩؛ «تربيتنا البيتية»، ص ٢٥٥؛ «المدارس في بلادنا»، ص ٣٦٥؛ «غاية التربية»، ص ٣٩٣؛ «التربية القومية»، ص ٥٣٢؛ «تولستوي والتربية»، ص ٥٧٨. هذه بعض العناوين من مجلد سنة واحدة (١٩١٠).

إلاّ إن من الأمور المهمة التي كانت «النفائس العصرية» منبراً لها:

«الدعوة إلى بث الروح الوطنية» في نفوس التلاميذ. ففي المجلد ١ (١٩٠٨)، ص ٨٧٠، دعوة من جبران مطر (من بيت لحم) بعنوان «خطاب إلى المعلمين» يشير فيها إلى واجبات المعلمين ويقول:

«وأول هذه الواجبات أن نبث روح الوطنية في نفوس تلامذتنا.. وعندي أن الطريق المثلى لذلك هي أن نعلّم تلامذتنا كثيراً من القصائد والترنيمات الوطنية التي نستطيع أن نجمع وننظم منها ما نشاء.»

ويعلّق بيدس على هذه الدعوة بقوله: «وليس لأحد أن ينكر ما للنشائد الوطنية الحماسية من الوقع العظيم في نفوس الصغار لأنها تنشئهم على حب الوطن والإخاء والتعضد وتبث فيهم روح الحرية والاعتماد على النفس.»

ويدعو فضيل النمر (وهو ناصري من خريجي «السِّمِنار»، وواحد من رجال التربية المرموقين)، في مقال نشره في مجلة «النفائس» (تموز/يوليو ١٩٠٩)، إلى «إنشاء مدارس ابتدائية تجمع تحت أجنحتها تلامذة على اختلاف مذاهبهم وخصوصاً ذوي الفاقة الذين لا يقدرون أن ينفقوا على التعليم.. ولا شيء كالمكاتب يبث في التلامذة روح المحبة والتعاطف ويعصمهم بحبل الألفة والتكاتف فينمون على اختلاف مذاهبهم مثلاً في صفاء النية والمحبة لا يفرقهم مذهب ولا يفصلهم مشرب، بخلاف ما سنّته بعض الجمعيات إن لم نقل كلها في وجوب تهذيب طائفة دون أُخرى، الأمر الذي يزعزع أركان الألفة والولاء فتسري حينئذ جراثيم النفور والتباعد ويدب التعصب وهناك الطامة الكبرى.»

وفي مجلد سنة ١٩١٠، في مقال بعنوان «المدارس في بلادنا» (ص ٣٦٥ - ٣٦٨)، ثمة موقف خاص من المدارس الأجنبية، ودعوة إلى إنشاء المدارس الوطنية، إذ يقول الكاتب جرجي الخوري سليمان: «... بل كلاهما على طرفي نقيض.. ليس من المستطاع أن هذه المدارس تربي العاطفة الوطنية في الشبيبة الحاضرة وتعدّهم رجالاً صادقين في خدمة الوطن لأنها تعلمهم لغة أصحابها وتاريخ بلادهم

وعوائدهم وأخلاقهم إلخ.»

وقريب من هذا الموقف استنكار سليم قبعين للدور الذي قامت به المدارس الأجنبية التبشيرية «التي كانت ترمي جميعها إلى أغراض سياسية وتمزيق رابطة الاتحاد بين أبناء الوطن الواحد.»(٦)

ومنذ العدد الأول من مجلة «الإخاء»، التي أصدرها قبعين في القاهرة سنة ١٩٢٤، نجد الاهتمام بشؤون التربية والتعليم. ففيه مقال بعنوان «المدرّس ووظيفته».(٧) وفي العدد الثامن يقدم قبعين ملاحظات «إلى حضرة الزميل المدرّس» عن «درس المطالعة»، و«فوائد لغوية للتلامذة». وفي عدد أيلول/سبتمبر من السنة نفسها مقتطفات من خطبة الأرشمندريت الياس إسطفان الذي أنشأ مدرسة الإحسان في الإسكندرية، إذ يؤكد: «أريد مدرسة حرة وطنية تعلّم إخوتي وأبناء وطني ما هي القومية الحقيقية، القومية التي يجهلها شبابنا الذين تعلّموا في المدارس الأجنبية.. أريد مدرسة حرة وطنية تجمع أبناء الوطن وتكون منزهة عن شوائب التعصب والتفريق المذهبي.»

وفي العدد الثاني عشر من السنة الأولى لمجلة «الإخاء» (آذار/مارس ١٩٢٥)، يترجم قبعين عن الروسية مقالاً بعنوان «تهذيب الأخلاق في المدرسة».

وينتشر مثل هذه الموضوعات في مجلدات «الإخاء»، وفيها أيضاً مقالات، مثل «مدارس فلسطين» (مجلد سنة ١٩٢٨، ص ٤٧٦)، و«التربية والتعليم في شرق الأردن» (مجلد السنة الثامنة، العدد ٢، ١٩٣١، ص ١٧٠).

ثالثاً: تأليف الكتب الدراسية

أمّا هذا الميدان فقد نشط فيه الخريجون العاملون في ميدان التربية والتعليم، عندما كانت الضرورة ملحة لذلك، وشبكات المدارس كانت في مراحل نموها الأولى.

كان معلّمو السِّمِنار القدوة الأولى في ذلك، فإسكندر كزما يؤلف عدداً من الكتب لتعليم الدين، وجبران ميخائيل فوتيه معلّم اللغة العربية يؤلف كتابين: الأول بعنوان «السائغ الصرف في علمي النحو والصرف»، والثاني بعنوان «البسط الشافي في علمي العروض والقوافي»، كما ألّف كتاب «الطرف الشهية في تحصيل القواعد الصرفية».

ويؤلف الأستاذان أنطون بلان وقسطندي قنازع كتاب «الدروس الأولية في علم الجغرافيا». ويترجم الخريجون، بالتعاون، عن اللغة الروسية كتاباً في علم الحساب بعنوان «السلسلة الذهبية في المسائل الحسابية». ويؤلف فيما بعد خليل بيدس عدداً من الكتب التدريسية، ومنها، على سبيل المثال: «الكسور الدارجة» (١٨٩٨)؛ «الكسور العشرية» (١٨٩٨)؛ «الدول الإسلامية» (١٩١٢)؛ «درجات الحساب» (جزآن، ١٩١٣)؛ «درجات القراءة» (في سبعة أجزاء،[٨] ١٩١٣ - ١٩٢١)؛ «مختار البيان والتبيين» (بالاشتراك مع شريف النشاشيبي، ١٩٢٤)؛ «الكافي في الصرف» (١٩٢٥)؛ «العرب: أبطالهم وأشهر حوادثهم» (١٩٤٢).

والمرحوم أمين جرجورة، وهو من خريجي السِّمِنار، وكان رئيساً لبلدية الناصرة، أصدر كتاباً في تعليم القراءة للمدرسة الابتدائية، في مطلع الخمسينيات، كان يدرَّس في مدارسنا إلى عهد قريب.

من هذا العرض الموجز يمكن أن نرى دور خريجي السِّمِنار في مسيرة الحركة التعليمية في البلد، التي هي الأساس لكل المسيرة الثقافية والأدبية. وقد توزع هذا الأثر على ميادين التعليم المباشر، وتنظير التربية، وإعداد الكتب التدريسية.

الهوامش

(١) من معلومات استقيتها من مقابلات شخصية في بيت جالا.

(٢) أسمى طوبي، «عبير ومجد» (بيروت، ١٩٦٦)، ص ٥٠.

(٣) نُشرت هذه المحاضرة في كل من جريدة «الكرمل» و«الزهور» و«مرآة الشرق». وقد ضُمنت في: وليد خليف وسهير دياب، «أوراق من الماضي ورسائل منسية» (الناصرة، ١٩٩٤)، ص ٤٣ - ٥٠.

(٤) خليل بيدس، «العقد الثمين في تربية البنين» (بعبدا، ١٨٩٨)، ص ٣.

(٥) يعتمد بيدس في صفحة ٥٦ على رأي المهذب فريبل، وفي صفحة ٦٨ يشير إلى رأي فريبل وبستالوزي، وفي صفحة ١٣٥ يقتبس من يركمان شاتريان، ويدرج اسم المؤلف والكتاب بالفرنسية في الهامش. أمّا الإشارات التوراتية والتراثية العربية فتملأ الكتاب.

(٦) مجلة «الإخاء»، عدد أيار/مايو ١٩٢٨، ص ١٢٩.

(٧) المصدر نفسه، العدد ١، نيسان/أبريل ١٩٢٤، ص ٣٠.

(٨) بحسب يعقوب العودات في: «من أعلام الفكر والأدب في فلسطين» (القدس، ط ٣، ١٩٩٢)، ص ٧٠، وقد ذكر عرفان أبو حمد الهواري، في: «أعلام من أرض السلام» (حيفا، ١٩٧٩)، ص ١٥٢، أن الكتاب في ستة أجزاء.

الصّحافة

يُدْهَش مَنْ يتعقب النشاط الصحافي الذي قام به خريجو السِّمِنار الروسي في الناصرة، والذي امتد من فلسطين إلى مصر وإلى أميركا الشمالية وأميركا الجنوبية.

ففي حيفا، أصدر خليل بيدس مجلة «النفائس العصرية»، ثم انتقل معها إلى القدس. وكانت أهم مجلة ثقافية أدبية في ذلك الحين. وفي مصر أصدر سليم قبعين كثيراً من الصحف، إلاّ إن مجلته «الإخاء» احتلت مقاماً مهماً، وأدت دوراً خاصاً في مسيرة الحركة الثقافية.

أمّا في الولايات المتحدة الأميركية فأنشأ عبد المسيح حداد صحيفة «السائح» التي تبنت نشاط الرابطة القلمية بعد مجلة «الفنون» التي أنشأها هناك نسيب عريضة.

وفي أميركا الجنوبية أصدر نفر من هؤلاء الخريجين عدداً من الصحف في الأرجنتين، منها: «كوردوبا»، و«الجالية»، و«الأفكار»، و«النسر».

ولعل ما كتبه جاد ورور، ابن الناصرة وخريج السِّمِنار، في افتتاحية عدد السنة الثانية (١٩٢٤) من صحيفة «كوردوبا»، يكشف عن نظرة هؤلاء الخريجين إلى الصحافة ودورها، إذ قال:

«لقد أدركت الأمم الراقية ما للصحافة النبيلة الراقية من الأيادي البيضاء في سبيل رقيّها ونجاحها وفقهت الشعوب الحية ما للمجلات الشريفة القويمة من المآثر الغراء للصعود بها في معارج عظمتها وسؤددها. وعلمت بالاختبار أنها بمقالاتها التي تنشرها على صفحاتها تنير الجاهل وتذكّر العالم وتقوّم الملتوي وتثبت القويم وتصلح ما فسد من الآداب وتبشر بإنجيل الوطنية فأقبلت عليها إقبال الظمآن على الماء الزلال واستقت من مائها السلسبيل.. وناصرتها أوفر مناصرة حتى أضحت تعدّ في هذه الأيام مقياساً لرقي الأمم وتحسب نموذجاً محسوساً لأخلاقها وعظمتها ومجدها وسمّوها.»

أمّا في العدد السادس الممتاز (١٩٢٧) فيقول شبلي ناصر رزق:

«.. وهذا العدد ليس كبيراً بمواده بل بالروح التي تتجلى فيه، روح الميل إلى ترقية الصحافة العربية التي نتوخاها في عملنا وروح النهضة الأدبية.»

وبمثل هذه الروح من الإيمان بأهمية الصحافة ودورها في النهضة الثقافية والاجتماعية كتب خليل بيدس وسليم قبعين وآخرون.

أولاً: مجلة «النفائس العصرية»

لنبدأ بهذه المجلة التي أصدرها الأستاذ خليل بيدس (١٨٧٤ - ١٩٤٩) في حيفا في العامين الأولين، ثم في القدس منذ بداية العام الثالث (١٩١١).

صدرت «النفائس» في تشرين الثاني/نوفمبر ١٩٠٨، في حيفا مرتين في الشهر. وتصدرت بالتعريف: «مجلة فكاهية أدبية»، والمقصود بالفكاهة الروايات والقصص.[١] وحين يلخص خليل بيدس العام الأول من مجلته، يشير إلى الانتشار الواسع الذي حظيت به، والذي لم يكن يتوقعه، ويقرر أن المجلة في عامها الثاني ستصبح شهرية، مشدداً على التوسع في المادة الروائية والقصصية فيقول: «غير أننا تذرُّعاً إلى التوسع في المباحث العصرية قد عزمنا على إصدار المجلة مرة واحدة في الشهر مع زيادة في عدد صفحاتها وتكثير المواضيع الفكاهية التي سيكون لها المجال الأكبر فيها وسنختارها كلها مما يعذب وروده على الأسماع ولا يثقل على الطباع.»[٢]

وفي مطلع العام الثاني يرسم بيدس خطة المجلة فيقول: «أمّا المواضيع التي ستتضمنها المجلة في سنتها التالية فهي كما يأتي: الروايات - ينشر منها في كل جزء رواية أو أكثر من الروايات الصغيرة التي تبدأ وتختم في نفس الجزء. ورواية كبيرة متسلسلة في جميع الأجزاء، وستكون كلها من أحسن ما كتب في هذا الموضوع فكاهة وأدباً وفائدة.»[٣]

أمّا الموضوعات الأُخرى فهي المقالات من مباحث أدبية وتهذيبية وعلمية، والمنشورات التي تحتوي على المُلَح والطرف والنوادر والأخبار العلمية والفنية والمطالعات.

ولا شك في أن لهذا التشديد على الرواية والقصة القصيرة أهمية كبيرة بالنسبة إلى دور المجلة ومساهمتها في مسيرة النهضة الأدبية، الأمر الذي سأتناوله فيما بعد.

كان بيدس يدرك أهمية الأدب الروائي، وهو يرى أن «الروايات من أقوى الكتابات فعلاً بالنفوس وأشدها تأثيراً في القلوب وأعظمها نفعاً أو ضراً. . ونحن مستعدون أن ننشر لكل كاتب فاضل ما تجود به قريحته من أمثال هذه الروايات

المفيدة سواء كانت تأليفاً أو تعريباً لأننا نريد أن يكون لمجلتنا مزية خاصة بهذا النوع من الكتابات.»[٤]

وهكذا، فإن خليل بيدس ينطلق عن وعي واضح، ويريد لمجلته تميزاً بالأدب الروائي والقصصي. وهو يقوم بذلك بمثابرة دائبة، يترجم الروايات الطويلة ويلحقها بأعداد مجلته، فيصدر «شقاء الملوك»، و«أهوال الاستبداد»، و«هنري الثامن»، و«حنة كارنين»، بينما تصدر له ترجمات لقصص قصيرة، وتتخلل قصص قصيرة من تأليفه مختلف الأعداد.

وقد لاقت «النفائس العصرية» رواجاً كبيراً في فلسطين والعالم العربي والمهاجر الأميركية وأستراليا. ويمكن أن نلمس ذلك من زاوية «الهدايا» في كل عدد، إذ كان كثيرون من القراء يهدون أصدقاءهم وأقاربهم اشتراكاً سنوياً في المجلة، فنرى عناوين المُهدين والمُهدى إليهم. وقد أشار خليل بيدس إلى مدى رواج المجلة في افتتاحية السنة الثالثة (الجزء الأول، كانون الثاني/يناير ١٩١١)، إذ يقول:

«نالت هذه المجلة في عامها الثاني من الحظوى [كذا] في أعين قرائها ما استنفد جميع نسخها واضطرنا إلى إعادة طبع الأجزاء الأربعة الأولى منها. وقد نفدت أيضاً واضطرنا الأمر إلى إقفال باب الاشتراك منذ الجزء التاسع على أن نعود فنطبعها طبعة ثالثة.»

ولا شك في أن هذه ظاهرة فريدة في نوعها في تاريخ الصحافة الأدبية العربية، ولا أعلم إذا كان لها مثيل.

ومما يؤكد منزلة «النفائس العصرية» وسعة انتشارها وتقدير الأدباء لها ما أورده إسعاف النشاشيبي في مقدمته لسلسلة «أمثال أبي تمام»، التي نشرها متتابعة في تلك المجلة، إذ قال: «وقد آثرت نشرها في هذه المجلة البليغة النابهة الذكر لانتشارها الباهر في القطرين الفلسطيني والسوري ولميل أدبائهما إليها جدّ الميل.»[٥]

ويروي يعقوب يهوشع أنه اجتمع بخليل بيدس في داره في يوم ١٩٣٣/٨/٩، وسمع منه «عن مجلته التي عاشت إبان العهد العثماني والبريطاني.. قال إن عدد المشتركين في مجلة 'النفائس' جاوز الألف وثماني مئة. فهم في فلسطين وفي البلاد العربية المجاورة وفي بلاد المهجر»[٦] (وكان للمجلة وكلاء في بعض دول أميركا اللاتينية).

وقد اجتذبت المجلة كثيراً من الأقلام المعروفة، والأقلام الفتية. فكثرت مساهمات الباحث عبد الله مخلص، والأديب المعروف إسعاف النشاشيبي الذي نشر

أكثر من قصيدة وبحث، ثم والى نشر «أمثال أبي تمام» في حلقات متوالية. ونشر الشاعر إسكندر الخوري الشعر والقصة القصيرة، والشاعر بولس شحاده، وحليم دموس، والأستاذ أنطون بلان، أستاذ الروسية في السِّمِنار، والى نشر ترجمة القصص والحكايات عن الروسية، والقس أسعد منصور. وقد وجد فيها خريجو السِّمِنار أيضاً منبراً ينشرون فيه ترجمات عن الروسية، ومن هؤلاء: فارس نقولا مدور، وعبده أبو جمرة، وإبراهيم جابر، وفضيل بشارة النمر، ولطف الله خوري صراف. كما ساهمت الفتيات، من خريجات السِّمِنار في بيت جالا، في الترجمة والكتابة، فنقرأ لِـ: كلثوم نصر عودة، وسلمى النصر من الناصرة، ونتاليا جبرائيل الخوري، والمعلمة مريم شاورية.

ويكتب في «النفائس» آخرون ممن اطلعوا على كل من الثقافة الفرنسية والإنكليزية والألمانية، فتجد قصصاً مترجمة عن هذه اللغات في مختلف أعداد المجلة.

ويكتب خليل بيدس، علاوة على القصص القصيرة المترجمة والموضوعة والرواية المترجمة، دراسات أدبية. فهناك دراسة عن تولستوي تمتد على ثلاثة أجزاء، وأُخرى عن بوشكين، ومقالات عن شيلر وشكسبير وعن آخرين من أعلام الأدب العالمي.

وقد شكا بيدس في مجلته أكثر من مرة أن بعض المجلات في العالم العربي ينقل عن مجلته مقالات وقصائد من دون الإشارة إلى مصدر تلك المواد.

توقفت «النفائس» في إبان الحرب العالمية الأولى، كما توقف كثير من المجالات والجرائد، وعادت إلى الصدور في تموز/يوليو ١٩١٩، كمجلة أسبوعية، ثم صدرت مرتين في الشهر مدة عامين. وقد توقفت مدة ستة أشهر، من آذار/مارس ١٩٢٠ إلى أيلول/سبتمبر من تلك السنة، حينما كان بيدس سجيناً سياسياً في عكا.

ويمكن إجمال الملاحظات التالية في تقدير «النفائس العصرية»:

أ) كانت أول مجلة أدبية تظهر في فلسطين، بل ظلت أبرز مجلة أدبية ظهرت فيها، فاكتسبت شهرة عربية عامة، واجتذبت الأقلام من سورية ولبنان والعراق والمهجر، علاوة على الأقلام الفلسطينية التي وجدت فيها منبراً تلتقي فيه فتتفتح فيها قرائحها وتكتسب نضجاً.

ب) إن سعيها للامتياز بنشر الأدب الروائي والقصصي المترجم والموضوع، كانت له أهميته في التشديد على نشوء ونمو الآداب النثرية - الروائية،

كروافد مهمة في النهضة الأدبية الحديثة. وقد كانت المجلة الرحم الذي ولدت منه القصة القصيرة الموضوعة - في قصص بيدس، وقصص إسكندر الخوري البيتجالي، والرواية الموضوعة - فقد انتقل بيدس من جعل الرواية المترجمة ملحقاً إلى وضع رواية «الوارث»، التي بدأ نشرها مسلسلة سنة ١٩١٩.[٧]

ج) فتحت نافذة على الأدب العالمي والثقافة العالمية. ففي أعدادها ترجمات عن الروسية والتركية والألمانية والفرنسية والإنكليزية، ساهم فيها خريجو مختلف المعاهد، الذين وجدوا فيها ميداناً لعرض ثمار تلك الثقافات. ويبرز اللون القصصي في تلك الترجمات، علاوة على الأبحاث والدراسات الأدبية العامة. وبذلك ساهمت في المعركة العامة للحاق بركب الحضارة، وتحرر الفكر، والانفتاح على التلاقح الثقافي.

وفي الوقت نفسه، عرفت المجلة كيف تلائم بين التراث والمسيرة الحضارية، فهي تفتح صدرها لنشر متلاحق لكتاب إسعاف النشاشيبي «أمثال أبي تمام»، إذ يختار من شعر حبيب بن أوس الطائي، ويشرح ويعلّق ويحوم في رياض التراث الأدبي. كذلك تتناثر فيها صفحات من التاريخ العربي والتراث الحضاري القديم إلى جانب التعريف بمظاهر الحضارة الغربية وثمارها.

ثانياً: مجلة «الإخاء»

أنشأها في القاهرة سليم قبعين. صدر العدد الأول في نيسان/أبريل ١٩٢٤، وتوالى صدورها أكثر من تسعة أعوام.

ولسليم قبعين (١٨٧٠ - ١٩٥١)، الذي كان اضطر إلى الهجرة إلى مصر سنة ١٨٩٧ بسبب انضمامه إلى الحركة العربية المناوئة للعثمانيين، تجربة واسعة في ميداني الترجمة والصحافة. فقد أصدر قبل «الإخاء» ما يلي:

- «الأسبوع»،[٨] جريدة، صدر العدد الأول منها في أيار/مايو ١٩٠٠.
- «عروس النيل»،[٩] مجلة، صدر العدد الأول منها في ١ آب/أغسطس ١٩٠٣.
- «النيل»،[١٠] جريدة، صدر العدد الأول منها في ٢٠ كانون الأول/ديسمبر ١٩٠٣.
- سلسلة الروايات الشهيرة.[١١]

أمّا «الإخاء» فقد تصدّرها التعريف: «مجلة علمية تاريخية أدبية روائية مصوّرة.»

وفي افتتاحية العدد الأول عرض لخطة المجلة ثم التأكيد التالي: «أمّا ميزة هذه المجلة على إخواتها فإنها فضلاً عما سبق ستكون الوحيدة التي ستترجم عن اللسان الروسي أهم ما اشتملت عليه الصحف والمجلات الروسية خاصاً بالشرق والغرب.»[١٢]

ويعرّف سليم قبعين بنفسه أنه «صديق تولستوي.»[١٣] وقد ترجم له كثيراً من الروايات والقصص القصيرة.

وقد ارتبط قبعين بفلسطين ارتباطاً وثيقاً. فكان في كل عدد يفرد باباً لأخبار فلسطين، مؤكداً ما يلي: «صاحب هذه المجلة فلسطيني صميم يحب بلاده ويعمل لرفع مستواها واطراد نجاحها ورفع الغبن عنها بقدر ما يصل إليه مجهوده.»[١٤] وكان في كل صيف يسافر إلى فلسطين والأقطار المجاورة. ويكتب أخبار جولته، ويعرّف قراء مجلته بأنباء هذه البلاد. ويقرن اهتمامه الفلسطيني باهتمام آخر هو الشؤون الأورثوذكسية التي كان يرعاها في مجلته. وحين عقد المؤتمر العربي الأورثوذكسي الأول في حيفا، في ١٥ تموز/يوليو ١٩٢٣، حضره قبعين مندوباً عن فلسطينيي مصر.[١٥]

وقد انتشرت «الإخاء» في مصر وفلسطين انتشاراً واسعاً. ومن الكتّاب الذين شاركوا فيها مشاركة نشيطة: كامل الكيلاني؛ الشاعر أحمد زكي أبو شادي؛ الشاعر العراقي جميل صدقي الزهاوي؛ الباحث أحمد الشايب. وقام قبعين بمقابلة طه حسين ليسأله رأيه في شؤون الأدب. وبعث طه حسين بمقالات إلى «الإخاء».

ونجد في مجلدات «الإخاء» مشاركات نشيطة لعدد من أدباء فلسطين، وخصوصاً خريجي المعاهد الروسية. فخليل بيدس يكتب قصصاً قصيرة، وتبعث كلثوم عودة فاسيليفا، مدرّسة اللغة العربية في جامعة لينينغراد، ببعض المقالات، كما يكتب فيها توفيق جبرائيل كزما، مدرّس اللغة العربية في الجامعة الأوكرانية، وكذلك فضيل النمر، المربي وابن الناصرة، ونعمه الصباغ، الشاعر والمربي من الناصرة، وجريس الحاج، الأستاذ وابن الناصرة.

ونجد مشاركة نشيطة للكاتبة أسمى رزق طوبي، الناصرية الأصل، العكية بعد زواجها. فهي تبعث بعدد من القصص المترجمة عن الإنكليزية. ونقرأ في «الإخاء» أيضاً لـ: الشاعر جميل لبيب الخوري، من كفر ياسيف؛ حنا جميعان، من القدس؛ صليبا الجوزي، من القدس؛ الكاتب عمر الصالح البرغوثي، من القدس؛ وآخرين.

وينشط قبعين في التعريف بالأدب الروسي والاستشراق الروسي. فهناك مقالات عن تولستوي وغوغول ومكسيم غوركي وبوشكين، وتعريف واسع بالمستشرق كرمسكي، وبالمستشرق كراتشكوفسكي.

كما تفتح المجلة النوافذ على الآداب العالمية الأُخرى، فهناك تعريف بأناتول فرانس وطاغور ودانتي وآخرين.

اهتمت «الإخاء» بالمعركة الثقافية التي كانت تدور آنذاك بين الداعين إلى الاعتصام بالتراث الأدبي العربي القديم، وبين الآخذين بسبل التجديد والتفاعل الثقافي الحضاري.

اتخذت هذه المعركة شكل الحوار على صفحات المجلات، والمناظرات الأدبية الخطابية. ولعل أبرز المناظرات في هذا الموضوع تلك التي جرت في الجامعة المصرية في ربيع سنة ١٩٢١ بين محمد حسين هيكل والشاعر خليل مطران عن: «هل الأدب العربي قديمه وحديثه يكفي لتمكين الأديب.» وكان موقف هيكل يدعو إلى «الاطلاع على كل ما أنتجته العقول الكبيرة للقيام بتبليغ رسالة الأديب.» بينما وقف مطران في الطرف الآخر زاعماً أن الأدب العربي يكفي وحده لتكوين الأديب. وقد شارك الأديب الفلسطيني إسعاف النشاشيبي في النقاش مؤيداً موقف هيكل، واشترك آخرون في المناقشة، وساهم حافظ إبراهيم بشعره في بضعة أبيات، ثم جرى التصويت بين الحضور فظهر أن الآخذين برأي هيكل كانوا ١٨٤ صوتاً، والآخذين برأي مطران ٢١٤ صوتاً.(١٦)

وهكذا نرى أن موقف جمهور المثقفين في هذه المناظرة كان رجعياً، غير مشجع على الاطلاع على التراث الثقافي العالمي. أمّا «الإخاء» فكان موقفها واضحاً، ومشاركتها في الحوار فعّالة. ففي العدد الأول من السنة الخامسة تنشر مقالاً بعنوان «الأدب العربي والثقافة الحديثة»، للباحث أحمد الشايب وتقدم له بشُكْر الكاتب على «هذه الطرفة النفيسة التي خصّها بها لما احتوته من الآراء السديدة والحجج الدامغة التي نرجو أن تفحم القائلين بالاعتصام بكل شيء قديم.»(١٧)

أمّا أحمد الشايب فيقدّر دور صاحب «الإخاء» في الدعوة إلى التجديد بالكلمات التالية: «لعل العالم العربي الذي تخدم ثقافته هو القادر على أن يستقل بشكرك الواجب لك، أمّا نحن الأفراد فما أعجزنا عن تقديرك، إلاّ إذا قويت أرواحنا على تمثيل روح هذا المجتمع الذي يدين لك بكل جميل، ويعرف لك شتى الأيادي في تثقيفه بصحيفتك العتيدة.»(١٨)

تدعو «الإخاء» إلى محاربة الجمود بجرأة وتعقل. وفي تقديم لبحث كان ألقاه طه حسين في مؤتمر المستشرقين، بعنوان: «ضمائر الشخص الغائب وطريقة استعمالها في القرآن الكريم كأسماء إشارة»، تقول المجلة: «ولقد امتاز أدباؤنا والباحثون عندنا بالجمود، حتى اندفع فريق آخر يناوئهم فينقض كلامهم ويرى عكس آرائهم، متهوراً لا يصطنع أناة ولا تحدوه روية، فصار خطره علينا لا يقل عن خطر أعدائه وأعدائنا الجامدين، أولئك مسرفون في تفريطهم وجرأتهم داعون إلى الفوضى وهؤلاء مسرفون في تمسكهم بالقشور دون اللباب والأعراض دون الجوهر.

«ولكن هناك، لحسن الحظ، فئة ثالثة من أحرار المفكرين المتزني العقول، درسوا الأدب ودرسوا إلى جانبه الحياة، فعرفوا ما يتطلبه عصرنا الحاضر من مقتضيات البلاغة ودرسوا مناهج البحث دراسة مستفيضة منتجة، وعلى رأس هذه الفئة، التي يعلق عليها الشرق كل آماله، الأستاذ الدكتور طه حسين، حاملاً لواء الزعامة.»(١٩)

وهكذا كان لمجلة «الإخاء» موقف واضح في معركة التجديد، وقد التف حولها عدد من الأدباء المجددين، ورصدت الحوار الفكري والمناظرات الثقافية التي كانت تقام في الجامعة المصرية والأندية المتعددة، فعرضت وجهات النظر، واتخذت منها موقفاً.

يمكن إجمال دور مجلة «الإخاء» فيما يلي:

أ) استطاعت أن تكون منبراً للأدباء في مصر وفلسطين في المعركة ضد الجمود، وفي الدعوة إلى الانطلاق الثقافي المستنير. كما أنها، بما كانت تنشره من المواد المترجمة، والتعريف بالحضارة الأدبية والعلمية في الغرب، كانت تساهم عملياً في معركة التقدم.

ب) على الرغم من صدورها في مصر حافظت دائماً على صلتها بفلسطين، بما أفردته من أبواب شهرية لأحداثها وأخبارها، بفضل وجود شبكة من الوكلاء في مختلف المدن تزود المجلة بالمواد، وبفضل الجولة السنوية الصيفية التي كان يقوم بها قبعين في فلسطين. لذلك استطاع أن يجتذب الأقلام الفلسطينية وينشر لها إلى جانب الأقلام المصرية والعراقية وغيرها.

ج) كان على سليم قبعين أن يحسن المناورة إذ كان يصدر مجلته في القاهرة التي كانت تعج بالمجلات المتنوعة، فأكد امتياز المجلة بنشر المواد المترجمة عن الروسية. لكن يبدو أنه استطاع المحافظة على مسيرتها وتطورها وازدهارها عدة

أعوام بفضل عدد من الأمور الأُخرى، أهمها:

١ - اجتذابه، إلى موقفه المبدئي من التجديد، عدداً من الأدباء المجددين في مصر الذين اتخذوا من المجلة منبراً، أمثال أحمد الشايب، وكامل الكيلاني، وأحمد زكي أبو شادي، وأنصار دعوة طه حسين.

٢ - صلته بفلسطين، إذ وجدت لها سوقاً رائجة في هذا البلد، فكان لها كثيرون من المشتركين، وكان فيها كثيرون من المساهمين في الكتابة.

٣ - تفرده بمناقشة والبحث في شؤون الطائفة الأورثوذكسية في فلسطين وسورية ومصر. وبذلك كانت المجلة منبراً لقضيتها التي ارتبطت في بعض مراحلها بالمعركة الوطنية.

* * *

ننتقل إلى دور خريجي السِّمِنار في الصحافة العربية في المهجر، وفي المعركة للتجديد ضد الجمود والتحجر، فنجد:

ثالثاً: صحيفة «السائح»

أنشأها عبد المسيح حداد (١٨٩٠ - ١٩٦٣). صدرت في نيويورك سنة ١٩١٢، واستمرت في الصدور إلى أواخر سنة ١٩٥٧.[٢٠]

وقد برز اسم «السائح» في تاريخ الأدب العربي الحديث مقترناً بالرابطة القلمية. فبعد أن توقفت مجلة «الفنون» التفّت الرابطة حول جريدة «السائح». وكما يقول عيسى الناعوري: «ومنها جعلت تهب على الأدب العربي نفحات من الرسالة الروحية والاجتماعية السامية، وهينمات من الأدب الإنساني الجميل تندى به الأرواح والقلوب.»[٢١]

ولا يزال عدد «السائح» الممتاز الذي صدر سنة ١٩٢٧ من المراجع المهمة عن «الرابطة القلمية».

رابعاً: مجلة «الفنون»

أنشأها الشاعر نسيب عريضة (١٨٨٧ - ١٩٤٦)، في نيويورك سنة ١٩١٣، وصدرت منها عشرة أعداد ثم توقفت، ثم عادت إلى الصدور سنة ١٩١٦، حتى توقفت سنة ١٩١٨.

ويشير الناعوري إلى الحافز الذي حدا نسيب عريضة على أن يصدر مجلته فيقول: «وكان في نفسه نزوع إلى خلق أدب جديد يكون زاداً صالحاً للأجيال العربية الناهضة. وهذه الفكرة الطموح قد بدأت تراوده منذ أن كان على مقاعد مدرسة الناصرة، حيث بدأ ينظم الشعر، واستمر ينظمه في ديار هجرته فيما بعد. هناك بدأ نسيب يشعر بما يعانيه الأدب العربي من جمود، وما فيه من تقليد وابتذال، فلم يرضَ عن ذلك كله، وبدأت تنشأ في نفسه نزعة التجديد. وقد كان لهذه النزعة التجديدية في الأدب أن عزم على إنشاء مجلة تنشر فكرته وتطلع العالم العربي على أقباس من هذا النور الجديد. فأنشأ مجلة 'الفنون' في سنة ١٩١٣، وتطوع جبران والريحاني ونعيمه لتقديم المساعدة الأدبية الممكنة له، فكان لا يصدر عدد من 'الفنون' إلاّ وفيه مقالات لهؤلاء الثلاثة، ولعدد آخر من المؤمنين بمذهبهم الأدبي الجديد والمتحمسين له.»[٢٢]

وقد أعرب ميخائيل نعيمه عن شعوره عندما رأى مجلة «الفنون» بقوله: «ههنا حروف تنبض حياة. والعجب أنها حروف عربية. وعهدي بالحروف العربية أن عناكب الجمود والتقليد والنفاق والفاقة الفكرية والروحية قد نسجت فوقها أكفاناً، وأن غبار خمسة قرون قد تكدس على تلك الأكفان.»[٢٣]

لم أشأ أن أتوسع في عرض دور كل من «السائح» و«الفنون»، فهناك دراسات موسعة عن الأدب المهجري تحدثت عن هذا الدور، لكن أردتُ أن ألفت النظر إلى أن نصف أعضاء الرابطة القلمية هو من خريجي السِّمِنار في الناصرة. فهم خمسة من مجموع الأعضاء البالغ عددهم عشرة، وهم: ميخائيل نعيمه؛ نسيب عريضة؛ عبد المسيح حداد؛ رشيد أيوب؛ ندرة حداد[٢٤] (اثنان من بسكنتا، وثلاثة من حمص).

ومن الجدير بالملاحظة أن هذه الصحف المهجرية اجتذبت أقلام الزملاء من الناصرة، فنعمه الصباغ ينشر في «الفنون»، والأستاذ أنطون بلان، معلم الروسية في السِّمِنار، يبعث من الناصرة بترجمته لرواية «في سبيل الحب» كي تنشر بالتتابع في «السائح».

إن دور الرابطة القلمية في النهضة الأدبية الحديثة غني عن التعريف. وحينما نربط أطراف الخيوط، ونرى الدور الذي قام به خليل بيدس في فلسطين، وسليم قبعين في القاهرة، وميخائيل نعيمه وعبد المسيح حداد ونسيب عريضة وزملاؤهم في المهجر، نلاحظ أن مساهمة خريجي السِّمِنار في المعركة ضد الجمود، وفي سبيل التجديد الخصب المدرك لمسيرة الحضارة، كانت كبيرة جداً.

خامساً: صحف ومجلات أُخرى

علاوة على تلك المجلات التي عمّرت، وأدت دوراً مهماً في النهضة الأدبية الحديثة، هناك مجلات وصحف أقل أهمية أصدرها خريجون من هذا المعهد، منها:

- صحيفة **«كوردوبا»** التي أصدرها في الأرجنتين في مطلع القرن العشرين شبلي رزق، ابن الناصرة، ورأس تحريرها صديقه جاد ورور، وساهم في الكتابة فيها نعمه الصباغ (١٩٠٢) وغيره من خريجي السِّمِنار.
- صحيفة **«الجالية»** التي أصدرها شبلي رزق في الأرجنتين. وبعد أن كان إبراهيم جابر، وهو من خريجي السِّمِنار أيضاً، يحررها فترة ثلاثة أعوام أصبح مالكها سنة ١٩١٣.[٢٥]
- صحيفة **«الأفكار»** التي أنشأها الدكتور سعيد أبو جمرة في ساو باولو سنة ١٩٠٣.[٢٦]
- مجلة **«النسر»** التي أصدرها سمعان حاماتي[٢٧] في توكومان، من أعمال الأرجنتين.
- ثم النشاط الصحافي الذي عُرف به إيليا زكّا، وهو أيضاً من خريجي السِّمِنار، فقد تحوّل إليه امتياز **صحيفة «النفير»**، بعد أخيه إبراهيم، بعد إعادة العمل بالدستور العثماني، فصدرت في القدس، ثم تنقلت بين يافا والقدس وحيفا. ثم توقفت عن الصدور خلال الحرب العالمية الأولى. وبعدها عادت إلى الصدور اعتباراً من أيلول/سبتمبر ١٩١٩، وتابع تحريرها، بعد وفاته سنة ١٩٢٦، ابناه سهيل وزكي زكّا.
- وقد أصدر إيليا زكّا **مجلة «حيفا»** في تشرين الأول/أكتوبر ١٩٢٤. وكانت تنطق باسم العمال، وظلت تصدر عاماً كاملاً.[٢٨]

يقول يعقوب يهوشع: «ومن الجدير بالذكر أن إيلي زكّا فتح المجال أمام المواهب الشابة للكتابة في جريدته، وكان خاصة يكثر من نشر ما يكتبه طلاب وطالبات معاهد المعلمين العليا الروسية، التي كانت في البلاد قبل الحرب العالمية الأولى، في بيت جالا والناصرة.»[٢٩]

الهوامش

(١) يقول الدكتور ناصر الدين الأسد: «ويبدو أن 'الفكاهات' كانت تعني حينئذ 'الروايات'، ولذلك كانت بعض المجلات التي تصدر في تلك الحقبة تفرد للقصة باباً وتسميه باب الفكاهات...

الأرجح - في رأينا - أن كلمة ‹الفكاهة› تنصب على الشكل والأسلوب لا على المضمون، أي أن المقصود بها هو الأسلوب القصصي الذي يمتع ويُسلّي ويغري القارئ بمتابعة القراءة دون ملل.» أنظر: ناصر الدين الأسد، «محاضرات عن خليل بيدس، رائد القصة العربية الحديثة في فلسطين» (القاهرة، ١٩٦٣)، ص ٣١، ٤٩. وعن اقتران اسم القصة بالفكاهة، أنظر: عبد المحسن طه بدر، «تطور الرواية العربية الحديثة» (القاهرة، ط ٢، ١٩٦٨)، ص ١٢١، ١٢٢. ولعل ما يؤكد أن «الفكاهة» تعني القصة هو تسمية خليل بيدس لمجموعته القصصية التي أصدرها سنة ١٩٢٤ «ديوان الفكاهة»، وهو قصص قصيرة جلّها مترجم. والفكاهة هنا هي أقرب إلى ما يعبّر عنه الإنكليز بكلمة Entertainment.

(٢) «النفائس العصرية»، الجزآن ٢٨ و٢٩، تشرين الأول/أكتوبر ١٩٠٩، ص ٩٥٩.

(٣) المصدر نفسه، تشرين الثاني/نوفمبر ١٩٠٩.

(٤) المصدر نفسه، الجزء ٩، السنة الثالثة، أيلول/سبتمبر ١٩١١.

(٥) المصدر نفسه، الجزء ٣، السنة الرابعة، آذار/مارس ١٩١٢، ص ١١٠.

(٦) يعقوب يهوشع، «تاريخ الصحافة العربية الفلسطينية في بداية عهد الانتداب البريطاني على فلسطين، ١٩١٩ - ١٩٢٩» (حيفا، ١٩٨١)، ص ٢٨٥.

(٧) نشرت مسلسلة في مجلد سنة ١٩١٩ من «النفائس العصرية»، ص ١٨١ وما يليها، ٢٠٦ - ٢٠٩، ٢٤٦ - ٢٥٠، ٢٥٨ - ٢٦٤، ٢٧٤ - ٢٨٠، ٢٩٠ - ٢٩٥. وفي ختام هذه الحلقة يقول: «تتمة هذه الرواية سنرسلها إلى حضرات المشتركين في ملحق خاص قريباً إن شاء الله.»

(٨) ورد في باب «التقريظ والانتقاد» في مجلة «الهلال» (الجزآن ١٧ و١٨، السنة الثامنة، ١٥ حزيران/يونيو ١٩٠٠) تعريف بجريدة «الأسبوع» جاء فيه: «هي في ثماني صفحات مزدوجة مزيّنة بالرسوم الجميلة مع إتقان الطبع، خطتها عثمانية أورثوذكسية تتحرى كل ما يعود بالفائدة على العثمانيين ويؤول إلى رفع شأن الطائفة الأورثوذكسية. ويتولى إدارة ‹الأسبوع› حضرة البارع سليم أفندي قبعين.» ثم يعرض الكاتب محتويات العدد الخامس من تلك الجريدة.

(٩) ورد في التعريف بها في مجلة «الهلال» (عدد تشرين الأول/أكتوبر ١٩٠٣) ما يلي: «وهي مجلة أدبية اجتماعية عمومية تصدر في القاهرة مرتين في الشهر لمنشئها سليم أفندي قبعين.. وفي الجزء الأول، رواية أدبية مترجمة عن الروسية اسمها ‹البعث› من تأليف تولستوي تصدر فيه تباعاً. ويمتاز قبعين أفندي عن سائر كتّاب الصحف بمصر بمعرفته اللغة الروسية فنرجو أن ينفع القراء بما ينقله منها إلى لسانه ونرجو لمجلته الثبات والإقبال.»

(١٠) ورد في التعريف بها في مجلة «الهلال» (الجزء ١٠، السنة ١٢، شباط/فبراير ١٩٠٤) ما يلي: «جريدة سياسية انتقادية مصورة تصدر في مصر مرة في الأسبوع لصاحبيها محمد أفندي غانم وسليم أفندي قبعين.»

أمّا في مجلة «الجامعة»، لصاحبها فرح أنطون، والصادرة في الإسكندرية، فكان التعريف بها كما يلي: «هي جريدة فكاهية لصاحبيها حضرات محمد أفندي غانم وسليم قبعين وتصدر كل أسبوع مرة فنرجو لها النجاح.» الجزء ٦، السنة الرابعة، ١٩٠٣، ص ٣٥٠.

(١١) في التعريف بهذه السلسلة ورد في مجلة «الهلال» (آذار/مارس ١٩١١) ما يلي: «هي سلسلة روايات يصدرها أحمد أفندي رفعت وسليم أفندي قبعين، صدرت الرواية الأولى منها واسمها

〈العالم العاشق〉، تأليف اللورد ليتون، وتعريب رفعت أفندي. تصدر في أجزاء.» إن اتساع تعامل قبعين مع النشر والصحافة جعله يقدم على إنشاء مطبعة عادت عليه بالخسائر. وفي رسالة بعث بها إلى كراتشكوفسكي بتاريخ ١٠/١/١٩١٤ يقول: «ولكنني أقدمت على الأمر دون رويّة وفكر وأنشأت المشروع بدون رأس مال كبير يضمن حياته فما هي إلاّ أيام معدودة حتى وقعت في عسر مالي.» أنظر: عمر محاميد وآنا دولينينا، «الاستشراق الروسي» (أم الفحم، ١٩٩٨)، ص ٢٤.

(١٢) كتب قبعين في رسالة إلى كراتشكوفسكي بتاريخ ٣٠ آذار/مارس ١٩٢٨: «ما زلت أنشر مجلتي بانتظام في مواعيدها، وقد بدأنا من هذا العدد السنة الخامسة وما زلت أستقي وأستمد مواردها من اللغة الروسية، وكنت مشتركاً بعدة مجلات روسية تصدر في ريغا ولكن كلها احتجبت عن الظهور وصارت المواد عندي ضعيفة هذه الأيام.»
ويؤكد دور مجلته في التعريف بالثقافة الروسية قائلاً: «ويسرني أني افتتحت العدد الأول من السنة الخامسة بمقالة عن الأكاديمية الروسية لينينغراد ترجمتها عن 〈ختشوفسوزنات〉.» أنظر: محاميد ودولينينا، مصدر سبق ذكره، ص ٢٥.

(١٣) مجلة «الإخاء»، مجلد سنة ١٩٢٩، ص ١٤٦.

(١٤) المصدر نفسه، المجلد ٣، سنة ١٩٢٦، ص ٦٧٨.

(١٥) شحاده ونقولا خوري، «خلاصة تاريخ كنيسة أورشليم الأرثوذكسية» (القدس، ١٩٢٥)، ص ٣٣١.

(١٦) راجع الوقائع مفصلة في: «الإخاء»، المجلد ٥، سنة ١٩٢٨، ص ١٨٢ - ١٨٥.

(١٧) المصدر نفسه، ص ٦.

(١٨) المصدر نفسه.

(١٩) المصدر نفسه، ص ٥٩٥.

(٢٠) عيسى الناعوري، «أدب المهجر» (القاهرة، ط ٢، ١٩٦٧)، ص ٤٣٣.

(٢١) المصدر نفسه، ص ٤٢٩.

(٢٢) المصدر نفسه، ص ٤١١.

(٢٣) ميخائيل نعيمه، «سبعون»، في: «المجموعة الكاملة لمؤلفات ميخائيل نعيمه» (بيروت، ١٩٧٢)، المجلد ٢، ص ٢٧.

(٢٤) يوسف داغر، «صفحة مجهولة من تاريخ التعليم في سوريا ولبنان وفلسطين، الجمعية الإمبراطورية الفلسطينية الروسية»، مجلة «الأديب»، العددان ١ و٢، كانون الثاني/يناير - شباط/فبراير ١٩٨٠، ص ١٦. يشير داغر إلى كون رشيد أيوب وندرة حداد من خريجي هذا المعهد، إلاّ إنني أعتقد أنهما من خريجي المعاهد الروسية الابتدائية.

(٢٥) الناعوري، مصدر سبق ذكره، ص ٤١١.

(٢٦) أنظر: مجلة «الهلال»، عدد آذار/مارس ١٩٠٤.

(٢٧) من مؤلفاته: «المنتخب من كنوز العرب» الصادر سنة ١٩٢٢.

(٢٨) يهوشع، مصدر سبق ذكره، ص ٤٠٥.

(٢٩) المصدر نفسه، ص ٥٢.

الـترجـمَة

كان للترجمة دور خطر في النهضة الحديثة، على الصعيدين الاجتماعي والأدبي. فهي التي فتحت النوافذ على الآفاق العلمية والحضارية والثقافية في المجتمعات المتطورة في الغرب. ولا يقتصر أثرها على مجرد التعرف والاطلاع، بل يتعداهما إلى الاقتباس والتفاعل، الأمر الذي يؤدي إلى عملية تغيّر جارفة يمتد أثرها إلى شتى المجالات.

وقد التفت باحثون كثيرون إلى أثر ترجمة الأدب الروائي في مسيرة النهضة الأدبية الحديثة، ولعلي أشير بإيجاز شديد إلى أبرز الملامح التي أشاروا إليها فيما يلي:

(أ) التعريف بالأدب الروائي

سواء كان منه الرواية الطويلة أو القصة القصيرة. يقول الدكتور عفيف دمشقية: «وأمّا الأدب القصصي المعرّب، فدوره في النهضة الأدبية أهم وأبلغ، لا سيما وأنه وقف جمهور المتعلمين من الناطقين بالعربية على نوع جديد من الأدب لم يكونوا قد عرفوه، وشجع الكتّاب العرب على احتذائه وتقليده، وأهاب بالأدباء أن يبحثوا عن وسائل التعبير الكفيلة بنقل هذا الفن الجديد.»[١]

ويلتفت الدكتور م. بيلد إلى زاوية مهمة في هذا المجال، فيذكر أن مناهج التدريس في أغلب المدارس العربية ظلت إلى عهد قريب لا تعرّف الطالب بفنون الكتابة الروائية والمسرحية. «ولهذا فلم يكن أمام الشاب العربي أي شيء آخر لتدريبه إلاّ هذه الأعمال المترجمة التي كان يلتقطها ويقرأها دون إرشاد وبطريقة لا تستند على نظام ما.»[٢]

(ب) الأثر في تطور أساليب التعبير الفني

كان للصحافة دورها المهم في تطويع اللغة وأساليبها لتتنفس الهواء اليومي. أمّا الرواية فاجتمعت فيها عوامل متعددة من التعبير، فمن السرد إلى الحوار إلى الوصف

والحركة.. إلخ.

يقول البروفسور س. سوميخ: «إن الوظيفة التي أداها المترجم في توليف أنماط جديدة في الأدب العربي تدعونا، بل تضطرنا، أن ننظر إلى الأدب المترجم كعنصر مهم وحيوي في النظام العام للأدب العربي الحديث، لا كفعالية ثانوية أو هامشية. كما أننا لا نستطيع أن نتابع تطور الأساليب الجديدة وظهورها في القصة دون أن ننظر إلى ما حدث في مجال الترجمة الأدبية.»[٣]

(ج) المساهمة في عملية تغيير كيفية في مسيرة الأدب العربي الحديث

فقد حملت الترجمة الأدبية لوناً أدبياً جديداً فيه قيم ومعايير تتحدى المعايير والقيم السائدة، سواء على صعيد الأخلاق، أو على صعيد أساليب التعبير، والذوق الأدبي عامة. وقد أعرب التقليديون عن تخوفهم «من أن هجمة الأدب الغربي سوف تؤدي بالأدب العربي التقليدي إلى النسيان»، ومن هنا كانت المعارضة «لفرض زيّ أجنبي على الأدب العربي.»[٤] وكان للمترجمين الأوائل دور مهم في إدراك كيفية تقديم هذا الأدب إلى القارئ العربي «بتكييف الأعمال الأصلية لتلائم الأذواق الأدبية السائدة»، كما يقول بيلد، «بل إن للترجمة بتصرّف، التي تميز بها المترجمون الأوائل، أو ما اتهموا به من 'خيانة النص'، ميزة إيجابية في حينه أفلحت في تهيئة المناخ للأدب الوافد، وأن الذي سهل التبدل التدريجي في الذوق الأدبي كان بالتأكيد خيانة المترجمين للنص، متجهين بذلك صوب النتيجة التي كان يخشاها التقليديون. ويمكن وصف هذه النتيجة بالعمل على تنزيل مكانة الأدب العربي التقليدي إلى مرتبة الآداب الكلاسيكية القديمة، التي تدرس الآن في الغالب لأغراض تاريخية أو لغوية. وفي بحر أقل من مئة سنة، افتراضاً بين ١٨٥٠ - ١٩٤٠، قد استبدل أدب ثلاثة عشر قرناً كلية بنوع جديد من الأدب، والذي هو في الحقيقة الأدب الذي يُكتب ويُستمتع به الآن في أكثر الأقطار العربية.»

إن مقال بيلد عن «الترجمة الخلاقة» ذو أهمية خاصة في تسليط أضواء جديدة على الترجمة عامة، وعلى الترجمة بتصرف التي امتازت بها أعمال المترجمين الرواد الذين كان منهم عدد من خريجي السِّمِنار، بما قدموه من الأدب الروسي، أو الأدب العالمي الذي ترجموه عن الروسية.

إن رؤية هذه الترجمات في إطارها الصحيح، وتقدير دورها التاريخي، واعتبارها «ترجمة خلاقة»، كلها أمور تعتبر مساهمة قيّمة في رد الاعتبار إلى جهود أولئك الرواد، ولذلك سأتيح لنفسي أن أتبسط بعض الشيء في تقديم أبرز الآراء والحجج التي وردت بهذا الشأن، مما له صلة بهذه الدراسة.

يشير بيلد، في البداية، إلى فترتين شهد فيهما المجتمع العربي «استيراداً واسعاً للثقافة الأجنبية عن طريق الترجمة من لغات أُخرى.» كانت الفترة الأولى منذ القرن الثامن حتى القرن العاشر، أمّا الفترة الحديثة فهي القرن التاسع عشر والقرن العشرون. ويلاحِظ «أن عصر الترجمة الحديثة لم يقتصر على الأعمال الأجنبية العلمية والفلسفية التي كانت تستقطب جلّ اهتمام المترجمين الكلاسيكيين بل والأدب القصصي أيضاً.»[٥]

وإذا كانت ترجمة الموضوعات العلمية مقبولة، ولا تثير كثيراً من الجدل، فإن ترجمة الأدب القصصي تحمل في طياتها تحدياً لنظام القيم في المجتمع العربي، فأثارت لدى بعض المفكرين شعوراً بـ «عدم الارتياح والشك».

ويقسم أنور الجندي[٦] مراحل الترجمة الحديثة إلى ثلاث:

الأولى، «المرحلة الثقافية البحتة التي تعد نفيسة وجليلة». أمّا المرحلة الثانية فهي «المرحلة المنحرفة التي ساد فيها الاتجاه نحو إرضاء القراء عن طريق ترجمة القصص المثيرة.»[٧] ولم يكن اختيار القصص في هذه المرحلة رديئاً فحسب، بالنسبة إلى الجندي، «بل كان قد طرأ فساد ظاهر في نوعية الترجمة أيضاً.» «وتتميز المرحلة الثالثة بعودة أسلوب جدّي، شبيه بالذي اتبعه مترجمو المرحلة الأولى سواء في اختيار المادة المُراد تعريبها أو نوعية عملهم.»

ويشير بيلد إلى أنه «ظهر عند حوالي الجزء الأخير من القرن التاسع عشر خلاف جوهري في المجتمع العربي حول أهلية الأدب الأجنبي وصلاحيته. ففي الوقت الذي استنكرت فيه الأوساط الأدبية العربية الراقية ذلك الأدب كان القراء العرب قد استقبلوه بإقبال وتلذذ ظاهرين.»

إلاّ إن أهم الإنارات في هذا المقال هو ما يختص بالتصرف في الترجمة. فقد عرفت هذه الظاهرة في الترجمة إلى العربية في أواخر القرن التاسع عشر ومطلع القرن العشرين سواء في الروايات القصصية، أو في الروايات المسرحية. وفي كثير من الأحيان لم تفهم تلك الظاهرة على حقيقتها،[٨] إذ إن «من أشد الانتقادات الموجهة من قبل أولئك الذين رغبوا عن عمل المترجمين هو أن ترجماتهم أظهرت خيانة

سافرة للنص المترجم منه. واتخذ هذا برهاناً على أن المترجمين كانوا قاصرين في اللغات التي كانوا يترجمون عنها.»[٩]

وقد أثبت بيلد أن التصرف في الترجمة أمر معروف في ثقافات الشعوب الأُخرى، حينما يكون هناك بَوْن زمني أو ثقافي. وأورد ملاحظة غوته (Goethe) «المبنية على الأساليب الأوروبية في الترجمة، بأنه في المرحلة المبكرة من عملية التفاعل بين الثقافات لا يمكن للتراث المقتبِس أن يتقبل الأدب الدخيل ما لم يكن الأخير مكسواً بزي محلي يخفي ميزاته الأجنبية ولا يمكن تقديم الأدب الأجنبي وتقبله إلاّ في مرحلة متأخرة. وفي المرحلة الأولى يمكن تقبل عمل مترجَم، بدلاً من الآخر (Anstatt des undern). وعندما تبلغ الترجمة مرحلة يسعى فيها المترجم إلى تحقيق صورة كاملة للنص الأصلي، فعندئذ يقتل العمل المترجَم ليحل محل العمل الأصلي.»[١٠]

«وقد أوضح جورج مونان (George Maunin) في كتابه 'الحسناوات الخائنات' (*Les Belles Infidèles*) بأنه في تاريخ الترجمة الفرنسية من اللغات الكلاسيكية [اليونانية والرومانية] عندما كان على المترجم أن يتجنب الالتزام الدقيق بالنص الأصلي فإن السبب في ذلك كان عادة لفائدة ثقافية أوسع.»[١١]

لذلك فإن التصرف في الترجمة كان ضرورة في تلك المراحل الأولى من الانفتاح الثقافي. «فقد كان من الممكن بالتأكيد تجنب تقديم الأدب القصصي الغربي إلى القارئ العربي دون تلاعب به. إلاّ إن الصدمة التي كان سيخلفها عمل مترجم بصورة متقنة على القارئ العادي على مدار القرن كان شأنها أن تكوّن لديه نفوراً إلى حد يجعله يحكم على الكتاب لفترة طويلة في المستقبل. وأن الذي سهل التبدل التدريجي في الذوق الأدبي كان بالتأكيد خيانة المترجمين للنص.»[١٢]

ولذلك فإن عمل المترجمين في تلك المراحل الأولى لم يقتصر على مجرد إطلاع القارئ على الأدب الأجنبي، بل كان أيضاً يقتضي براعة في معرفة كيفية تقديم ذلك الأدب لاجتياز التباين الثقافي. «ومن أجل تمكين القراء من التمتع بالأدب المقدم إليهم، فقد كان على المترجمين تكييف الأعمال الأصلية لتلائم الذوق الأدبي السائد، والذي كان في الحقيقة متجاوباً تماماً لصيغ جديدة من الأدب، ولكن مقيداً في نفس الوقت بنظام دقيق من التقاليد التي كانت تقرر حدود قابليتها للتصورات الجديدة.»[١٣]

ولا بد من أن يكون المترجم مدركاً لأذواق القراء الجمالية، واعتباراتهم

القيمية، ليحسن التعامل مع تكيف الترجمة والتصرف فيها.

وقد التفت الدكتور محمد غنيمي هلال إلى هذا الدور الذي أداه المترجمون المتصرفون في تقريب القصص الأجنبية المنقولة من ذوق معاصريهم، في الطور الثاني[١٤] من ميلاد الأدب القصصي العربي في عصرنا الحديث، إذ أخذ الوعي الفني يستمد مجالات الفن القصصي من «موردها الناضج في الآداب الأُخرى.» ويؤكد أن هذا الطور بدأ «بدءاً طبيعياً بتعريب موضوعات القصص الغربية وتكييفها لتطابق الميول الشعبية، أو لتساير وعي جمهور المثقفين. وطبيعي - والحالة هذه - ألاّ يحفل المعرّب أو الكاتب العربي بدقة الترجمة أو مطابقة الأصل، إذ لم يكن للترجمة الأمينة قيمة آنذاك، بل كان شأنها أن تباعد بين القصص المنقولة ومتذوقيها من المعاصرين. فكان الكاتب يخلق الموضوع من جديد، مستهدياً الأصل الأجنبي في مجموعه، لا في تفاصيله، مُستَبيحاً تغيير ما يشاء، حتى أسماء الشخصيات والأماكن، وإضافة ما يشاء، ليغيّر مجال الأحداث.»[١٥]

في ضوء ذلك يزداد تقديرنا لدور هؤلاء المترجمين في مسيرة النهضة الأدبية الحديثة، بعد أن كان كثيرون ينظرون، في أيامنا، إلى تلك الترجمات نظرة لا تحمل كثيراً من التقدير.

لقد ترسخ في كثيرين من طلاب السِّمِنار وخريجيه حب الأدب الروسي، بل إن منهم من تمكّن من اللغة الروسية والاطلاع على آدابها بشكل استثار إعجاب المستشرق كراتشكوفسكي، عندما زار القرى اللبنانية حيث المدارس الروسية، فقال: «التقيت معلمين يتكلمون اللغة الروسية بمزيد من الطلاقة، فدهشت كيف تمكنوا منها بهذا الشكل وهم لم يغادروا بلدهم. وإذا لم يكونوا كلهم يتكلمون الروسية باليسر نفسه، فإنهم كلهم يعرفون وينسخون مجلة 'نيفا'، ويمكنك أن ترى في غرفة كل واحد منهم مجلدات تورغنيف أو تشيخوف، بل آخر كراسات 'زنانيا' الخضر الصادرة مؤخراً، وفي بعض الأحيان تجد أدباً من الممنوع في روسيا نفسها.»[١٦]

ويحدثنا ميخائيل نعيمه عن مطالعاته الروسية التي: «لم تلبث أن أثارت إعجابي بالأدب الروسي، وحسرتي على الأدب العربي بالنسبة إليه، فقد تكشف لي فقرنا الفاضح إلى أدب ينبع من الحياة وأدباء لا يتلهون بالقشور عن اللباب. ومن بعد أن كنت أحسد الكثير من أدبائنا وشعرائنا المعروفين في ذلك الزمان وأتمنى لو أكون كواحد منهم، بتّ أخجل بهم وأتمنى لو أستطيع أن أكتب كما يكتب هؤلاء الروس.»[١٧]

أبدى خليل بيدس إعجابه بالأدب الروسي بقوله: «لم تكن لغة روسيا فحسب قريبة من قلبي. وما كدت أتعلم الكتابة... حتى كنت ألتهم الكتب الروسية التي كان كثير منها متوفراً في مكتبة المدرسة. ومع كل كتاب كنت أقرأه كان يتبدد رويداً الضباب الذي كان يغطي معرفتي بروسيا، والشيء الذي كان في بادئ الأمر كلمة، أصبح أولاً بلداً، ثم فكرة، وأخيراً عالماً - العالم الوحيد الذي كان في وسعي أن أعيش وأتنفس فيه.»(١٨)

هذا الإعجاب جعل بيدس وسليم قبعين وكثيرين آخرين يقبلون على ترجمة هذا الأدب إلى اللغة العربية.

وكان إقبالهم على الترجمة الأدبية صادراً عن وعي بأهمية الرسالة التي يؤدونها. فيقول بيدس: «ولا يخفى أن الفن الروائي في الغرب طافح بالحسنات، وقد سبقنا الغربُ بذلك مراحل كثيرة، ففيه من الروائيين المتفننين مئات وألوف، وهم أساتذة الفن بلا جدال. فإذا نقلنا عنهم، أو نزعنا إلى أسلوبهم، فإنما نزيد آدابنا ثروة وجمالاً، ونزيد كتّابنا أسلوباً واطلاعاً وفناً. ولكن لنراقب الله في كل ما ننقل أو نؤلّف، ولنسر بالفن الروائي إلى الأمام، إلى الكمال، ولا نقدم إلى الأمة إلاّ أفضل ما يقدم من هذا الغذاء الروحي الطيب.»(١٩)

ويبدأ بيدس، في رؤيته، بالقيم الخلقية والاجتماعية، ولذلك يؤكد وجود نوعين من الروايات، من خلال هذا المنظار، فيقول: «وقد أحسن كثيرون باختيار أحاسن روايات نوابغ الإفرنج، ونقلها إلى العربية أحكم نقل وقد أجادوا وأفادوا، بقدر ما أساء غيرهم بنقل الروايات الركيكة السخيفة التي تقذف بقرائها في مهاوي الضلال والشر وسائر ضروب المعايب والنقائض.»(٢٠)

لذلك يختار بيدس رواياته التي يترجمها من هذا المنطلق. بل إنه يعنى عناية خاصة بالروايات التي تُعرّي الاستبداد وتؤكد قوة الشعب و«تمثل بأسلوب شائق حالة الملوك ونسبتهم إلى الرعية وواجباتهم نحوها، ونسبة الرعية إليهم وحقوقها عليهم، وما يتصل بذلك من شؤون الملك وأحوال رجال الدولة والبلاط وقوة الشعب.»(٢١)

كذلك كان اختيار بيدس ترجمة رواية «أهوال الاستبداد» لألكسي تولستوي «فإنها تمثل للقارئ فظاعة الاستبداد والمستبدين وعاقبة الجور والعسف والظلم، وغير ذلك من الفظائع والكبائر التي تعافها الإنسانية وتنفر منها القلوب السليمة. أمّا اسمها [الرواية] الحقيقي الذي عرفت به في روسيا وأوروبا فهو 'كنياز سيريبرياني' أو 'الأمير سيريبرياني' وهو الأمير 'نيكيتا' أحد أبطالها بل بطلها الأكبر.»(٢٢)

أمّا تكييف الروايات المترجمة لتلائم أذواق القراء، أي التصرف في الترجمة، فيمكن أن نلاحظ فيه السمات التالية:

أ) التصرّف بزيادة بعض المواد التي تعتبر ضرورية لتقريب جو أحداث القصة ومواقعها من القراء، كما فعل بيدس في «أهوال الاستبداد»، إذ يقول في المقدمة: «ولقد تصرّفت في تعريبها بزيادة وإسقاط وتغيير وإبدال وتبويب لتكون ملائمة للذوق الشرقي، فزدت مثلاً فصلاً عن مدينة 'موسكو' وفصلاً آخر عن ملوك الروس، وغيره في تاريخ الملك يوحنا الرابع أحد أبطال الرواية، إلى غير ذلك من الشرح والوصف الذي لا بد منه لتعريف القارئ العربي بأحوال الأمة الروسية في أكثر أدوارها. ولم أغيّر فيها الأعلام لأنها حقيقة.»(٢٣)

فنحن هنا أمام عملية كبيرة من التحرير في الترجمة تتوخى أن تجد الصيغة الملائمة لتجاوب القارئ العربي. ويضيف بيدس في هامش الفصل الخامس(٢٤) من هذه الرواية الملاحظة التالية: «إذا رأى القراء في هذا الفصل وفي فصول أُخرى من هذه الرواية شيئاً من الأوهام والخرافات فلا يضربوا بها عرض الحائط بحجة أنها تقلل من شرف الرواية وتحط من شأنها. ونحن إذا حاولنا تجريد الرواية من هذه الأوهام، لأن فيها شيئاً فاسداً، كنا كمن يشوه جمال الحوادث التاريخية المتسلسلة فيها، لأن مؤلفها إنما قصد بإيرادها بيان ما كان عليه الروسيون في ذلك العصر من الجهل والغباوة. ولا ريب أن تلك الرؤى والأباطيل كانت محترمة عندهم وشائعة في بلادهم، ليس بين السوقة فقط بل وبين الملوك والأمراء أيضاً، كما يتضح ذلك من سياق الرواية.»(٢٥)

ولعل التصرف في ترجمة هذه الرواية بلغ أقصى الحدود، بينما يشير بيدس إلى أن تعريبه لرواية «هنري الثامن وزوجته السادسة» كان «ببعض التصرّف».(٢٦)

أمّا ترجمة بيدس لرواية «الحسناء المتنكرة»، للكاتب الإيطالي إميل سلغاري، فهي عملية اختصار وتلخيص. وقد أوضح ذلك حينما قال: «لمّا كانت الرواية موضوعة في كتاب كبير يشتمل على (٢٦٣) صفحة، لم نر بدّاً أثناء تعريبها من مخالفة الأصل، والإيجاز الكثير في أماكن كثيرة منها، لكي لا يمل القارئ، ولا تزيد الرواية عن الفراغ المعين لها في المجلة»(٢٧) (فجاءت الترجمة في ٨٨ صفحة).

هذه، إذاً، ثلاثة أنواع من التصرف الذي يتراوح بين التحرير الذي يشمل الحذف والإضافة وتغيير التبويب، وبين الاختصار، وبين بعض التصرف.

ب) في مجال الأسلوب: حاول بيدس، كما حاول آخرون، تقديم الترجمة

بأسلوب فيه من سمات ما كان تعوّده ذوق القارئ العربي في ذلك الحين. ومعروف أن الاستشهاد بالشعر كان من الملامح المألوفة، سواء في حكايات «ألف ليلة وليلة»، أو «سيرة عنترة»، وما شابهها، أو في المقالات والمعالجات الأدبية والصحافية المتنوعة التي عرفت مع مطلع النهضة الأدبية الحديثة. لذلك نجد مثل هذا التعامل مع الشعر في ترجمات بيدس مثلاً، وخصوصاً في «أحوال الاستبداد»، فالأمير نيكيتا يقول في حالة من الانفعال:

«واويلاه، إن في قلبي أيتها الحبيبة هاتفاً ينذرني بسوء المصير وتعاسة المغبة:

أؤمّلُ وصلاً من حبيبٍ وإنني ... على ثقة عمّا قليلٍ أُفارقُهْ
تجارى بنا خيل الحِمامِ كأنما ... يسابقني نحو الرَّدَى وأسابقُهْ
فياليتنا متنا صغاراً فلم يذقْ ... مرارةَ فَقْدِي، لا، ولا أنا ذائقُهْ»[٢٨]

وفي موقف آخر يرد الأمير أثناسي على الطحان بقوله:

«أنى لي أن أعود إلى رشدي وقد شرد مني العقل؟ فبالله إلاّ ما علّلتني بالمعونة والشفاء وتسرية هذا الشقاء،

ألا موت يباع فأشتريهِ ... فهذا العيش ما لا خير فيهِ»[٢٩]

وفي موقع آخر يقول الأمير للطحان:

«فآه من الحب ما أحلاه وما أمرّه:

لا يعرف الشوق إلاّ من يكابده ... ولا الصبابة إلاّ من يعانيها»[٣٠]

وكذلك حينما تطلب أولغا من هيلانة أن تنشدها أغنية سمعتها منها:

ولم يسع أولغا إلاّ الإذعان فاندفعت بما تعريبه:

«ألا ما لنفسي والسرور، وأشجاني ... تزيد، ودهري في هوى الهمّ ألقاني»

وتمضي الأغنية في عشرة أبيات،[٣١] ثم تنشدها بعد قليل أغنية أُخرى، في تسعة أبيات.

وحين نتأمل عملية الصوغ الأسلوبي للترجمة نلاحظ أن المترجم حاول أن يحتفظ بإيقاع إنشائي بليغ فيه ظلال جَرْس السجع: «فبه لا بغيره الشفاء من هذا الداء، وبه تسرية هذا الشقاء»، حين يكون الموقف وجدانياً متأملاً. أمّا في معرض

السرد فيخف الإيقاع متجاوباً مع الموقف: «في أواخر ذلك الليل، وقد ساد السكون، كان رجل في نحو الثامنة والعشرين من العمر يسير وهو على صهوة جواده إلى جهة الطاحون سيراً حثيثاً، ولمّا انتهى إليها ترجّل وبادر إلى الباب فقرعه بعنف وصاح: 'إليّ أيها الطحّان بالعَجَل'.»

فاللغة يسيرة العبارة، تتشكل في جمل قصيرة اقتصادية، وبيدس حريص على أن يحافظ على مستوى من الإنشاء جميل وحيوي في الوقت نفسه.

وفي عرض للصحف التي أنشأها خريجو السِّمِنار، رأينا دورهم في ترجمة القصص القصيرة والدراسات الأدبية التي نشروها في تلك الصحف. لكن، أود أن أشير هنا إلى جهودهم في ميدان ترجمة الرواية الطويلة (بصورة رئيسية).

لا شك في أن اثنين من هؤلاء الخريجين يبرزان بصورة خاصة في هذا المضمار بغزارة الترجمة، هما خليل بيدس وسليم قبعين، بينما نجد أن لبعض الخريجين الآخرين ترجمات قد لا تتعدى الكتاب أو الاثنين.

وهكذا نجد بين آثار خليل بيدس الترجمات الروائية التالية:

١) «ابنة القبطان»، للشاعر الروسي بوشكين، صدرت في بيروت سنة ١٨٩٨.

٢) «القوزاقي الولهان»، صدرت في بيروت سنة ١٨٩٨.

٣) «الطبيب الحاذق»، طبعت في بيروت سنة ١٨٩٨. وكان خليل بيدس آنذاك مديراً للمدرسة الروسية في بسكنتا.

٤) «شقاء الملوك»، رواية للكاتبة الإنكليزية ماري كورلي، نقلتها إلى الروسية ز. جورافسكايا. ونشر ترجمتها بيدس مسلسلة في مجلته «النفائس العصرية» بدءاً بالعدد الثاني سنة ١٩٠٨، وصدرت مستقلة سنة ١٩٠٩، ثم في طبعة ثانية، فيما بعد، سنة ١٩٢٢.

٥) «أهوال الاستبداد»، تأليف ألكسي تولستوي، وطبعت في المطبعة الوطنية في حيفا سنة ١٩٠٩، ثم في طبعة ثانية في القاهرة سنة ١٩٢٧، وفي طبعة ثالثة في بيروت (لا تاريخ).

٦) «الحسناء المتنكرة»، (عن الروسية) للكاتب الإيطالي إميل سلغاري. وقد صدرت مسلسلة ملحقة بالمجلد الثالث من «النفائس العصرية» سنة ١٩١١، وطبعت طبعة ثانية سنة ١٩٢٥.

٧) «هنري الثامن وزوجته السادسة»، تأليف الكاتبة الألمانية ف. ملباخ. وقد طبعت في القدس سنة ١٩١٢، ثم في طبعة ثانية سنة ١٩٢١.

٨) «العرش والحب»، مترجمة عن الروسية، طبعت في القدس سنة ١٩١٤، وطبعة ثانية سنة ١٩٢١.

٩) «حنة كارنين» لتولستوي.

هذا علاوة على الكثير من القصص القصيرة والدراسات المترجمة عن اللغة الروسية.[٣٢]

وقد أشار خليل بيدس إلى نشاطه في ميدان الترجمة فقال: «كذلك قمت بترجمة الروايات من الأدب الروسي، ترجمت من روايات تولستوي، تشيخوف، دوستويفسكي، تورغنيف، بوشكين، وغيرهم.»[٣٣]

يقول حسام الخطيب: «ويعد خليل بيدس رائد الترجمة الطويلة من الروسية إلى العربية بل رائد الترجمة الفلسطينية، وقد استهل هذه المرحلة استهلالة قوية عام ١٨٩٨ بترجمة ثلاث روايات عن الروسية هي: 'ابنة القبطان' لبوشكين (بيروت - مطابع المنار)، و'الطبيب الحاذق'، و'القوزاقي الولهان'، وقد نشرت الأخيرة مسلسلة في جريدة 'لبنان' (١٨٩٨).

«وهكذا أطل القرن العشرون على فلسطين وقد تهيأت أسباب موضوعية لنشوء حركة ترجمة قوية ذات سمات متميزة.»[٣٤]

ويباري بيدس في ميدان الترجمة عن الروسية زميله الناصري، سليم قبعين، صاحب مجلة «الإخاء». ومن آثاره المترجمة ما يلي:

١ - «الوفاق والطلاق»، وهي رواية تولستوي «سوناتا كرويتسر». وكان نشرها في مصر سنة ١٩٠٣ (وكانت صدرت في السنة نفسها ترجمة أُخرى لهذه الرواية نشرها رفول سعادة في البرازيل، مسلسلة في جريدة «المناظر»).

٢ - «البعث»، تأليف ل. تولستوي. وقد نشرها مسلسلة في مجلته «النيل» التي أصدرها سنة ١٩٠٣ (بشأن مجلة «النيل»، أنظر: الهامش ١٠ في قسم الصحافة أعلاه).

٣ - «إنجيل تولستوي وديانته»، نشرها في مصر سنة ١٩٠٤.

٤ - «حِكَم النبي محمد وشيء عن الإسلام في أوروبا»، لتولستوي، القاهرة، ١٩١٣.

٥ - «مذهب تولستوي»، مصر، ١٩٠٤.

٦ - «مملكة جهنم والخمر»، للفيلسوف تولستوي، مصر، ط ٢، ١٩٢٦.

٧ - «نخب الأدب من مبتكرات مكسيم غوركي»، معرّب عن الروسية، مصر،

١٩٠٧.(٣٥)

٨ - «مصرع القيصر نقولا الثاني وأهل بيته»، معرّب عن الروسية، مصر: مطبعة العمران، ١٩٢٢.

٩ - «حقوق المرأة في الإسلام»، تأليف الكاتب الروسي أحمد أجايف. وقال قبعين في المقدمة أنه احتمل مشاق تعريبه والإنفاق على طبعه ليطّلع عليه إخوانه من مسلمي الشرق، فيعلموا أن الناشئة الإسلامية في روسيا تشكو شكوى الناشئة الإسلامية نفسها جرّاء سوء حالة المرأة المسلمة وحرج مركزها الإنساني. وصدر عن مطبعة الجمهور في مصر سنة ١٩٠٥.

١٠ - «أنشودة الحب»، وهو روايتان: «أنشودة الحب» و«ربيب بطرس الأكبر»، تعريب صاحب «الإخاء» سليم قبعين، القاهرة، ١٩٢٩.(٣٦)

١١ - «بدائع الخيال»، أو عشر قصص للفيلسوف تولستوي، عن الروسية، القاهرة، لا تاريخ.

١٢ - «قصص روسية»، القاهرة، ١٩٢٩.

١٣ - «أنشودة الحكيم»، لتورغنيف، مصر، لا تاريخ.

١٤ - «أنواع الغرام في باريس»، تأليف مارسيل ريغو، ترجمة قبعين، القاهرة، ١٩٢٩.

علاوة على ذلك هناك عشرات القصص القصيرة التي ترجمها ونشرها قبعين في مختلف أعداد «الإخاء».

وممن ساهم في الترجمة عن الروسية الأستاذ أنطون بلان، الذي بعد عودته من الدراسة في روسيا علّم اللغة الروسية في السِّمِنار. وكان من معلمي ميخائيل نعيمه الذي ذكره بمزيد من التقدير والإجلال،(٣٧) كمعلم ومربّ، وترحّم عليه رحمة خاصة في كتابه «سبعون».

وقد أصدر بلان كتابين: أولهما «النجوى»، وهو «ترجمة لعدد من القصص القصيرة، من تأليف الفيلسوف تولستوي والكتبة المجيدين تشيخوف وليسكوف ومارك توين وغيرهم.. وعدد الروايات التي فيها ٣٥»،(٣٨) وقد صدر سنة ١٩١٣. والكتاب الثاني «في سبيل الحب»، وهو «رواية تاريخية غرامية أدبية»، صدر سنة ١٩١٢.

كما نشر بلان ترجمات لاثنتي عشرة قصة ومقالة أدبية في أعداد «النفائس العصرية» ما بين سنة ١٩٠٩ وسنة ١٩٢١.

وفيما يلي الروايات المترجمة عن الروسية:

- «شهر العسل الثاني»، عرّبها لطف الله خوري صراف (الناصري)، وصدرت سنة ١٩٠٩ (نشرها سمعان حاماتي على نفقته).
- «السر المكتوم»، عرّبها عبد الكريم سمعان، وطبعها نايف حاماتي على نفقته، وصدرت سنة ١٩٠٩.
- «المعذب البريء» ترجمها الشاعر ناصر عيسى (من الرامة) وزوجته بلاجيا عيسى، وصدرت سنة ١٩١٣.

أمّا الشاعر إسكندر الخوري البيتجالي، فترجم روايات عن الروسية وعن الفرنسية وهي:

- «الفتاة الفارس»، وهي، كما يعرّفها في قائمة مؤلفاته في آخر كتابه «ذكرياتي»، رواية تاريخية غرامية يتجلى فيها الحب النبيل (عن الروسية). وهي للكاتب الروسي د. س. ديميتربيف (١٩١٦).
- «يوميات كهل»، عن الروسية، تأليف ألكسي أبوختين (١٩٧٢).
- «غبريلا الحسناء»، عن الفرنسية، تأليف أوغوست ماكيه، وهي في ثلاثة أجزاء، ظهر الجزء الأول سنة ١٩٠٨، والجزآن الثاني والثالث سنة ١٩١١.

كما ترجم الشاعر نسيب عريضة رواية عن الروسية بعنوان: «أسرار البلاط الروسي.»[٣٩]

وهناك ترجمات أُخرى عن الروسية موزعة على الصحف والمجلات. فقد نشرت صحيفة «المنار»، الصادرة في بيروت (العدد ١٤، ٩ شباط/فبراير ١٩٠٢)، رواية بعنوان «الهرب من المرأة»، ترجمها عن الروسية الأستاذ حنا خليل، أستاذ المدرسة اليونانية في الناصرة. وقد تتابعت حلقاتها في عشرة أعداد.

وبذل هؤلاء الخريجون جهداً في الترجمة من العربية إلى الروسية، وقد عثرتُ في مجلة «الهلال» (الجزء ٢٠، السنة السابعة، تموز/يوليو ١٨٩٩) على رسالة من نعمه يعقوب جرجورة، من الناصرة، من خريجي السِّمِنار، موجهة إلى محرر «الهلال» جرجي زيدان، يبلغه فيها أنه ترجم الجزء الأول من رواية «فتاة غسان» إلى الروسية، وأنه يستأذنه في ترجمة الرواية كلها، ونشرها، بل أخذ «رخصة عمومية» ليترجم أعمال زيدان المتعددة (أنظر الملحق رقم ٣، ص ١٨٢). وأشار جرجي زيدان في جوابه إلى ترجمة خليل بيدس رواية «المملوك الشارد» إلى الروسية فقال: «ومن هذا القبيل ترجمة رواية 'المملوك الشارد' إلى اللغة الروسية فقد ذكر لنا

مترجمها الأديب خليل أفندي بيدس غير مرة أنه فرغ من ترجمتها وسيباشر طبعها ولا ندري ما تم لها. على أننا لا نلوم حضرات المترجمين في ترددهم ونحن أعلم الناس بما يحول دون النشر من النفقة والمشقة التي لم يتعود أهل وطننا الإقدام عليهما. ولكننا نعتقد اعتقاداً متيناً أنهم إذا أقدموا على ذلك عادوا شاكرين.» كما أن هناك طلباً مماثلاً بالإذن في ترجمة رواية جرجي زيدان «الانقلاب العثماني» إلى الروسية. وقد ظهر ذلك في رسالة وجهها خريج السِّمِنار شكري سويدان (مؤلف «تاريخ الجمعية الإمبراطورية الأرثوذكسية الفلسطينية»، و«درر المعاني في رد الغسّاني») إلى جرجي زيدان، نشرت في مجلة «الهلال» (الجزء العاشر، السنة ١٩، تموز/يوليو ١٩١١). وقد أعطى زيدان الرخصة بذلك، شرط أن تظهر في وقت معين «وإلاّ جاز التصريح في ترجمتها إلى سواكم» (أنظر الملحق رقم ٣، ص ١٨٣).

يقول أنيس الخوري المقدسي: «إن القرن التاسع عشر كان بالنسبة لحركتنا الفكرية الحديثة عصر ترجمة، وإن هذا العصر لا يزال يمتد إلى اليوم. ولنمثل على ذلك بالقصة العربية فقد جمع أمين دار الكتب في بيروت معجماً أثبت فيه نحو عشرة آلاف قصة (بين صغيرة وكبيرة) مترجمة عن مختلف اللغات.»[٤٠] ويعرض المقدسي الترجمات عن اللغات الفرنسية والإنكليزية والألمانية، لكنه لا يتوقف عند الترجمات عن اللغات الأُخرى فيقول: «وما لا شك فيه أن هناك ترجمات أُخرى من شتى اللغات الغربية.»[٤١]

وخلاصة القول إن لخريجي السِّمِنار دوراً مهماً خاصاً في عملية الترجمة، بإقامة الصلة بالأدب الروسي، الذي كان اللون الروائي فيه بلغ قمماً شامخة عند تولستوي وتورغنيف ودوستويفسكي.

وحينما نراجع لائحة الكتب التي صدرت في فلسطين حتى الثلاثينيات، نجد أن الدور الذي قام به خريجو السِّمِنار في ترجمة الأدب الروائي كان فائقاً، وأن الروايات المترجمة عن اللغات الأُخرى لا تصل إلى نصف ما قدمه خريجو السِّمِنار.

الهوامش

(١) عفيف دمشقية، «الانفعالية والإبلاغية في بعض أقاصيص ميخائيل نعيمه» (بيروت، لا تاريخ)، ص ١٦.

(٢) متتياهو بيلد، «الترجمة الخلاقة: نحو دراسة للترجمات العربية للأدب الغربي منذ القرن التاسع

عشر»، ترجمة عمانوئيل كوركيس، مجلة «الأقلام» (بغداد)، العدد ٩، أيلول/سبتمبر ١٩٨١، ص ١١٥.

(٣) «بدايات الترجمة الأدبية في القرن التاسع عشر ومشكلة الأسلوب القصصي»، مجلة «الكرمل» (جامعة حيفا)، العدد ٣، ١٩٨٢، ص ٤٦.

(٤) بيلد، مصدر سبق ذكره، ص ١١٤.

(٥) المصدر نفسه.

(٦) أنور الجندي، «تطور الترجمة في الأدب العربي الحديث»، والإشارة إليه من خلال مقال بيلد.

(٧) التشديد للمؤلف.

(٨) حاول البعض أن يتفهم التصرّف في ترجمة الروايات المسرحية في مصر بما عرف بـ «التمصير».

(٩) بيلد، مصدر سبق ذكره.

(١٠) المصدر نفسه، ص ١٢٢.

(١١) المصدر نفسه، ص ١١٥.

(١٢) المصدر نفسه، ص ١١٤.

(١٣) المصدر نفسه، ص ١١٥.

(١٤) كان الطور الأول الاعتماد على التراث العربي القديم.

(١٥) محمد غنيمي هلال، «النقد الأدبي الحديث» (بيروت، ١٩٧٣)، ص ٥٣٥ - ٥٣٦.

(١٦) أنظر: Derek Hopwood, *The Russian Presence in Syria and Palestine, 1843-1914: Church and Politics in the Near East* (Oxford, 1969), pp. 152-153.

(١٧) ميخائيل نعيمه، «أبعد من موسكو ومن واشنطن»، في: «المجموعة الكاملة لمؤلفات ميخائيل نعيمه» (بيروت، ١٩٧٢)، المجلد ٦، ص ٦٦،

(١٨) Hopwood, op. cit., pp. 157-158.

(١٩) «مسارح الأذهان» (مصر، ١٩٢٤)، المقدمة، ص ١٥.

(٢٠) المصدر نفسه، ص ١٤.

(٢١) مقدمة ترجمة رواية «شقاء الملوك»، مجلة «النفائس العصرية»، الجزء ٢، ١٩٠٨، ص ٢٨.

(٢٢) مقدمة ترجمة رواية «أهوال الاستبداد» (بيروت، ط ٢، لا تاريخ).

(٢٣) المصدر نفسه.

(٢٤) هذا الفصل هو السادس في الطبعة الأولى. أنظر: عبد الرحمن ياغي، «حياة الأدب الفلسطيني الحديث من أول النهضة حتى النكبة» (بيروت، ١٩٦٨)، ص ٤٤٦.

(٢٥) مقدمة ترجمة رواية «أهوال الاستبداد»، مصدر سبق ذكره، ص ٢٢.

(٢٦) التمهيد لرواية «هنري الثامن وزوجته السادسة» (القدس، الطبعة الثانية، ١٩٢١)، ص ٣.

(٢٧) كلمة المعرب في ختام الترجمة في آخر المجلد الثالث من «النفائس العصرية»، سنة ١٩١١.

(٢٨) أورد هذا الاقتباس ناصر الدين الأسد، في: «محاضرات عن خليل بيدس، رائد القصة العربية الحديثة في فلسطين» (القاهرة، ١٩٦٣)، ص ٦١، نقلاً عن الطبعة الأولى لترجمة رواية «أهوال الاستبداد»، سنة ١٩٠٩، ص ٢١. لكن هذا الموقف كله لا يرد في طبعة بيروت المتأخرة.

(٢٩) أورد هذا النص الأسد نقلاً عن الطبعة الأولى لترجمة رواية «أهوال الاستبداد»، ص ٣٣ - ٣٤.

أمّا في طبعة بيروت المتأخرة فورد النص كما يلي: «وأنى أن أعود إلى رشدي وقد شرد مني العقل، وبتّ أنشد الموت كل ساعة، فبه لا بغيره الشفاء من هذا الداء وبه تسرية هذا الشقاء»، ثم يورد بيت الشعر.

(٣٠) «أهوال الاستبداد»، ط ١، ص ٣٦. أمّا في طبعة بيروت فقد حذف بيت الشعر.

(٣١) المصدر نفسه، طبعة بيروت، ص ٤٤.

(٣٢) في مقال للبروفسور آنا دولينينا، بعنوان «نيقولاي غوغول.. والأدب العربي» (نشرته صحيفة «الاتحاد»، الجمعة ١٣ نيسان/أبريل ١٩٨٤)، ذكرت أن خليل بيدس ترجم رواية «تاراس بولبا» ونشرها في صحيفة «لبنان» سنة ١٩٠٠. ويبدو أن هذه هي رواية «القوزاقي الولهان». وتشير الكاتبة إلى أن قصة «تاراس بولبا» وقصة بوشكين «ابنة الآمر» (وردت في هذه الدراسة «ابنة القبطان»)، التي ترجمها خليل بيدس أيضاً، هما «أول التراجم من الأدب الروسي تظهر في الأدب العربي.»

(٣٣) يعقوب يهوشع، «تاريخ الصحافة العربية الفلسطينية في بداية عهد الانتداب البريطاني على فلسطين، ١٩١٩ - ١٩٢٩» (حيفا، ١٩٨١)، ص ٢٨٦.

(٣٤) حسام الخطيب، «حركة الترجمة الفلسطينية من النهضة حتى أواخر القرن العشرين» (بيروت، ١٩٩٥)، ص ١٧ - ١٨.

(٣٥) ورد في التعريف به في مجلة «الهلال» (تشرين الثاني/نوفمبر ١٩٠٧) ما يلي: «هو كتاب فيه منتخبات من أقوال مكسيم غوركي الكاتب الروسي الشهير في مقاومة الاستبداد ورفع الضغط عن المطبوعات. نقله إلى العربية سليم أفندي قبعين.»

(٣٦) مجلة «الإخاء»، المجلد ٦، العدد ٦، ١٩٢٩، ص ٥٣٩.

(٣٧) ميخائيل نعيمه، «سبعون»، في: «المجموعة الكاملة لمؤلفات ميخائيل نعيمه» (بيروت، ١٩٧٢)، المجلد ١، ص ١٤٢.

(٣٨) «النفائس العصرية»، الجزء ٩، السنة الخامسة، ١٩١٣، ص ٥٦٦.

(٣٩) عيسى الناعوري، «أدب المهجر» (القاهرة، ط ٢، ١٩٦٧)، ص ٤١٤. وقد بدأ بنشرها في مجلة «الفنون» منذ العدد الأول سنة ١٩١٣.

(٤٠) أنيس المقدسي، «الاتجاهات الأدبية في العالم العربي الحديث» (بيروت، ط ٤، ١٩٦٧)، ص ٣٧٠ - ٣٧١.

(٤١) المصدر نفسه.

الإنتاج الأصيل:
القصة القصيرة والرواية

تمهيد

إذا حاولنا أن نتقصى صلة الفلسطينيين بالأدب القصصي في القرن التاسع عشر نجد الآثار التالية:

(١) في ترجمة محمد بن الشيخ أحمد التميمي، المولود في الخليل سنة ١٨٢٤، الذي تنقل بين القاهرة والآستانة، نجد ما يلي: «يعتبر التميمي أول من أبرز رواية بالعربية وقد سماها 'الدر النظيم في أم حكيم'، وطبعت بمطبعة المقتطف ١٣١٨هـ، وكان شاعراً له ديوان شعر عنوانه 'ديوان الصفا'.»[١]

ولا نجد أي إشارة إلى هذه الرواية في كتاب الدكتور عبد المحسن طه بدر «تطور الرواية العربية الحديثة». فهو يحدد دراسته منذ سنة ١٨٧٠ إلى سنة ١٩٣٨، وهذه الرواية كانت صدرت سنة ١٨٦٦. بل إنه لا يذكرها في التمهيد لدراسته. وليس لدينا أي إمكان لتقدير هذا الأثر الأدبي، لأنه ليس موجوداً في المكاتب في بلدنا، ولا يدخل في صلب بحثنا لنفتش عنه. ولم يقم الدكتور عبد الرحمن ياغي بالبحث عن هذا الأثر في المكاتب المصرية، وهو يؤرخ للأدب الفلسطيني عامة.

(٢) في ترجمة ميخائيل عورا، المولود في عكا سنة ١٨٥٥، الذي تنقل بين بيروت وباريس ومصر، وعمل في الصحافة، نجد أن له من الآثار ما يلي:

- كتاب «عجائب البخت في قصة الأحد عشر وزيراً وابن الملك أزارخت»، معرّب عن السريانية (مصر، ١٨٦٦).
- «منتهى العجب في أَكَلة الذهب»، قصة تاريخية (مطبعة البيان، ١٣٠٢هـ/ ١٨٨٥م).[٢]

وقد عثرتُ على رواية ترجمها ميخائيل عورا عن الفرنسية بعنوان «الجنون في حب مانون»،[٣] طبعت في مطبعة الأهرام في الإسكندرية، سنة ١٨٨٦. إلاّ إن الجدير بالاهتمام فيها مقدمة الكاتب بعنوان «في حقيقة تدوين فن القصص»، وهي طويلة في ١٧ صفحة، كل منها في عمودين، وتلخص نظرة الكاتب إلى الفن الروائي. فهو

يعرض تطور الفن القصصي في أوروبا، والمواقف النقدية المتعددة من ذلك الفن، تلك التي تعتبر الغايات الخلقية، وتلك التي تعتبر القيم الفنية، ويقول: «وقد وجّه إلينا سؤال في هذا الموضوع وسمعنا حجة البعض في تحريم القصص وأنها لا تليق بالفتيان المتأدبين الناشئين على التقوى والإيمان وأدب الديانة ولا تجدر بالبنات لما يترتب عليها في زعمهم من الفساد في الأخلاق وانتقاص الأدب والعفة، فلزمنا من أجل ذلك الإبانة عن أفكارنا والإجابة عما سئلنا بشأنه.»[٤]

ويبدأ عورا، في جوابه، بالإقرار بأن من الكتب ما يفسد الأخلاق حقيقة «وهي ظاهرة البذاءة ضارة غير نافعة»، ويهاجم مؤلفيها، «ولكن أين هذا من الكتب الأُخرى الموضوعة للتثقيف وتشحيذ الأذهان وإنهاض الهمم والحث على المكارم والفضائل الجامعة إلى أدب الموضوع رقةَ التعبير وجزالةَ الألفاظ والكلم ورشاقة المعاني وإلى التسلية وترويح الروح والإفادة التعليمَ أدباً وكمالاً وحشمة.»[٥]

أردتُ التوقف عند هذا النقاش لنرى المعركة التي كان على الأدب القصصي، سواء كان منه المترجَم أو الموضوع، أن يخوضها في ذلك الحين.

وفي هذه المقدمة عدد من الآراء التي تهم كل مؤرخ لمسيرة النقد الأدبي الحديث. فبعد أن يبين عورا رأيه في النقاش «هل ترجى [القصص] لشأن نافع وغاية فاضلة أم يجب أن يتوخى واضعوها الحقيقة وتقرير الواقع بصرف النظر عن النتيجة كيف كانت..»، يقدم «مطالعة تاريخية في أصل تدوين القصص منذ القديم إلى القرون المتوسطة وما بعدها» عارضاً أبرز الآثار في الأدب العالمي، إلى أن ينتقل إلى باب «فن تدوين القصص عند العرب»، ثم إلى باب «في الفرق بين العرب والإفرنج في تدوين القصص». وتشير هذه المقدمة إلى سعة اطلاع ووضوح في الموقف النقدي. ويتطرق الكاتب إلى الإنتاج الفني في عصره، فيعتبر كتاب «الساق على الساق» للشدياق من الكتب المنسوقة على طريقة القصص، من قبيل ما اصطلحوا على تسميته «أوتوبيوغرافي»، «وكذلك 'علم الدين' لعلي باشا مبارك ومماثله عند الإفرنج مؤلفات جول ورن في الأسفار.»[٦]

ويؤكد عورا في نهاية مقدمته «أن ليس الغرض من وضع القصص الحث على الفضيلة بل التشويق إليها»،[٧] متوسعاً في شرح هذا المعنى.

استطردتُ بعض الشيء هنا، لألفت النظر إلى هذه الدراسة التي تلقي أضواء على مسيرة النقد الروائي، كما تزيدنا إحساساً بالعوائق التي اعترضت مجرى الفن الروائي من حيث الاعتبارات القيمية، التي كان لها أثرها حتى في التصرف في

الترجمة.

ومنذ أواخر القرن التاسع عشر ومطلع القرن العشرين تتوالى الترجمات التي قدمها خليل بيدس وسليم قبعين وآخرون، كما فصّلنا آنفاً. حتى إذا كان العقد الثاني من القرن العشرين ظهرت طلائع إنتاج الأدب القصصي الأصيل، سواء أكان منه القصة القصيرة أم الرواية الطويلة.

أولاً: القصة القصيرة

وجدت القصة القصيرة في مجلة «النفائس العصرية» منبراً لها. وكان لبيدس منها النصيب الأوفر. وقد أصدر مجموعتين من هذه القصص في سنة واحدة، أي سنة ١٩٢٤: الأولى «ديوان الفكاهة»، ويعرّفه أنه «مجموعة روائية تشتمل على ٢٤ رواية أدبية تاريخية غرامية اجتماعية»، صدر في القدس، والثانية «مسارح الأذهان» ويعرّفها، على الغلاف، أنها «مجموعة أدبية فنية روائية في حقيقة الحياة.» وفي هذه المجموعة ٣٢ قصة و«قطعة» (كما يسمي بعضها الدكتور ناصر الدين الأسد)،[٨] ومقدمة يعرض فيها رأيه في الرواية وظهورها في الأدب العربي الحديث فيقول: «وقد ظهرت الرواية في الشرق بالصورة التي نعرفها الآن، منذ عهد غير طويل، وكان أكثر ما ظهر من هذا النوع منقولاً عن اللغات الغربية، وأقبل أدباؤنا على الترجمة إقبالاً عجيباً، ولم يتصدّ للتأليف، وخصوصاً تأليف الروايات الكبيرة، إلاّ النفر القليل. وقد أحسن كثيرون باختيار أحاسن روايات نوابغ الإفرنج، ونقلها إلى العربية أحكم نقل. وقد أجادوا وأفادوا، بقدر ما أساء غيرهم بنقل الروايات الركيكة السخيفة، التي تقذف بقرائها في مهاوي الضلال والشر وسائر ضروب المعايب والنقائص.»[٩]

ويتوقف ناصر الدين الأسد وقفة خاصة عند هذه المقدمة يحللها ويعلق عليها،[١٠] ويخلص إلى النتائج التالية:[١١]

(أ) إن بيدس يوضح توضيحاً وافياً أن القصة أدب، وأنها فن رفيع، ويدافع عنها دفاعاً قوياً «في حقبة كانت تنفي القصة من حَرَم الأدب، وتزدري شأنها وتنتقص قدرها.»

(ب) إن بيدس «يؤمن بوجوب أن تكون القصة هادفة، تؤدي رسالة اجتماعية»، ولذلك يقرر أن موضوع القصة هو «الإنسان في حياته الاجتماعية والعمرانية

والخلقية.» ولا عجب من أن يدعو كتّاب القصة إلى أن «يعاشروا العامة ويدرسوا أحوالهم ويعيشوا بينهم.»

(ج) إن بيدس «يؤمن بأن القصة أقدر فنون الأدب على تأدية رسالة الإصلاح والتهذيب.»

(د) إن «بيدس واسع الاطلاع على القصص العالمي.»

(هـ) «تتضح، في هذه المقدمة، معرفة خليل بيدس بأصول فن القصة وقواعدها وأساليبها؛ فهو حريص على أن ينص على 'فنيّة' القصة، وأنها لا بد من أن تلج أعماق النفس الإنسانية.»

وحينما نستعرض المجموعتين «ديوان الفكاهة» و«مسارح الأذهان» نجد أن فيهما إلى جانب القصة الأصيلة والحكاية، القصةَ المترجمة والمقتبسة من دون الإشارة إلى الأصل الذي ترجمت منه أو اقتبست عنه، عدا قصة «نادي سورات»[١٢] التي افتتح بها «ديوان الفكاهة» مشيراً إلى أنها «رواية فلسفية لبرنارد دي سان بيير معرّبة عن الروسية نقلاً عن الفيلسوف تولستوي»، وقصة «الملك الصغير» عن أوسكار وايلد.

وبتقصي مسرح أحداث القصص والشخصيات في «ديوان الفكاهة» نجد أن من القصص الاثنتين والعشرين الأُخرى (علاوة على الاثنتين المترجمتين)، قصتين فقط يحمل بعض الشخصيات فيهما أسماء عربية، وهما القصة الحادية عشرة، وعنوانها «سرّ السماء»، وكان الراوية هو الشيخ سعيد بن النعمان، أمّا الأحداث فتدور في إحدى ممالك الهند، والقصة الخامسة عشرة وعنوانها «البطل»، وبطلها محمد علي، وتدور أحداثها في مدينة الموصل. وقد يجمع بيدس بين الأسماء الأجنبية والعربية كما في قصة «سحر العيون»، إذ كان اسم الضابط راعول، والمرأة أنيسة، أو في قصة «اللسان الطويل»، إذ كان اسما المرأتين إميليا وعبلاء.

والواضح أن هذه القصص بأجوائها وأحداثها أجنبية، وأنها مقتبسة أو مترجمة بتصرّف.

وقد خص عبد الرحمن ياغي مجموعة «مسارح الأذهان» بتعليق مسهب،[١٣] وهو يرى أن أسلوب بيدس في القصة القصيرة يختلف عن أسلوبه في الروايات الطويلة (المقصود المترجَمة، المؤلف). فهو في القصة القصيرة «أجنح إلى التأنق الطبيعي»، ويستخدم الإطارات المتعددة للقصّ، كالإطار الأسطوري، أو التاريخي، أو الاجتماعي.. إلخ. وأنه إذا «كان في ترجماته الطويلة أقل عناية بالشكل منه بالمضمون ففي قصصه القصيرة عني بالأمرين معاً.»[١٤]

أمّا ناصر الدين الأسد فيفرد الفصل الرابع في كتابه للحديث عن «بيدس والقصة القصيرة». ويبني هذا الفصل على عرض كتاب «مسارح الأذهان»، ويحاول أن يستقصي أجواء تلك القصص وبيئاتها ليرى أهي مترجمة أم موضوعة، فيجد أن بعضها أساطير إغريقية أو فرعونية، أو أساطير عن بوذا، وبعضها الآخر يتحدث عن وقائع تجري في بلاد بعيدة، وأسماء شخصياتها أجنبية، بل إن بعضها وإن تكن أسماء شخصياتها عربية إلاّ إن فيها «ملامح لمجتمع يكاد لا ينطبق على مجتمع فلسطين في تلك الحقبة.»(١٥) ولذلك يجد الأسد نفسه «في شك من أمر تأليف بعض هذه الأقاصيص.» ثم يصنّف ما في الكتاب فيقول: «ففي المجموعة اثنتان وثلاثون قطعة: بعضها قصص قصيرة، وبعضها حكايات بسيطة، وبعضها سرد تاريخي، وبعضها صور عقلية ذهنية صيغت في قالب حوار. وبعض هذه القطع أقاصيص أو حكايات واقعية، وبعضها خرافية أو أسطورية تدور حول الآلهة أو الحيوانات: تستنطقها وتستخرج منها الحكمة وأسرار الحياة.»(١٦)

ويلاحظ الأسد أيضاً، أنه باستثناء «القِطَع التي تدور على الأساطير اليونانية والمصرية والهندية أو التي تدور على حوادث تاريخية، وجدنا أن نحواً من نصف عدد الأقاصيص الأُخرى تدور على موضوع واحد بعينه هو خيانة المرأة وغدرها - وخاصة المرأة المتزوجة - واتخاذها عشيقاً تخادنه»، بينما «الأزواج جميعاً - في هذه القصص - يحبون زوجاتهم ويثقون فيهن، وحينما يطيف بهم طائف من الشك سرعان ما تبدده كلمة من الزوجة أو مظهر من مظاهر تحببها لزوجها.»(١٧)

ويلتفت الدكتور هاشم ياغي إلى الأبعاد الاجتماعية في قصص هذا الكتاب، فيشير إلى التوتر القائم بين دعوة بيدس إلى مبادئ الحرية والإخاء والمساواة (كما في قصة «حجر الفلاسفة»، ص ٢٩٥)، وبين المخاوف من حرية المرأة وخصوصاً المرأة البورجوازية المتزوجة.(١٨) ويعالج الأبعاد الفنية ثم يخلص إلى القول: «ولكن هذا كله لا ينفي الأبعاد البورجوازية الجديدة التي نجدها في مجموعة 'مسارح الأذهان'، ولا ينفي الجودة اللافتة التي استطاعت أن تحققها بعض الأقاصيص منها وبخاصة أقصوصة 'بلا سبب' وأقصوصة 'المذنب الصغير' مثلاً، وأقصوصة 'المال' رغم ما فيها من مصادفات ومبالغة كادت أن تفسد بناءها.» ويلخص رأيه في الكتاب قائلاً: «وبعد، فعلى الرغم من وجود هذه العيوب التي أشرنا لبعضها في مجموعة 'مسارح الأذهان' فإنها تظل مَعْلَماً رائعاً من معالم القصة الفلسطينية الحديثة، وأثراً بارزاً في طلائع القصة القصيرة في فلسطين والأردن.»(١٩)

من هذه القصص والحكايات ما تعود كتابته أو اقتباسه إلى العام الأول من صدور «النفائس العصرية»، أي سنة ١٩٠٨. وكان بيدس في هذا المضمار ينتقل من الترجمة إلى الاقتباس إلى الوضع، أي الكتابة الأصيلة، وهو متأثر بقصص تولستوي القصيرة وحكاياته، إذ نجد الرسالة الإنسانية تلبس ثوب الحكاية، بل هي أقرب إلى حكاية الفلاحين في إطارها، من حيث السرد، وامتداد الرقعة الزمنية، والتأمل في العبرة العامة، أو متأثر بحكايات بوشكين.

لكن، لا نجد لدى بيدس أثراً لمفهوم القصة القصيرة عند تشيخوف، ونظلمه كثيراً إذا تعاملنا في نقدنا لقصصه بمفاهيم القصة القصيرة الموجودة لدى تشيخوف ومَنْ بعده.

كان لإسكندر الخوري البيتجالي (وهو من خريجي السِّمِنار في الناصرة) مساهمة في كتابة القصة القصيرة. فقد أصدر كتابه «حقائق وعبر» سنة ١٩١٢، وفيه إلى جانب المقالات والأبحاث اللغوية مجموعة من القصص القصيرة، أو المعالجات ذات الشكل القصصي.[٢٠] كما أصدر سنة ١٩١٨ كتاباً آخر بعنوان «الداء والدواء»، وفيه ثلاث من المعالجات القصصية علاوة على المقالات.

و«كاترين» (التي نشرها في «حقائق وعبر»، وعاد فنشرها في «النفائس العصرية» في عدد حزيران/يونيو من السنة الخامسة، ١٩١٣) فيها من الجهد القصصي والبناء ما يرشحها أن تكون من طلائع القصة القصيرة الفنية في بلادنا. وهي تروي حكاية كاترين الفتاة الكاثوليكية التي أحبت الشاب نجيب وهو أورثوذكسي. وهما مثقفان، فهي «فتاة تنتمي إلى أسرة متوسطة، نشأت على أيدي راهبات القديس يوسف، حذقت آداب اللغتين الفرنسية والعربية..» وهو «خريج إحدى كليات بيروت العليا، كاتب مجيد وشاعر لبيب.» ويحاول التعصب الطائفي أن يحول بينهما، لكنهما يتحديان كل الضغوط التي يقوم بها الكهنة من الطرفين، وأخيراً يضطر نجيب إلى رشوة كاهن نقده «اثني عشر ذهباً فجاز عنده لما يجز عند إخوته»، وعقد إكليلهما.

والقصة حافلة باستنكار الرضوخ للتقاليد، وبتمجيد الحب الصادق، من خلال حوار الشخصيات. ويحتال البيتجالي في التعليق على مجرى الأحداث بأن يجعل الراوية يسجّل ملاحظاته في دفتر مذكراته بعد أن تنتهي الأحداث.

ويمكن الإشارة إلى قصة البيتجالي «الشهادة في القرن العشرين» (التي نشرها أيضاً في «النفائس العصرية»، السنة الرابعة، ١٩١٢)، كمثال آخر لجهده في ميدان القصة القصيرة. وهي حكاية أمير روسي محسن أراد أن يساعد أبناء قرية في سورية

بأخذ بعض الصبية إلى بلده لتعليمهم كي يعودوا بعد ذلك لخدمة مجتمعهم وتطويره. لكن أحداً لا يقبل أن يغرّب ابنه، فتطوعت امرأة عندها عشرة من الأبناء والبنات، فأعطته ابنتها، ابنة العاشرة، واسمها سلمى. فكانت مع أُسرته في بطرسبرغ كالابنة، وتعلمت وتثقفت. وأحبها ابن الأمير، ولي نعمتها، واتفقا على الزواج. إلاّ إنها طلبت أن يسمح لها بزيارة أهلها وإعلامهم بعزمها. وعندما وصلت إلى بلدها كان أهلها أعدّوا لها عريساً، وهي ترفضه طبعاً، لكن أهلها مارسوا عليها ضغوطاً مرهقة. وكان عليها في مرحلة ما أن تختار بين الزواج بابن عمها وبين الإقامة بدير. ولم تستطع أن تتخلص من قبضة القيود والمفاهيم البالية إلاّ بالانتحار. وفي القصة تبيان لمدى الفارق الكبير بين مجتمعين: المجتمع الشرقي المكبل بمفاهيمه القديمة من ناحية، ومجتمع «الثقافة» من ناحية أُخرى، وانسحاق الإنسان المستنير الذي يقع فريسة القيود في مجتمع غير مستعد لفهمه.

ثانياً: الرواية

صدرت في فلسطين في أعقاب الحرب العالمية الأولى أربع روايات طويلة أصيلة هي:

(أ) «الحياة بعد الموت»، تأليف إسكندر الخوري البيتجالي، كتبها في أثناء الحرب، وفرغ من كتابتها سنة ١٩١٨، لكنها لم تصدر إلاّ سنة ١٩٢٠، بينما صدرت الطبعة الثانية سنة ١٩٤٧.[٢١]

(ب) «الوارث»، تأليف خليل بيدس، وقد نشر القسم الأكبر منها متسلسلاً في مجلته «النفائس العصرية» سنة ١٩١٩، ثم صدرت الرواية كاملة عن مطبعة دار الأيتام السورية في القدس سنة ١٩٢٠.

(ج) «رواية مفلح الغساني»، تأليف نجيب نصار، صاحب جريدة «الكرمل». وهي من باب السيرة الذاتية المكتوبة بشكل روائي، أحداثها حقيقية، وتروي حكاية اختفاء المؤلف من ملاحقة السلطات العثمانية له لاعتقاله في أثناء الحرب العالمية الأولى، ومطاردته نحو ثلاثة أعوام حتى سَلّم نفسه إلى السلطات في دمشق، وبرئت ساحته.

(د) «ظلم الوالدين»، وجاء في وصفها في مجلد مجلة «النفائس العصرية» سنة ١٩٢١، أنها «رواية أخلاقية اجتماعية غرامية، وضعها يوحنا دكرت أحد صاحبي

مجلة «بيت لحم»، ولم يتح لنا العثور عليها[٢٢] لدراستها والحكم عليها. والملاحظ أن اثنتين من الروايات الثلاث الأولى هما وليدتا الحرب وأحداثها.

وقد عثرتُ على رواية مخطوطة اسمها «غادات الناصرة»، تأليف خلف صباغ، من الناصرة. وهي تصور ما جرى في المدينة في أثناء الحرب العالمية الأولى. وقد أرّخ مؤلفها إنهاء كتابتها سنة ١٩١٩ (وهي موجودة عند حفيد المؤلف، السيد زهير صباغ). أمّا في رواية «الوارث» فنسمع أصداء الحرب العالمية الأولى في أثناء الحوار، ولا سيما حوار الشيخ نعمان (عمّ عزيز بطل الرواية).

وهكذا فإن اثنين من طلائع كتّاب الرواية الطويلة، خليل بيدس وإسكندر الخوري البيتجالي، هما من خريجي السِّمِنار الروسي في الناصرة. وقد كان لكليهما مساهمته في القصة القصيرة، وفي الترجمة. ويبدو أن الانتقال إلى الكتابة الأصيلة كان أمراً طبيعياً لديهما. أمّا نجيب نصار فهو صحافي أولاً، عانى أحداثاً قدمت له الحبكة التي كانت واقعية في مجراها، بل في أسماء الشخصيات الواردة فيها (عدا المؤلف الذي اتخذ اسم مفلح الغساني).[٢٣]

سأقف عند الأثرين اللذين خلفهما إسكندر الخوري وخليل بيدس في هذا المضمار:

(أ) «الحياة بعد الموت»

نجيب «من أُسرة شريفة متوسطة الحال» من القدس، نال حظاً من الثقافة. وبعد وفاة أبيه، الذي كان يحترف تجارة الأيقونات والسُبَح، باعت الأم الدكان، ووضعت المبلغ «عند تاجر حلبي بالقدس اسمه نجيب التاجر بمقابل من الربح زهيد ليكون لها ولولدها عوناً على الحوادث والطوارئ» (ص ١٨).[٢٤]

عمل نجيب بعد تخرجه كاتباً في أحد المصارف، وجعل يراسل بعض الجرائد المصرية والسورية في مقابل مبلغ زهيد يتقاضاه عن كل رسالة. «وحدا به حب الشهرة والتقدم إلى الانخراط في سلك الجمعيات حتى لم يكن آنئذ منتدى أدبي أو خيري إلاّ وكان أحد أعضائه» (ص ٢٠).

أحب أديل «وهي جارة له تسكن مع عمتها» بعد وفاة والديها. ونما هذا الحب فتكلل بالزواج، وولد لهما طفل مات بعد حين، وكانت أم نجيب توفيت قبل ذلك، وهكذا بقي نجيب وأديل من دون أقارب.

عند نشوب الحرب العالمية الأولى فَقَد نجيب وظيفته، لأن تركيا، في إثر إعلان الحرب، «وضعت يدها على مصارف الدول المعادية لها ومكاتبهم ومدارسهم» (ص ٢٢). كما فقد المبلغ الذي خلفته له أمه، لأن نجيب التاجر الذي كان المبلغ في ذمته ادعى أن «أمواله مودعة في البنك العثماني الذي يأبى عليه تسليمها له» (ص ٢٢)، وقد أعلن إفلاسه.

وهكذا بقي نجيب وأديل في حالة بائسة من الفقر، فباع «ما اشتراه لامرأته يوم زواجه من الحلي والجواهر، وحاول أن يدير بثمنها شغلاً يصيب من ورائه رزقاً فلم يقدر لأنه كان مطلوباً للخدمة العسكرية» (ص ٢٥). لم يتهرب من الخدمة العسكرية، لكنه لم يجد المال الذي يكفله لزوجته في غيابه، فكيف يتركها للجوع والذل.

اشتدت الضائقة الاقتصادية مع امتداد الحرب، وفي نيسان/أبريل ١٩١٥ لم يكن أمام نجيب أية بادرة فرج، أو أي مخرج يضمن له ولزوجته لقمة العيش. أخيراً، صمم على أن يذهب إلى الميدان متطوعاً. وظل مؤرقاً في تلك الليلة التي كتب فيها إلى زوجته رسالة مؤثرة جداً، أعرب لها فيها عن تألمه لرؤية معاناتها، وقراره: «أنا لا أسلّم نفسي كجندي فار، بل أذهب إلى أحد ميادين هذه الحرب الكبرى الناشبة كمتطوع» (ص ١١)، وهو يودّع زوجته، وداع مَن يذهب إلى الموت، ويتسلل تاركاً لها الرسالة في أثناء نومها، وقد «دقت ساعة الفرنسيسكان الثانية بعد نصف الليل» (ص ١٥).

اتجه نجيب نحو الجنوب، إلى بيت لحم. وعند الفجر، على مقربة من بيت جالا، التقاه جندي، شك في أنه فار من الخدمة، وتبادلا الكلمات القاسية. ثم جاء جندي آخر فكبلا نجيباً وساقاه معهما معتقلاً، فقد كانا ذاهبين إلى بيت جالا للبحث عن جندي فار، فيعذبان والده الشيخ إلى أن يسلّم الابن نفسه، مخلفاً زوجته وأباه الهرم للفقر والهوان.

ويعود الجنديان مشياً إلى القدس، ومعهما نجيب والسجين الجديد سالم بن خليل. وفي الطريق شاهد هذان الجنديان شخصاً فوق جواده يعدو، فاستوقفاه وكررا النداء فلم يتوقف، فأطلق أحدهما عليه الرصاص وأصاب الفرس والرجل. وسار أحد الجنديين إلى القدس يحرس السجينين، بينما ظل الآخر مع الجريح ينتظر قدوم شرطي آخر يساعده على نقله إلى المستشفى. وفي القدس طُرِح نجيب وسالم في سجن عفن، ثم وُجِّها مع «السَّوْقيات» ومع الآخرين حيث نقلوا بالقطار إلى الجبهة.

أمّا الفارس الجريح فقد نزف دمه في الطريق إلى القدس وهو على لوحة يحملها جنديان، وما إن وصل المستشفى حتى كان في حالة النزع. ولم يستخلصوا منه قبل موته إلاّ هذه الكلمات: «نجيب، أورثوذكسي، بريء» (ص ٤٤). كان ذلك هو نجيب التاجر، الذي استودعته أم نجيب، صاحبنا، مالها.

عندما أفاقت أديل، لم يخطر ببالها أن زوجها تركها إلى غير رجعة، بل لعله ذهب مبكراً في حاجة وسيعود. وحين عثرت على الرسالة صعقت، وخرجت تبحث عنه. مرت بدائرة العسكر، ثم قدّرت من رسالته أنه توجه حتماً إلى الجنوب لأنه لا يريد أن يسلم نفسه كجندي فار، بل يريد أن يلتحق بالمعركة، على ضفاف السويس. فمضت تسأل المارين هل رأوا أحداً بأوصافه. وبعد زمن، من السير والسؤال، مرت برجلين يتحدثان عما حدث للرجل الذي أصيب قريباً من ذلك المكان، وكيف أنه توفي في المستشفى، وكان فاه بثلاث كلمات: «نجيب، أورثوذكسي، بريء». «فجمدت في مكانها عند سماعها هذا الحديث»، وأخذت تستقصي النبأ، وما كان لها إلاّ أن تستنتج أن هذا هو نجيب زوجها، فصاحت وندبت وفقدت وعيها. ومر بذلك المكان ضابط اسمه سعيد بك، أثّر فيه ألَمها، فنقلها إلى بيته حيث يعيش مع أخته، واستدعى لها طبيباً، ومضى إلى المستشفى يستفسر عن نجيب، فأكدوا له أنه مات، وتلا عليه صلاة الموتى كاهن أورثوذكسي. وكان من شهامة الضابط سعيد أن عرض على أديل أن تظل مقيمة مع أخته سلوى، فهو متوجه إلى الجبهة، وستكونان عوناً إحداهما للأُخرى.

وتمضي الأشهر، ويكون نجيب، الزوج، خاض المعارك وأصبح ضابطاً. ووصل به المطاف إلى حلب، ويبحث عن غرفة يستأجرها، فيجد ضالته عند تاجر أقمشة اسمه موسى، الذي سرّه أن يعرف أن هذا الضابط من القدس، فأخوه وخطيب ابنته مقيمان هناك. هذا التاجر موسى هو أخو التاجر نجيب الحلبي الذي استُودع المال عنده وأعلن الإفلاس ثم قتل. أمّا خطيب ابنته فاسمه كامل، وقد سيق مع الجيش الزاحف إلى قناة السويس. وبقي في القدس يشغل وظيفة كاتب في ديوان حربها العرفي.

يقيم نجيب بحجرة عند التاجر موسى. ويدفع له خمسين جنيهاً، ويطلب منه أن يكتب إلى أخيه نجيب في القدس ليدفعها إلى أديل. ويكتب نجيب رسالة إلى زوجته أديل يخبرها عن حاله، ويطلب إليها أن تتوجه لتسلّم المبلغ.

تحاول سعاد ابنة التاجر أن تتقرب من نجيب، فتصرح له أنها أرغمت على

خطوبة كامل، وأنها صارحته أنها لا تحبه، لكنه لم يأبه لذلك ولم يعتقها. وكاد نجيب يؤخذ بإغرائها لولا أنه عاد فذكر أديل وحبه لها وإخلاصها له.

لم تطل إقامة نجيب بحلب، فقد أُمِرَت فرقته بالتأهب للسفر.

وصلت الرسالة من موسى إلى كامل ليدفع المبلغ لأديل، ففعل. وقد فوجئت أديل بالأمر كله. فنجيب، إذاً، حيّ، وكانت تعتبره مات (ومن هنا اسم الرواية: «الحياة بعد الموت»). وفي هذا اللقاء تبيّن لكامل أن نجيباً القتيل، الذي حسبوه زوج أديل، لم يكن سوى نجيب التاجر شقيق صهره موسى.

وتمضي أحداث الرواية، فنتعرف إلى سارة، وهي زوجة سالم بن خليل الذي اعتقل وسيق في القطار إلى الميدان فهرب وشنق. وقد عانت سارة وطفلتها الصغيرة أهوال الفقر والذل، واستغل بؤسها كامل الذي تركها عندما علم أنها حملت منه، فهامت على وجهها مع طفلتها وجنينها، إلاّ إن القدر ساقها يوماً إلى حيث تقيم أديل وسلوى فأشفقتا عليها واحتضنتاها وطفلتها.

يشارك نجيب في معركة غليبولي، كما يشارك فيها الضابط سعيد بك. وتجمع المعركة بين الاثنين، إذ ينقذ نجيب سعيداً من الموت، فتتوطد عرى الصداقة بينهما. ويكتشفان فيما بعد الصلة الأُخرى بينهما، فهذا هو نجيب زوج أديل التي تركت في كنف أخت سعيد، وهذا هو سعيد الذي أنقذ الزوجة التي تركت للقدر.

أُلقي القبض على سعيد ونجيب بتهمة الانتماء إلى جمعية سرية ترمي إلى الاستقلال العربي. وحوكما في الديوان العرفي في عاليه، حيث علق كثيرون من الوطنيين على أعواد المشانق. وصدر الحكم بإعدام الضابطين السجينين، إلاّ إنهما أفلحا في الهرب من السجن قبل تنفيذ الحكم فيهما، وشددت السلطات في البحث عنهما، حتى إنها اعتقلت أديل وسلوى في القدس، لصلتهما العائلية بالضابطين اللذين وجدا سبيلهما إلى صفوف جيش الأمير فيصل الذي كان يحارب الأتراك متحالفاً مع البريطانيين.

وتنتهي الرواية بأن يدخل نجيب وسعيد القدس مع الجيش الفاتح، ويمضيان إلى السجن يحرران السجناء. ويتعانق نجيب وأديل وسلوى وأخوها، ويُطلق التاجر موسى وكامل وسارة الذين سجنوا أيضاً لأسباب متعددة. وتكون النهاية السعيدة.

قدمتُ خلاصة الأحداث لحبكة هذه الرواية بشيء من التوسع، لأن في الإيجاز الشديد ما يشوه الصلة بين الأحداث. ومع أن عنصر المصادفة يؤدي دوره في التقاء الشخصيات، كالخلط بين النجيبين، والصلة بين نجيب وموسى الذي يكون شقيق

نجيب الآخر، ثم هذا الالتقاء المصادفة بين سارة وكامل فيما بعد. . إلخ، مع ذلك كله فإن «الإيهام القصصي» قوي في الرواية، وخصوصاً في النصف الأول منها، والتجريد من التفصيلات في التلخيص يضر هذا الإيهام.

يسرد الأحداث راوية مشرف معلّق، وإشرافه يكاد يكون كلياً، وإن يكن متحفظاً في بعض الأحيان، كقوله: «سار نجيب بخطى متثاقلة متجهاً نحو الجنوب ولعله استصوب الالتحاق بالجيش العثماني القادم من الشمال» (ص ٢٩). فهذا من صوغ المشرف المحدود الذي لا يقرأ دخيلة النفس، وإنما يحاول أن يستنتجها، وقوله بعد ذلك «إنه كان يهجس بأديل ولا ريب» (ص ٢٩).

أمّا التعليق على الأحداث والتأملات، التي يستغرق فيها هذا الراوية، فيحتل جزءاً كبيراً من الرواية. وهو يكثر من الإشارات إلى الأدب العالمي كشكسبير (ص ١٢) وبرنارد شو (ص ١١٩)، وإلى آيات من الكتاب المقدس والقرآن الكريم، كما أن فيه شيئاً من الإشارات الشعرية.

ويمكن ملاحظة أن النسيج الروائي كان أكثر متانة في النصف الأول من الرواية. لكن، عندما لجأ المؤلف إلى الحديث عن القتال في غليبولي، وعن ديوان عاليه، اختلط لديه السرد التاريخي والتعليق بالسرد الروائي فأخل به في بعض الأحيان. فإذا علمنا بأنه كتب روايته في إبان الحرب العالمية الأولى، خلال ثلاثة أعوام، وأن ما حدث في ديوان عاليه من التنكيل بالوطنيين هز أعماق الناس والمؤلف، رأينا الرواية تجنح في هذا الباب إلى تسجيل المآسي وتذكر لائحة من أسماء الشهداء الذين نفّذ فيهم حكم الإعدام (ص ١٤٩). كما أن الفصل الرابع عشر (ديوان عاليه، ص ١٤٦ - ١٥٣) هو تسجيل تاريخي للأحداث وتعليق عليها. بعد ذلك تتصل الأحداث بالرواية حين نرى نجيباً وسعيداً يقفان في ديوان عاليه للمحاكمة، ثم يتخلل المحاكمة نص منشور اتهم نجيب بكتابته، واستغرق أكثر من ثلاث صفحات (ص ١٥٨ - ١٦١).

ومع أن إسكندر الخوري البيتجالي كان أجرى على الرواية بعض التغييرات، عندما أصدر الطبعة الثانية منها سنة ١٩٤٧، إلاّ إن التغييرات لم تكن جوهرية تقوّي النَفَس الروائي في النصف الثاني، وإنما تختصر التبويب، وعناوين بعض الفصول. فبدلاً من عنوان الفصل الأول الذي كان «الصبية النائمة والفتى الساهر»، أصبح في الطبعة الثانية «الحالمة». وكان عنوان الفصل التاسع «الشرائع والمرأة»، فأصبح في الطبعة الثانية «من هي». وكانت الرواية مقسومة قسمين في الطبعة الأولى، فألغى هذا

التقسيم في الطبعة الثانية. كما أن المؤلف غيّر اسم إحدى الشخصيات، «مريم» (زوجة سالم بن خليل، التي غرر بها كامل) فأصبح «سارة» في الطبعة الثانية.[٢٥]

وهناك تغييرات بسيطة في صوغ بعض الجمل، إذ نحس برغبة في الإيجاز وتبسيط اللغة في بعض الأحيان.[٢٦]

شرع إسكندر الخوري في كتابة روايته في أثناء الحرب، ويحدثنا عن ملابسات الكتابة، إذ يقول: «وفي جو من التكتم والحذر، كنت أدوّن ليلاً ما جاء فيها وأخفي آثارها نهاراً في مكان لا تشتبه فيه العين خوفاً من واش ينقل إلى السلطة ما أنا ماض فيه فتدهم البيت على حين غرة بحثاً عنه وعندها لا منجاة لي ولمن حولي من غضبتها.»[٢٧]

والسؤال الذي يعرض للناقد هو: ماذا كانت الخطة التي رسمها المؤلف لمجرى الأحداث وتطور الشخصيات تبعاً لذلك، عندما شرع في الكتابة؟ لأن محاكمة نجيب المتهم بمواقفه الوطنية أمر أوحت به الأحداث فيما بعد، وكذلك مشاركة نجيب في جيش الأمير فيصل، ودخول القدس.

لا بد من أن إسكندر الخوري الذي وضع للرواية خطة في بدايتها عاد فغيّر في تلك الخطة، وفي مصير الشخصيات. وتبعاً لذلك كان يجب أن تبنى ملامح تلك الشخصيات، لكنه لم يمهد في شخصية نجيب وفي الأحداث السابقة على المحاكمة في ديوان عاليه، ما يهيئنا أن نكتشف أنه كان «كاتم سر الجمعية الثورية العربية» (ص ١٥٧). لقد أشار المؤلف بصورة عامة إلى أنه «لم يكن آنئذ منتدى أدبي أو خيري إلاّ وكان [نجيب] أحد أعضائه» (ص ٢٠). وهناك إشارة إلى أنه كان «يراسل بعض الجرائد المصرية والسورية» (ص ٢٠). لكن يتبين فيما بعد أنه كتب نداء ثورياً موجهاً إلى «الأمة العربية» ونوابها وفتيانها الأحرار. وفي ذلك مفاجأة، مع أن الملامح العامة التي ارتسمت بها شخصية نجيب تهيئه، بالاستنتاج، لا بالنص الصريح، لذلك.

وتمتاز الرواية بعد ذلك كله بنكهتها الفلسطينية، فالأحداث تدور في القدس أساساً (ثم بيت جالا)، ومسرح الأحداث يحدد «باب الخليل، والطريق المؤدي إلى يافا، والعمارة الروسية»، ثم في موقع آخر الطريق من باب الخليل إلى بيت لحم. بل يكون التحديد أكثر في تسمية المواقع الزراعية (ص ٣٣)، وفي الإشارة إلى بيت أديل وسلوى «الواقع في كولونية الألمان بالقدس» (ص ٩٠). وهذا التحديد، علاوة على إضفاء النكهة المحلية، له دوره في لعبة «الإيهام الروائي» بالواقعية، كما يضاف

إلى ذلك ذكر التواريخ مفصلة باليوم والشهر.

ومن ناحية أُخرى، فإن الشخصيات الرئيسية في الرواية هي شخصيات متعلمة، بل مثقفة. ويسهّل هذا على المؤلف أن يعرض خواطره في أثناء الحوار بين الشخصيات، الأمر الذي نلمسه في الحوار بين سعاد ونجيب في الفصل السابع، أو بين أديل وسلوى في الفصل الثامن عن الحرب والوطنية: «بئس الوطنية يا سلوى في حرب لا صوت للحق في صليل سيوفها ولا أثر للعدالة في دوي مدافعها» (ص ٩٣).

بعد هذا كله تظل «الحياة بعد الموت» أول رواية فلسطينية، من حيث مسرح أحداثها وشخصياتها الرئيسية. وهي مستوحاة مما مر بالبلد في إبان الحرب العالمية الأولى، بل إنها تتوخى الدقة الموضوعية في تفصيل عدد من ظواهر الحياة آنذاك، مثل قانون الإفلاس الموراتوريوم (ص ٢٤)، وأزمة السياحة (ص ١٧)، وبطش الجندرمة، وتفصيلات بعض المعارك (الفصل العاشر)، إلخ.

وعلى الرغم مما يعتور النسيج الفني السردي من العثرات، فإن الرواية تفلح في شد القارئ إلى ملاحقة الأحداث حتى النهاية لما في الأسلوب من عفوية استطرادية.

(ب) «الوارث»

أمّا رواية «الوارث»، التي بدأ خليل بيدس بنشرها تباعاً في «النفائس العصرية» سنة ١٩١٩، فتدور أحداثها في مصر عشية الحرب العالمية الأولى وفي إبانها. وليس لهذه الحرب إلاّ أصداء في الحوار الذي يدور بين شخصيات الرواية، وفي بعض الملاحظات على مجرى تلك الحرب.

عزيز الحلبي[٢٨] «فتى في زهرة العمر ونضارة الشباب. من أسرة سورية شريفة هاجرت إلى الديار المصرية بعد حوادث سنة ١٨٦٠ وسكنت القاهرة واشتغل أفرادها بالتجارة» (ص ٢٦).

«توفي والدا عزيز وهو في العاشرة من سنيه، وكان له عم اشتهر أكثر من كل واحد من أفراد الأسرة بالغنى والجاه، فأخذه إليه واعتنى بتربيته وتثقيفه أشد الاعتناء ولم يكن له ولد من صلبه فكان عزيز في منزل ابنه وأعز لديه من روحه» (ص ١٨١).

وقد أحب عزيز المسرح وتعلق بممثلة بارعة اسمها إستير، وهي «فتاة في الربيع العشرين من العمر وقد أفرغ عليها الشباب أجمل حلله. وكان يختلف إليها في منزلها

فيقضي معها وقتاً في المحادثة والمغازلة. وقد مالت هي أيضاً إليه، ولكنها لبعض أغراض نفسية كانت تقابله بعض الأحيان بالقسوة والجفاء» (ص ١٨١).

تعيش مع إستير عمتها راحيل، وهي «كهلة بسن الخامسة والأربعين»، في شقة يدفع عزيز أجرتها، علاوة على ما يدفعه من نفقات شهرية أُخرى.

وتعدّ العمة السيناريو لابتزاز المزيد من المال من عزيز، فهو الوارث لعم غني جداً. وتقوم إستير بتمثيل الدور، فتستقبل عزيزاً بجفاء وتطلب منه أن يكف عن زيارتها، «لأنني أخشى أن يراك المولعون بي فيغارون منك وربما نفروا مني فأحرم على هذه الصورة مساعداتهم المالية» (ص ١٨١).

وتشير إستير إلى أن من المعجبين بها كولونيلاً شاباً وعدها بعربة خاصة يستأجرها لها شهراً تلو الآخر، كما وعد أن يهديها رداء ثميناً من الفراء النادر. فيضطر عزيز إلى أن يعد بالعربة والرداء، على أن تطرد ذلك الكولونيل. لكن كيف يحصل على المال، وما زال الأمر في يد عمه، وهناك أمين صندوق مسؤول، وعزيز ينال الآن راتباً كأحد الموظفين؟ وهو ليس الوارث الوحيد لعمه، فله شريكة في الميراث هي ابنة عمه من معشوقته «وهو لا بد أن يخصها بجانب كبير من أمواله قبل وفاته» (ص ١٨٣). خرج عزيز وقد وعد أن يلبي مطالب إستير كلها.

«وكانت راحيل قد خرجت تشيع عزيزاً عند انصرافه فلمّا عادت ابتدرتها إستير قائلة: 'كيف رأيتني يا عمة؟ فهل أحسنت تمثيل دوري؟'» (ص ٢٠٦).

لكن إستير لا تريد لعمتها أن تتمادى في خطة الابتزاز فتقول لها: «ولكني مشفقة عليه يا عمة لأنه قليل التدبير طيب القلب وخجول وأنا أحبه وأخشى إن قابلته مرة أُخرى بمثل هذا الجفاء أن يقع في اليأس أو ينفر مني ويهجرني» (ص ٢٠٦).

تحاول إستير أن تتفهم أوضاع عزيز وتناقش عمتها في ذلك، إذ كيف يمكنه الحصول على الأموال الضرورية وعمه بخيل؟ وترى العمة أن السبيل هو استدانة المال على أن تجد له من يسلفه ما شاء.

وتظل إستير قلقة على عزيز، فتوصي عمتها بأن ترفق به ولا تتيح للصيارفة والمرابين أن يبطشوا به. إلاّ إن العمة لا ترى همّاً إلاّ الحصول على المال فتجيب: «وماذا يهمنا نحن؟ ليفعل به ما شاء بشرط أن نحصل على ما نريد» (ص ٢٠٧)، وتتجاهل توصيات إستير، وتمضي في تدبير خطة ليستدين عزيز مبلغاً طائلاً لتلبية مطالبها من مراب بارع اسمه ناثان. وهناك تتوالى سلسلة من عمليات الابتزاز وعزيز يغامر، وهو يرى عمه على فراش المرض، فينتظر أن يسدد الديون، مهما تبلغ، من

الميراث المنتظر.

يعلن ناثان المرابي أنه لا يستطيع أن يحصل على مبالغ نقدية. لكن هناك تاجراً يبيع آلات موسيقية بصكوك مؤجلة. وبين هؤلاء التجار تتضخم أرقام المبالغ التي يلتزمها عزيز، بينما لا يصل إلى يديه إلاّ الجزء اليسير منها.

تحصل إستير على الفراء والعقد والأثاث. لكنها كانت تؤرجح عزيزاً بين الإقبال والصد لتزيد في اندفاعه، ويزيد هو في تورطه.

أخذ عزيز يهمل العمل في متجر عمه، بل إنه لم يعد يرعى عمه المريض، فكان يتركه ويذهب إلى المسرح لمقابلة إستير، أو ترتيب أمور الدَّين والفوائد.

كانت لعمه، الشيخ نعمان الحلبي، أملاك كثيرة وأطيان، «وكان قد تزوج في صباه وتوفيت شريكة حياته بعد زواجه بها بعشرين سنة دون أن يرزق منها ولداً. وكانت له وصيفة ذات جمال رائع وخلق حسن تدعى مريم فأحبها واقترن بها ولكنه لم يرد أن يشهر هذا الاقتران فبقي الأمر مكتوماً إلاّ عن أهل المنزل وأقرب أصدقائه» (ص ٢٠٨).

وكان للشيخ من مريم ابنة جميلة اسمها نجلاء. وقد مرض الشيخ نعمان فانتقلت مريم وابنتها إلى منزله تقومان على تمريضه. وكان عزيز يكره مريم لأنه خشي أن تشاركه في الميراث، إلاّ إنها كانت تعامله معاملة طيبة.

لما رأى الشيخ نعمان أن عزيزاً يكثر من التغيب عن العمل والبيت وأنه لم يرتدع، صارحه بما يساوره من شكوك، بقوله: «وأنت لا تحاول إقناعي بغير الواقع. فقد ثبت لي الآن أنك على غير هدى من أمرك، وإذا لم تكبح جماح نفسك فإنك لا تلبث أن تسقط سقوطاً لا قيام بعده. وقد أظهرت لك صباحاً أسفي وكدري ثم عدت إلى نفسي وتأملت طويلاً في حالتك فلم أر دواء لك إلاّ الزواج، ففيه فقط نجاحك مما أنت فيه من الجهل والزيغ. وفضلاً عن ذلك، فأنا أريد أن أفرح بك قبل أن تغيب شمس حياتي» (ص ٢٧٦).

اختار له ابنته نجلاء، وإلاّ فسيحرمه الميراث. لكن عزيزاً يبلّغه أنه يحب إستير الممثلة، فيثور الشيخ قائلاً: «وهل بلغ منك الجهل أن تهيم في حب الممثلات وبنات الهوى وتتمرغ في أوحال هذه المعايب والنقائص؟» (ص ٢٧٦).

يمهل العم عزيزاً أن يعطيه الجواب حتى مساء الغد، وإلاّ فإنه مطرود من البيت ومحروم من كل شيء.

يمضي عزيز ليعرض ما هو فيه من أزمة على إستير. وبينما هو يبكي وهو

يحدثها وقد عرفت التي رشحها له عمه، قالت: «ولِمَ البكاء أيها الطفل؟ إن عمك يريد أن يزف إليك ابنته فلا تمانع وليكن جوابك بالقبول» (ص ٢٧٧). فيذهل، لكنها تفسر له الموقف قائلة: «نعم. لأنك إذا خالفت أمره يحرمك تركته كلها وحينئذ فما فائدتي منك وأنت صفر اليدين؟ نعم إني أحبك بكل ما في جوارحي من قوة الحب ولا أوثر عليك أحداً. ولكن كيف تكون حالتي إذا أصبح حبيبي فقيراً وليس في طاقته أن يقوم بنفقاتي؟ أمّا إذا تزوجت فإنك تصبح غنياً فيزداد حبي لك. ولا ترهب هذا الزواج فسأكون لك وأنت متزوج كما كنت لك وأنت أعزب بلا فرق بين الحالتين لأن الزواج الآن لا يقيد الرجل بزوجته إذا كانت له خليلة يحبها» (ص ٢٧٧).

فانفرج همه، وقال: «وسأزورك بعد حفلة الزفاف لأبرهن لك على أن زواجي لم يكن إلاّ فصلاً من فصول التمثيل ليس إلاّ.»

حين عرف الشيخ نعمان بموافقة عزيز على الزواج، فرح كثيراً وهنأ ابنته ومريم وعزيزاً، وقدم لعزيز مبلغاً كبيراً ليرتب أموره، وأعطاه صندوقاً ملآناً بالجوهر (كان لزوجته) ليقدم هدية لنجلاء، وأعطى نجلاء عشرة آلاف جنيه، وكأنها بائنة.

ويعيَّن موعد الزفاف، وتزداد صلات عزيز بإستير، ويزداد إنفاقه عليها. وفي يوم الزفاف، وبعد أن «أقيمت حفلة الإكليل، وتلا الحفلة مأدبة فاخرة»، بعد منتصف الليل غافل عزيز أهل البيت وخرج قاصداً بيت إستير، التي كانت عادت من المسرح قبل قليل، ففوجئت به وهو يقول: «ها إني جئت كما وعدت فهل يكفيك هذا البرهان على ولائي يا عزيزتي؟

«فدفعته إستير عنها وقد قطبت حاجبها وقالت: 'ولكنه برهان على جنونك وسوء تدبيرك. فهل ترى ما هو جار الآن في منزل عمك من الاضطراب الشديد؟'» (ص ٢٩١).

وفعلاً، حينما عاد عزيز وجد البيت في حالة مرتبكة، ونجلاء تبكي وعمه هائج عليه. «وأدرك عزيز بلحظة واحدة عظم الأمر وما جرّه على نجلاء من الإهانة والويل. فشعر بعاطفة خصوصية نحوها، ولم يدر كيف يلاطفها ويسليها. ولكنه أخذ بيدها وهو يسمع تنهداتها المحرقة» (ص ٢٩١).

كان على عزيز أن يلازم البيت أياماً استجلاباً لرضى عمه، فأخذت تتوثق صلته بنجلاء، ومعرفته بأخلاقها الحميدة. لكن عواطفه نحو إستير تأججت، فتذرع بحجة دعوة نجلاء إلى المسرح، وبعد أن جلسا في المقصورة، قبل التمثيل ترك نجلاء

«بحجة أنه رأى أحد غرماء المحل فلا بد من مواجهته لأمر ذي بال»، وذهب إلى غرفة الممثلين. وعلم من راحيل أن إستير مع الكولونيل الذي دعاها إلى العشاء في أحد الفنادق «ولا يلبثان أن يعودا». وسرعان ما حضرا، فدفعه غضبه إلى إهانة الكولونيل، فطردته إستير قائلة: «أخرج الآن من هنا لأن وقت التشخيص قد حان وستتكلم في غير هذا المكان.»

وعاد إلى نجلاء وهو يتميز غيظاً، وانتهز امتعاض نجلاء من رقص إستير وحركاتها على المسرح فرجعا إلى البيت.

لكن عزيز لم يطق عن إستير بعداً. «وفي اليوم التالي انطلق... لزيارة إستير وكان قد ندم على شراسته معها الليلة الغابرة فأحب أن يسترضيها. ولمّا دخل المنزل استقبلته إستير بعبوسة ولم تمد إليه يدها ليقبّلها كالعادة» (ص ٢٩٢). وفعل الصدود فعله، فإستير ترى أنه أصبح الآن غنياً نتيجة زواجه، فماذا قدم لها، إنها تريد أن يكتب لها صكاً بمبلغ من المال ليضمن لها مستقبلها. فتعهد عزيز بذلك على أن يأتي إليها في الليلة التالية إلى المسرح ليذهبا إلى تناول العشاء معاً.

كان لا بد من استشارة ناثان في كتابة صك بألفي جنيه. وعلى العشاء لم تكن إستير وحدها، بل كان هناك زميلاتها وأصدقاؤها، ومنهم الكولونيل الذي جلس إلى جوارها، بينما جلس عزيز في الطرف الآخر من المائدة. وشرب عزيز كثيراً «فأخذ يرفع صوته في الكلام ويرمي الكولونيل بكلمات الازدراء، بل زاد استرسالاً في التهكم والازدراء.» وأرادت إستير أن تهدئ الموقف فدعت عزيزاً إلى الجلوس إلى جانبها فرفض، وتأزم الموقف بينه وبين الكولونيل، و«ضرب المائدة بعنف بيده، فوقع بعض الكؤوس وأريق الشراب وأخيراً قام يترنح وعيناه تقدحان شرراً ولم تعد ركبتاه تقويان على حمله فسقط إلى الأرض، وفي سقوطه أمسك بطرف ملاءة المائدة وجذبها فوقعت ومعها جميع آنية الشراب وقد تحطمت الآنية وجرى الشراب على الأرض ولم يعد عزيز يعي شيئاً» (ص ٢٩٥). وحُمل إلى منزله وهو في أشد حالات السكر.

بقي عزيز أربعة أيام في منزله، ونجلاء تعنى به. لكن عاوده الحنين إلى إستير فكتب إليها رسالة يستعطفها. وحين عاد إلى المتجر كان في استقباله بعض الدائنين الذين التزم لهم بمبالغ طائلة. ثم مضى ليرى إستير فأخبره الخادم أنها طلبت أن يبلّغوه أنها غير موجودة مع أنها في المنزل مع الكولونيل، «فهمّ أن يدفع الباب ويدخل، ثم عاد فعدل وركب عربته وقفل راجعاً، وقد امتلأت عيناه بالدموع.»

يبدو أن هذا المشهد كان بداية «الانقلاب»؛ ومر بذهنه كل ما فعله من أجلها: الهدايا، والديون، وتعرّضه لسخط عمه، ونفوره من نجلاء بسببها.

عاد إلى البيت، وعاوده المرض، فعكفت نجلاء على تمريضه لا تفارقه. وكان هذا القرب بعد تلك الصدمة باعثاً على تحول مشاعره. فأخذ يحس بـ «أن ميله إلى نجلاء أخذ يقوى يوماً عن يوم، وصار يستأنس بها كثيراً، ويقضي وإياها الساعات في الحديث والمغازلة، حتى انقلب ذلك الميل حباً ملأ جوارحه، ولم يبق في فؤاده أقل ميل لإستير وأقل رغبة في مقابلتها.»(٢٩)

واشتد عليه ضغط الدائنين، بل إن الصك الأخير الذي كتبه لإستير بألفي جنيه كان ينتظر الدفع. وأحست نجلاء بأن زوجها في أزمة خانقة، وسمعته يغمغم وهو نائم بكلمات متقطعة عن إستير وديونه. وحينما أفاق في اليوم التالي تلطفت في سؤاله عما به، حتى عرفت حقيقة الدين وقيمته، ثم «خرجت ولم تلبث أن عادت تحمل بين يديها شيئاً ملفوفاً، ولمّا دخلت تقدمت إلى عزيز ودفعت إليه كل ما بين يديها، وهي تقول: 'هنا قراطيس مالية بالمبلغ المطلوب كله، وهي لي، من بائنتي، فخذها وأَوْفِ جميع ديونك ولا تكن إلاّ قرير العين ناعم البال'.»(٣٠)

فوفى عزيز ديونه كلها، وقد توثقت محبته لنجلاء وزاد تعلقاً بها. وكان الشيخ نعمان تعافى من مرضه تماماً، لكنه اعتزل الأعمال وسلّم جميع أطيانه وعقاراته وتجارته إلى عزيز، فقام بها جميعها على أفضل ما يرام. وبعد عام من هذه الحوادث رزق عزيز ولداً ذكراً دعي باسم جده نعمان. وكان فرح الشيخ ومريم بالصغير أعظم من فرح عزيز ونجلاء به.(٣١)

محور الصراع في هذه الرواية أخلاقي مسطح: بين الفضيلة والرذيلة، بين الخير والشر، إذ إن الرذيلة تغوي وتجذب إلى الهاوية، بينما يعمى «البطل» عن فهم حقيقة العلاقة التي يغرق فيها، ويكاد هذا العمى يودي به. فهو يريد أن يستأثر بإستير، باذلاً في ذلك ما يملك وما لا يملك، لكن إستير تتجاوب معه كخليلة وتصارحه بذلك وتوضح له معنى هذا الدور، فهي تريد أن تحتفظ بالمولعين بها، لتحظى بمساعداتهم المالية، وتخشى أن ينفروا منها إذا غاروا منه (ص ١٨١). لكن عزيزاً لا يفهم «أصول اللعبة»، ويظن أن في وسعه بالمزيد من البذل وإغداق الهدايا أن يخلصها من أيدي الآخرين لتكون له وحده. وهو يرى صلات إستير بالكولونيل فيشتد به العمى ليدفع المزيد من الأموال، ويطالب بالاستقلال بقلبها.

«قال: إذاً فأنت اغتنمت فرصة غيابي عنك هذه الأيام القليلة وأخذت تعيشين

مع الكولونيل وأمثاله على هواك.

«قالت: أنا حرة أن أعيش كما أشاء وليس لأحد أن يقيّد حريتي أو يسيطر عليها.

«قال: بل لي ملء السلطة عليك وقد وعدت أن لا تعرفي أحداً سواي ولا يكون لك علاقة بأحد غيري وأنا قد عبدتك كل هذه المدة. وقد تورطت في الديون لأجلك، ولأجلك أنا مستعد أن أبيع روحي للأبالسة. وأنت تقابلين الآن كل ذلك بعدم المبالاة وترافقين هذا وذلك إلى كل مكان» (ص ٢٩٢).

وقد أوضحت له إستير قبلاً معنى علاقتها به، مرات كثيرة، وشجعته على الزواج من ابنة عمه ليصبح غنياً «فيزداد حبي لك.. لأن الزواج لا يقيد الرجل بزوجته إذا كانت له خليلة يحبها» (ص ٢٧٧).

وعلى ذلك فإن عَمَى عزيز كان، من حيث القيم المراعاة، في عدم إدراكه معنى السعادة والسبيل إليها. لقد حاول أن يجد اللذة، لا السعادة، في العلاقة المحرّمة، وفي ذلك خروج على سواء السبيل وارتطام بالتعاسة.

كان لا بد من عملية طويلة لتتفتح عينا عزيز على «الرؤية الصحيحة»، ويعود إلى إطار الأُسرة، حيث السعادة. وقد اجتمعت لذلك عوامل متعددة، أولها سلسلة الصدمات التي تلقاها في علاقته بإستير نتيجة عدم إدراكه العلاقة بينهما كما تفهمها هي، ونقيضاً لما فهمها هو. وعلى الرغم من أنه ارتطم كثيراً بمفهومها لهذه العلاقة، فإنه كان بطيئاً في اليقظة. فقد توترت الصلة بينهما وتورط في الديون. وظل متعلقاً بها ممعناً في عماه، حتى كانت السكرة التي جاءت بعدها الصحوة بفضل طيبة القلب التي تميزت بها نجلاء، وصحة الحب الذي يبذل، فصفحت عنه وقدمت له المال ليتخلص من ورطته.

يمكن النظر إلى الصراع والشخصيات المشاركة فيه من أكثر من زاوية. فمن ناحية، يمكن رؤية شخصية عزيز تتأرجح بين شيطان وملاك، إذ يجذبه الشيطان بالإغواء والمتعة، بينما يستقبله الملاك بالطهر والطيبة فيكتسبه. إلاّ إنه من ناحية أُخرى، يمكن رؤية إستير، في إطار ما ارتضته لنفسها في دور الخليلة، غير جائرة في موقفها لو كان عزيز يدرك «أصول اللعبة». والملوم هو عزيز الذي لم يدرك معنى الحب الذي ينطوي على السعادة، والذي يتمثل في النهاية في الأُسرة. ولذلك فإن عزيزاً هو ضحية نفسه، ضحية جهله أو عماه، ولم تفتح عينيه إلاّ الصدمات المتوالية، والطيبة التي تمثلت في نجلاء.

لقد لخصت إستير صفات عزيز الأساسية فهو «قليل التدبير طيب القلب وخجول» (ص ٢٠٦). ولا يزيد عزيز في أن يكون نمطاً تتمثل فيه هذه الصفات الثلاث، ويتسم بالاندفاع الأعمى والسذاجة اللذين لا يحسنان التعامل مع الأوضاع، فهو لا يستطيع أن يحس بالابتزاز، ولا يفقه ما تصرحه إستير عن علاقتها به، ويصل إلى أقصى حالات الطيش حين يتسلل في ساعة متأخرة من ليلة الزفاف إلى بيتها ليثبت لها أنه يحبها، وأنه لم يتزوج بنجلاء إلاّ من أجلها.

لم يعط المؤلف عزيزاً إلاّ القليل من ملامح البعد الخارجي. فهو «فتى في زهرة العمر ونضرة الشباب»، ولم يحدد عمره (بينما حدد عمر إستير)، ويتابع التعريف به «من أسرة سورية شريفة هاجرت إلى الديار المصرية»، توفي والداه وهو في العاشرة فكفله عمه. وقد أحب التمثيل فأحب إستير الممثلة وهام بها، وأنفق في سبيلها الأموال، فسيطرت عليه، وراوحت في معاملته بين الإقبال والصدود، بل إنها تذله أحياناً في صدودها، فلا تستثار كرامته، فها هي توجّه الكلام إلى عمتها في حضوره قائلة: «لا تسترسلي معه في الكلام يا عمة لأنه لا يريد أن يفهم. يقول إنه متعلم وقد تخرّج من مدرسة عالية ولديه تجارة واسعة وهو، مع ذلك، لا يفهم مثل هذه الأمور البسيطة فأخرجيه من هنا لئلا يعود إلى وعوده الفارغة» (ص ١٨٢).

بل إن عزيزاً لا يتوقف للتأمل في حاله والتفكير في شؤون نفسه. وحين تسوء به الحال يضحك «لأنه لم ير أنجع دواء لما هو فيه من الهمّ والقلق إلاّ الضحك. ولم يشأ أن يسترسل في التأمل» (ص ٢٤٩). وهو لامبال في اندفاعه، «لتكن العاقبة مهما كانت، فأنا الآن لا أهتم بأحد ولا يهمني شيء» (ص ٢٩١).

وهكذا، فإن عزيزاً لا يفتح عينيه نتيجة التأمل واختيار السبيل الآخر بعد أن أدرك خطورته وشره. لكنه يجد نفسه يتصرف بمزيد من الحمق حتى يطرد، ويمرض، فكان دفء نجلاء، ونجدتها له لتسديد الدين، الخلاص الذي حلّ به.. من دون أن يسعى له.

ولا تزيد نجلاء في كونها نمطاً باهتاً تتجسد فيه الطيبة والقناعة والتضحية.

«هي فتاة في الخامسة عشرة» (ص ١٨٣)، «كالخيزران قامة وكالبدر طلعة» (ص ٢٠٨). وهي ابنة الشيخ نعمان من وصيفته التي تزوج بها بعد وفاة زوجته. وكان عزيز يكره نجلاء وأمها وعنايتهما بالشيخ في أثناء مرضه، لأنه كان «يرى في ذلك تزلفاً إلى المريض تبغيان من ورائه نصيباً من الميراث» (ص ٢٠٨).

وقد اضطر عزيز إلى الزواج ليضمن رضى عمه، واكتمال الميراث، ليستطيع أن

ينفق على إستير.

وليس لنجلاء ما تجابه به تصرفات عزيز حيالها سوى البكاء. فعندما عاد من زيارة إستير في ليلة الزفاف وجدها «وعيناها سابحتان في الدموع» (ص ٢٩١). وعندما تركها في المسرح ليرى إستير، وقد احتج بمقابلة شخص لشأن من شؤون العمل، «استاءت من معاملة عزيز لها هذه المعاملة ولم تتمالك أن بكت ورأى عزيز دموعها فندم على تركه إياها وجلس إلى جانبها يلاطفها ويعتذر وهو ينتحل أسباباً كثيرة لغيابه» (ص ٢٩٢).

ونجلاء لا تثور، لكنها احتضنت طيش عزيز وإهاناته بالصمت والصفح، فاكتسبت رضى زوجها. «وقد أعجبه في نجلاء على الخصوص أنها كانت إذا رأت منه نقصاً تكتمه عن الشيخ وعن والدتها أو إذا رأت الشيخ حاقداً عليه لسبب ما تسعى لإزالة هذا السبب أو ملافاته وتنتصر لعزيز بكل إخلاص» (ص ٢٩١، ٢٩٢).

وعندما تشاهد نجلاء إستير على المسرح لا تعجب بها، وتبرر ذلك بقولها: «لأنها قليلة الأدب برقصها وحركاتها وأنا لا أحب أن أحضر مثل هذا التشخيص وهذا الرقص ولا أحب أن أنظر إلى هذه الأثواب التي تلبسها هذه الراقصة ورفيقاتها» (ص ٢٩٢).

ولمّا كان عزيز في ذروة أزمته المالية والنفسية، خرجت إليه بالمال ليسدد ديونه، فأغرقت قلبه بفيض طيبتها.

أمّا الشخصية التي تنبض فيها الحياة وتتسم بالملامح فهي إستير. فهي «في الربيع العشرين من العمر. . امتازت على رفيقاتها بالتمثيل كما امتازت عليهن بالجمال فصارت قبلة الأبصار وفتنة الألباب وقد كثر محبوها وعشاقها. .» (ص ١٨١). يتعلق بها عزيز، ويتعلق بها كثيرون سواه، وهي تدرك دورها كخليلة، ويهمها أولاً أن تضمن بقاء المعجبين وتضمن هداياهم. ولا يعجبها من عزيز ألاّ يفهم حقيقة علاقتها به، «أفأستطيع أن أخيط من هيامك بي فروة تقيني من برد الشتاء أو من عبادتك لي ثوباً جميلاً من الديباج تبتهج به نفسي. .» (ص ١٨١).

وهي أكثر ذكاء وواقعية من عزيز، واثقة بنفسها، تحسن الصدود والإقبال، وتعرف الذين تتعامل معهم، بل تحسن معرفة عزيز بضعفه وطيبة قلبه.

وهي تمثل على المسرح وفي الحياة. وتسأل عمتها عن مدى نجاحها في تمثيل الدور معه. «وكانت راحيل قد خرجت تشيع عزيزاً عند انصرافه فلما عادت ابتدرتها إستير قائلة: 'كيف رأيتني يا عمة؟ فهل أحسنت تمثيل دوري؟'» (ص ٢٠٦).

وتعترف إستير بأنها تحب عزيزاً، ولا تريد أن تتمادى في تمثيل هذا الدور. «ولكني مشفقة عليه يا عمة لأنه قليل التدبير طيب القلب وخجول وأنا أحبه وأخشى إن قابلته مرة أُخرى بمثل هذا الجفاء أن يقع في اليأس أو ينفر مني ويهجرني» (ص ٢٠٦).

وهي تطلب من عمتها أن توصي المرابي ناثان «بالرفق بعزيز لأن هؤلاء الصيارفة من أكثر الناس طمعاً وجشعاً وخصوصاً إذا وقع بين أيديهم مثل عزيز فأنا أخشى أن يسلخ جلده ويعرق عظمه» (ص ٢٠٦). وتظل تسعى كي لا تورط العمة عزيزاً في مجزرة الديون، فتقول لعمتها: «أمّا أنا فلست من رأيك. وخير لي أن لا يحصل عزيز على شيء من أموال ناثان من أن ينشب فيه مخالبه ويستقطر دمه. وقد اتصل بي طرف من أخبار الذين وقعوا في شراك الصيارفة والمرابين أمثال ناثان فلم أرَ واحداً منهم إلاّ ونكب شر النكبات وكان الانتحار خاتمة كل حادث من هذه الحوادث» (ص ٢٠٧).

وهكذا فإن بيدس لم يعط إستير صورة الشيطان والشرّ المقطر، فكانت مُحبة متعاطفة، ولولا عمتها لما أقدمت على توريط عزيز، لكنها ارتضت لنفسها إطاراً عرفت أبعاده، وأرادت لعزيز أن يتفهمه ويسلك بموجبه. ومن ناحية أُخرى فإن تصرف عزيز المتهور أيأسها منه، وجعلها تسلّم عمتها العنان لابتزازه.

وكم تصدق على خليل بيدس في روايته هذه الملاحظة التي أوردها م. بيلد في تقصي موقف الكتّاب المصريين من وصف شخصيات أبطال رواياتهم، إذ يقول: «فالكاتب المصري عادة يتفادى تصوير بطل من أبطاله وكأنه منحط من الناحية الأخلاقية. ولا أقصد بذلك أن الكتّاب المصريين يصورون أبطالهم وكأنهم ليسوا من أبناء البشر، وإنما أقصد أنهم عندما يصورون الشخص الدنيء المنحط فهم يجعلونه رمزاً لصفة شيطانية معينة أو ضحية من ضحايا قوى الشر التي لا تقاوم. وكثيراً ما نرى هذه القوى تتمثل بصورة إمرأة أجنبية نصرانية أو يهودية، أمّا إذا كانت مصرية فهي من الأجانب المقيمين في مصر.»[٣٢]

وبيدس، وإن كان كاتباً فلسطينياً وليس مصرياً، فإنه في كتابته رواية تدور أحداثها في مصر، انتهج التقليد نفسه، وما كان منتظراً، وهو النصراني، أن تكون بطلة الرواية نصرانية، فكانت يهودية.

لكن رائحة من التراث اللاسامي المعروف تفوح من الرواية حينما نجد أن شبكة متصلة - من العمة راحيل إلى ناثان الصيرفي إلى إسحق الحوذي إلى موسى أمين

صندوق المسرح، إلى إرميا تاجر الآلات الموسيقية، إلى إشعيا الخياط بائع الفراء - تتواطأ على سلب عزيز ماله بشتى وسائل الوساطة المالية والربا. ويبدو أن المؤلف تأثر في هذا المجال باطلاعه على الآداب الغربية، إذ تجسّد المرابي في شيلوك عند شكسبير، وفي آثار أُخرى.

ويتناقش بعض المعجبين بفن إستير وجمالها، ويرد بعضهم على من أشار «ولكنها للأسف يهودية»، فيقول: «لتكن كيفما شاءت فنحن إنما نهواها لجمالها وفنها والكل في دين الجمال والفن سواء» (ص ٢٤٧).

ومن ناحية أُخرى فإن إستير تمثل الغرب وتربيته وحضارته، ويثور النقاش بين المعجبين بشأن الموقف من هذه التربية.

«وقال آخر: وزد على ذلك فالبنات الوطنيات في هذا الشرق لا ينصرفن إلى مثل هذه الفنون لأن تربيتهن تختلف عن تربية أمثالهن في الغرب.

«وقال غيره: وقد أصاب الشرقيون في ذلك فوقفوا حائلاً منيعاً دون فشو الخلاعة والتهتك بين بناتهم ونسائهم.

«وقال غيره: ما لنا ولكل هذا فإنما نحن عبّاد فن وعباد جمال وقد سلبت هذه الفاتنة عقولنا والسعيد من استطاع أن ينال حظوة في عينيها» (ص ٢٤٧).

وقد ارتفعت إستير بفنها وجمالها في عيون هؤلاء فرأوا أنها فوق البشر، «فهي مَلَك هبط من السماء وقد محا ذكرها كل جميلة وقفت على مسارح التمثيل أو في معابد الجمال» (ص ٢٤٧).

أراد خليل بيدس أن يكتب رواية اجتماعية أخلاقية، وقد صرح عن غايته في مطلع الرواية، إذ يعرّفها أنها «تتضمن وصف كثير من حوادث الحياة الاجتماعية وما يتوسل به بعض الناس فيها من أنواع المكر والدهاء. وقد بنيناها على حادثة وطنية وقعت وتقع أمثالها في هذا الشرق وضمّناها من العبرة والموعظة ما يحسن الاستبصار به والتيقظ له» (ص ١٨١).

ولعل قوله «وقد بنيناها على حادثة وطنية» يفسر سبب جعل مصر مسرحاً لأحداث الرواية، لا فلسطين. والغاية من الرواية خلقية عامة، تعرض مفاهيم وقيماً كانت سائدة في حينه، بل لم تكن غريبة على أدب الرواية في القرن التاسع عشر في أوروبا، إذ كانت شخصية الخليلة وإغواؤها أمراً مألوفاً.

(١) عرفان أبو حمد الهواري، «أعلام من أرض السلام» (حيفا، ١٩٧٩)، ص ٤٣٠؛ عبد الرحمن ياغي، «حياة الأدب الفلسطيني الحديث من أول النهضة حتى النكبة» (بيروت، ١٩٦٨)، ص ٤٣٧؛ أدهم الجندي، «أعلام الأدب والفن» (دمشق، ١٩٥٤)، ج ١، ص ٤٣٠.

(٢) الهواري، مصدر سبق ذكره، ص ٤٤٣. ويضاف إلى قائمة كتبه ترجمته لكتاب بو كاشيو «ديكامرون» باسم «بدور الإيناس في نوادر بو كاس».

(٣) إلاّ إن النص على غلاف الرواية أنها من تأليف ميخائيل عورا. ويبدو أنها ترجمة رواية «مانون ليسكو».

(٤) ميخائيل عورا (مترجم)، «الجنون في حب مانون» (الإسكندرية، ١٨٨٦)، المقدمة، ص ٤.

(٥) المصدر نفسه.

(٦) المصدر نفسه.

(٧) المصدر نفسه، ص ١٤ - ١٦.

(٨) ناصر الدين الأسد، «محاضرات عن خليل بيدس، رائد القصة العربية الحديثة في فلسطين» (القاهرة، ١٩٦٣)، ص ٨٣.

(٩) خليل بيدس، «مسارح الأذهان» (مصر، ١٩٢٤)، ص ١٤ - ١٥.

(١٠) الأسد، مصدر سبق ذكره، ص ٥٠ - ٥٨.

(١١) المصدر نفسه، ص ٥٦.

(١٢) هذه القصة ترجمها أيضاً أحمد شاكر الكرمي عن الإنكليزية ونشرها في كتابه «الكرميات»، الذي صدر سنة ١٩٢١.

(١٣) ياغي، مصدر سبق ذكره، ص ٤٥٢ - ٤٥٦.

(١٤) المصدر نفسه، ص ٤٥٥.

(١٥) الأسد، مصدر سبق ذكره، ص ٨١.

(١٦) المصدر نفسه، ص ٨٢.

(١٧) المصدر نفسه، ص ٨٤.

(١٨) هاشم ياغي، «القصة القصيرة في فلسطين والأردن، ١٨٥٠ - ١٩٦٥» (القاهرة، ١٩٦٦)، ص ١٦٤.

(١٩) المصدر نفسه، ص ١٦٥.

(٢٠) مثل: «رأيتها في نعشها لآخر مرة»؛ «رؤيا اليقظة»؛ «كاترين»؛ «أموالنا في البحر وقوانا لسوانا»؛ «مظلومة في القرن العشرين»؛ «الشهادة في عصر النور».

(٢١) أنظر: إسكندر الخوري، «ذكرياتي» (القدس، ١٩٧٣)، ص ٥٧؛ خليل سالم، «إسكندر الخوري، حياته وأدبه» (القدس، ١٩٨١)، ص ١٥٩.

(٢٢) ليوحنا دكرت رواية أُخرى بعنوان «أصل الشقاء». وقد رفع البطريرك دعوى على مؤلفها، فحكمت المحكمة الابتدائية عليه بغرامة مالية، لكنه استأنف الدعوى لدى محكمة الاستئناف العليا التي نقضت القرار. إلاّ إن المؤلف كان سافر إلى أميركا، ويبدو أن الرواية لم تنشر. أنظر:

مجلة «النفائس العصرية»، مجلد سنة ١٩٢١.

(٢٣) لنجيب نصار رواية «الأميرة الحسناء» لم أعثر عليها، وروايتان مستمدتان من التاريخ العربي، هما «شمم العرب»، و«في ذمة العرب»، وكان كتبهما أولاً في أثناء اختفائه في الناصرة، كما ذكر في «رواية مفلح الغساني». لكن أخاه أحرقهما خوفاً من الأتراك. وعاد فكتبهما مرة أُخرى بعد انتهاء الحرب ونشرهما.

(٢٤) الإشارات إلى الصفحات في الطبعة الثانية.

(٢٥) لكنه نسي أن يجري هذا التغيير في الصفحة ٣٧ فظل اسمها مريم.

(٢٦) أنظر: محمود عباسي، «الحياة بعد الموت لإسكندر الخوري»، مجلة «الشرق»، العددان ١ و٢، السنة الثالثة، ١٩٧٢، ص ٨٨، حيث يقدم أمثلة لذلك.

(٢٧) الخوري، مصدر سبق ذكره، ص ٥٧. وانظر أيضاً: نجيب نصار، «رواية مفلح الغساني»، إذ يحدثنا كيف كتب روايتين ودفنهما، ثم حرقهما أخوه.

(٢٨) الإشارة إلى الصفحات في الرواية كما نشرت في «النفائس العصرية»، مجلد سنة ١٩١٩.

(٢٩) «الوارث»، نقلاً عن: الأسد، مصدر سبق ذكره، ص ٩٥.

(٣٠) المصدر نفسه.

(٣١) المصدر نفسه، ص ١٠٣، ١٠٤.

(٣٢) متتياهو بيلد، «ياسين فاتح الأبواب»، مجلة «الشرق» (القدس)، العددان ١ و٢، السنة الثالثة، ١٩٧٢، ص ٧٧.

دَورُ الثقافة الرّوسيّة

كان للثقافتين، الفرنسية والإنكليزية، أكبر الأثر في مسيرة النهضة الثقافية العربية الحديثة. ففي مصر أقيمت الصلات بفرنسا منذ أيام محمد علي، فكانت البعثات العلمية، واتسع النشاط في الترجمة والنشر. واستمرت هذه الصلات طوال القرن التاسع عشر، وعبر القرن العشرين. كذلك اتصلت مصر بالثقافة الإنكليزية منذ أواخر القرن التاسع عشر، وعبر القرن العشرين. أمّا لبنان فتبارى فيه المبشرون الكاثوليك والمبشرون البروتستانت. وعقد الفريق الأول الصلات بالثقافة الفرنسية، بينما عقد الفريق الثاني الصلات بالثقافة الأنغلو - أميركية. وكان للأوضاع السياسية في القرن العشرين، بعد الحرب العالمية الأولى، الأثر الحاسم في توزيع استمرارية هذين التيارين في البلاد العربية. فسيطرت بريطانيا على مصر والعراق وفلسطين والأردن، بينما كان الحكم الفرنسي في سورية ولبنان والمغرب العربي.

أمّا الثقافة الروسية فاختلفت ظروف اتصالها بالبلاد العربية، ويمكن أن نجمل السمات الرئيسية لهذه الصلة فيما يلي:

(أ) بدأت الثقافة الروسية خطواتها التأسيسية في العقد التاسع من القرن التاسع عشر. فقد أُنشئت دار المعلمين الروسية في الناصرة، السِّمِنار، سنة ١٨٨٦، وكان لا بد من انتظار مرحلة اختمار لتظهر آثار هذه الثقافة. ولا شك في أن مرحلة الاختمار تلك كانت قصيرة. وجاءت مع الفوج الأول من الخريجين، بعد عقد تقريباً، إذ ظهرت ترجمة خليل بيدس لرواية غوغول («تاراس بولبا») ولرواية بوشكين («ابنة القبطان») سنة ١٨٩٨.

(ب) أُتيح للصلة المباشرة بالثقافة الروسية أقل من ثلاثة عقود. فقد بُتر نشاط الجمعية الإمبراطورية الأورثوذكسية الفلسطينية الروسية فجأة عند نشوب الحرب العالمية الأولى سنة ١٩١٤، تلك السنة التي أقر فيها القيصر «برنامجاً جديداً لسِّمِنار الناصرة ولسِّمِنار بيت جالا وللمدارس. وقد شمل المنهاج المعدل تعليم الأدب الروسي الحديث، والتاريخ الحديث والجغرافيا، والعلوم، واختيار تعلّم الإنكليزية أو الفرنسية.»[١]

وكان هناك «خطط لإقامة كلية أو جامعة.»[٢]

وهكذا انقطعت صلات الثقافة الروسية في مرحلة كانت تستعد لمزيد من الانطلاق. بينما أتاحت مرحلة ما بعد الحرب العالمية الأولى توطيداً لنفوذ الثقافتين الإنكليزية والفرنسية.

(ج) لم يكن هدف المبادرين إلى إنشاء المعاهد الروسية بين العرب نشر الأدب والثقافة الروسيين بقدر ما كان ضمان صفة «حماية الأورثوذكس» للإمبراطورية الروسية أمام الدولة العثمانية، و«إنقاذ» الأورثوذكس من حبائل التبشير الكاثوليكي والبروتستانتي.[٣] وقد صدرت التعليمات سنة ١٩٠٢ بأن يقتصر تعليم اللغة الروسية على القواعد فحسب،[٤] إلاّ إن كثيرين من المعلّمين تجاهلوا تلك التعليمات.

اشتد صراع بين تيارين لدى المسؤولين عن الجمعية الإمبراطورية الأورثوذكسية؛ فهناك التقليديون المحافظون وهم من العلمانيين الأورثوذكس الذين «رأوا في الجمعية منظمة أبوية ترعى شؤون الحجاج والتعليم العربي الأورثوذكسي»، وهناك من الناحية الأُخرى فئة أكثر تطوراً، هي «موظفون حكوميون ودبلوماسيون رأوا في الجمعية سلاحاً من أسلحة الهيبة الروسية لتدريب العرب بروح العصر الحديث.»[٥]

وقد عارض المحافظون مساعي الإصلاح والتطوير «باسم روسيا المقدسة»، قائلين إن أي إصلاح يريده الفريق الثاني سيكون تنازلاً أمام روح الغرب اللاأورثوذكسي. واشتدت هذه المعارضة حتى بلغ بهم الأمر إلى حد مناقشة فكرة إغلاق كل المدارس إذا فُرضت الإصلاحات على الجمعية.[٦]

وظل الصراع محتدماً بين الفريقين إلى أن كان الحل الوسط الذي أقره القيصر سنة ١٩١٤، وفيه، كما رأينا، من جملة الإصلاحات الأُخرى، تدريس الأدب الروسي بشكل انتقائي.

(د) إن عدداً كبيراً نسبياً من متخرجي المدارس الروسية والسِّمِنار هاجر إلى أميركا، الشمالية والجنوبية، وإلى غيرها من البلاد. وقد أشار المسؤولون عن الجمعية بأسف إلى هذه الحقيقة، لأنهم أرادوا لهؤلاء الخريجين أن يبقوا عوناً لهذه الجمعية ومدارسها. «ولكن سكرتير الجمعية ديمتريفسكي اعترف بأن هؤلاء حملوا معهم إلى العالم الجديد التأثير الأدبي الروسي.»[٧] ومن هؤلاء المهاجرين أعضاء فعالون في الرابطة القلمية، مثل ميخائيل نعيمه، ونسيب عريضة (صاحب مجلة «الفنون»)، وعبد المسيح حداد (صاحب صحيفة «السائح»)، ورشيد أيوب. كما أن شكري سويدان كان من المهاجرين إلى أميركا الشمالية، بينما هاجر إلى أميركا الجنوبية رجال لهم

دورهم في الحياة الصحافية والأدبية، مثل شبلي رزق (صاحب الصحيفتين «كوردوبا» و«الجالية» في الأرجنتين)، وإبراهيم جابر، والدكتور سعيد أبو جمرة (صاحب صحيفة «الأفكار»)، وجاد ورور (مترجم عدد من الروايات) وغيرهم. وحينما نراجع باب «إهداء النفائس» في مختلف أعداد مجلة «النفائس العصرية» نرى مدى انتشار هؤلاء الخريجين وانتشار المجلة معهم.

هذه الملاحظات تشير إلى المعوقات التي صحبت هذا النشاط الثقافي الروسي القصير الأمد. أمّا الأثر الذي تركته هذه الثقافة فيمكن إجماله فيما يلي:

إن مطالعة الأدب الروسي هزت طلاب السِّمِنار من الأعماق، فأثرت في نظرتهم إلى الأدب عامة، وفي موقفهم من الأدب العربي في زمانهم. وقد أوردنا ما قاله ميخائيل نعيمه عن ذلك الأثر في نفسه، فهو يعجب بالأدب الروسي، ويتحسر على فقر الأدب العربي، بل إنه بعد أن كان يعجب بكثيرين من الأدباء والشعراء العرب في حينه، بات يخجل منهم، ويود لو يكتب «كما يكتب هؤلاء الروس.»[٨]

ويعود نعيمه إلى هذه المقارنة في مكان آخر فيقول: «كنت أطالع 'محاولة فلسفة الأدب الروسي للكاتب أندرييفتش'. فلم يكن في استطاعتي إلاّ أن أقارن بين أدبنا والأدب الروسي. لله ما أكبر الهوة التي تفصلنا عن الغرب! ما أحلك الظلمة التي نعيش فيها، وما أشد تعلقنا بقشور الحياة دون لبابها!.. ما أفقرك يا بلادي! حتى المشاعل العالمية من طراز تولستوي لم يخترق سواد ليلك بعد...»[٩]

ويقول نعيمه في رسالة بالإنكليزية بعث بها من نيويورك في ٢٧ أيار/مايو ١٩٣١ إلى المستشرق الروسي كراتشكوفسكي، بعد أن يتحدث عن مرحلة الركود التي مرت بالأدب العربي:

«.. وأخيراً جاءت يقظة للعالم الناطق بالعربية. وأقوى شاهد على ذلك ما نراه في الجهود المخلصة التي يبذلها الكتّاب والشعراء في أيامنا ليشحنوا كلماتهم بشيء من روحهم وروح الحياة الحافلة من حولهم. قبل عقد أو عقدين لم تكن هذه الأمانة موجودة. ضحوا بكل شيء في سبيل الشكل، ولكي يكون الشكل مقبولاً كان عليه أن يراعي بدقة كل المعايير التي وضعها الأقدمون، حتى في عهود ما قبل الإسلام، فكان نتيجة ذلك ركود روحي وفني رهيب. والأدب، إذا أمكن أن يسمى كذلك، كان منفصلاً كلياً عن الحياة. كان حلية، زخرفاً أو ملهاة، سلسلة من الألعاب البهلوانية أدواتها الكلمات. كان هذا الركود الأدبي في العالم الناطق بالعربية ملء عيني حينما سافرت إلى روسيا. وكان ذلك كابتاً مغثياً مزعجاً جداً لمن ترعرع على

الفن المرهف لبوشكين وليرمونتوف وتورغنيف، وعلى الضحك الباكي لغوغول وواقعية تولستوي الجارفة، وعلى مُثُل بلينسكي الأدبية، وأخيراً على الإنسانية العميقة التي تتجلى عند أعظم وأعمق وأعرض وأنفذ الكتّاب الروس، دوستويفسكي. لذلك قد تفهم بيسر لماذا كانت جهودي الأدبية الأولى في العربية موجهة أساساً إلى النقد. ما كاد يكون أدب جدير بالنقد في ذلك الحين في ذلك الوقت الذي بدأت فيه بالكتابة سنة ١٩١٣. كان على ذلك الأدب أن يولد بعد.»[١٠]

كذلك بدأ نسيب عريضة، وهو في السِّمِنار، يدرك ما يعانيه الأدب العربي جرّاء الجمود آنذاك، ويتمرد على التقليد والابتذال «فلم يرض عن ذلك كله وبدأت تنشأ في نفسه نزعة التجديد.»

ويؤكد ميخائيل نعيمه تأثر نسيب عريضة بالأدب الروسي فيقول: «أمّا نسيب عريضة فقد سبق أقرانه إلى الاختمار بخميرة التجديد، والذي ساعده في ذلك معرفته للغة الروسية، وأصالة شعرية في نفسه جنحت به باكراً إلى التجديد، وإلى تنكّب المطروق والمألوف في الموضوع والأسلوب، وإلى ارتياد العالم الباطني.»[١١]

وقد أشرنا إلى تشديد بيدس على أثر المطالعة الروسية فيه، إذ فتحت أمامه عالماً جديداً، «العالم الوحيد الذي كان في وسعي أن أعيش وأتنفس فيه.»[١٢]

وفي أوضاع النهضة الأدبية العربية في أواخر القرن التاسع عشر ومطلع القرن العشرين أتاح السِّمِنار الروسي في الناصرة للدارسين فيه أمرين:

أولهما: الاطلاع على تاريخ الأدب العربي اطلاعاً نقدياً في إطار المناهج التي عرفت في الغرب. وقد أكد ميخائيل نعيمه تفرّد السِّمِنار بكونه أول معهد في العالم العربي اهتم بتدريس تاريخ الأدب العربي، فتعلموا الموضوع في ترجمة خطية لكتاب وضعه أحد المستشرقين الروس.[١٣] ولهذا الأمر أهمية في حقل النظرة الشمولية إلى مسيرة الأدب وتطوره، والتعرف إلى ألوانه، ورؤيته عبر مقاييس نقدية جديدة.

ثانيهما: أن السِّمِنار وتعلّم اللغة الروسية فيه أتاحا للدارسين الاطلاع على الأدب الروسي الذي كان ينبض بالحياة آنذاك في آثار غوغول وتولستوي ودوستويفسكي وغوركي وغيرهم. فانفتحت العيون على لون جديد وعوالم جديدة جعلت هؤلاء الطلاب يثورون على التقليد ويطمحون إلى التجديد لمجاراة روح العصر. وقد اختمر هذا الطموح في نفوسهم فكثر بينهم الصحافيون الذين أنشأوا منابر ثقافية وأدبية تحمل رسالة التجديد والثقافة الحية. كما كان فيهم المبدعون الذين كتبوا الشعر والرواية والنقد. وكان منهم المترجمون الذين رأوا أن للترجمة دوراً مهماً

في إقامة جسر بين الثقافة العربية وثقافة الغرب التي عرفوها في الأدب الروسي.

إن الرابطة القلمية، التي كان نحو نصف أعضائها من خريجي المعاهد الروسية، شنت معركة مظفرة في مسيرة النهضة الأدبية العربية من أجل التجديد ومحاربة الجمود والتقليد، وكانت من أبرز معالم المسيرة نحو الإبداع في هذه النهضة. ولسنا هنا في مجال التفصيل لشرح هذا الدور، فقد كُتبت فيه دراسات كثيرة، وأصبح من الأمور المقررة لدى دارسي مسيرة النهضة. ومع دور الرابطة القلمية تلتقي الجهود التي بذلها بيدس في مجال التعريف بالأدب الروائي الروسي، والغربي عامة، فيما ترجم، وكذلك في المساهمة التي قامت بها مجلة «النفائس العصرية» في هذا المضمار. كما يصب في ذلك المجرى نفسه التيار الذي امتازت به جهود سليم قبعين في ترجمة الروايات وإصدار مجلة «الإخاء». وقد أشرنا في قسم الصحافة إلى موقف مجلة «الإخاء» من المعركة في سبيل التجديد، وكون المجلة منبراً لأنصار الجديد.

والثقافة الروسية التي اطلع عليها هؤلاء الطلاب كانت وليدة عهد حافل بالأفكار الثورية في روسيا؛ فيها استنكار للاستبداد ولاستباحة إنسانية الفلاحين والمسحوقين، وفيها فضح للفساد والرياء والغطرسة، وفيها تشديد على القيم الإنسانية والمثل العليا. وقد لقي هذا الأدب صدى خاصاً في نفوس المثقفين العرب لأنه كان يتجاوب مع مشاعرهم وهم يرزحون تحت نير الاستبداد العثماني.

وكان لتولستوي دور بارز في هذا المضمار، فاهتم كثيرون بترجمة آثاره. وقد لقّب سليم قبعين نفسه بـ «صديق تولستوي»، وكانت له مساهمة ضافية في ترجمة كتبه. وكتب خليل بيدس تعريفاً مفصلاً بتولستوي في «النفائس العصرية» (مجلد السنة الثانية، ١٩٠٩ - ١٩١٠، ص ٦٦)، ثم مقالاً بعنوان «تولستوي والتربية»، وقدم آراء تولستوي مؤكداً تعاطفه الإنساني، واهتمامه بشؤون الفلاحين والمستضعفين.

هذه القيم الإنسانية، المعتمدة على التعاليم المسيحية، تظهر جلية في آثار هؤلاء الخريجين، وخصوصاً في آثار أولئك الذين أصبحوا من العاملين في الرابطة القلمية.[١٤]

يقول محمد يونس الساعدي في مقال عن تولستوي: «ولكني أود أن أؤكد أن الأدب الروسي ككل، وأدب تولستوي بالذات قريب جداً من نفسية القارئ العربي لأنه يتحدث في مؤلفاته عن حب الوطن، عن الخير والشر، عن الخطيئة والتوبة.»[١٥] وقد لقي هذا الأدب تجاوباً، فأُعيد طبع ترجمة رواياته.

ومن ميزات هذا الأدب الروسي الذي اطلع خريجو السِّمِنار عليه التعامل مع

الحياة اليومية والأحداث التي يتنفسها الناس. وكان الفن الروائي أبرز ألوان هذا التعامل. وقد اجتهد كتّاب القصص والروايات من خريجي السِّمِنار في أن يكون إبداعهم ذا صلة قريبة بمجتمعهم، وبالأحداث التي تحيط بهم. وهذا واضح في آثار نعيمه وبيدس وإسكندر الخوري وغيرهم.

أمّا على الصعيد الطائفي الأورثوذكسي، فقد كان هناك المعركة بين البطريركية الأورثوذكسية اليونانية (الحاكمة) من ناحية وبين الطائفة العربية الأورثوذكسية المهضومة الحقوق (المحكومة) من ناحية أُخرى. وقد شجع المسؤولون الروس المعركة التي شنها الأورثوذكس العرب ضد القيادة الكهنوتية اليونانية الغاصبة والفاسدة. وكان خريجو السِّمِنار والمدارس الروسية عامة في طليعة هذه المعركة. وكانت صحفهم منابر لهذه الحملة. وعلى هذا فإن الإيمان الديني لم يكن مسطحاً، إذ لا بد من التمييز بين الدين والأجهزة التنفيذية التي تعمل باسمه. وقد اقترنت المعركة الوطنية بالمعركة الطائفية، ومفاهيم العدل والحرية بالكفاح ضد الاستبداد الإكليركي اليوناني.

واتسم خريجو المدارس الروسية بأمرين:

(١) التزام عمل كفاحي ضد القيادة الإكليركية اليونانية.

(٢) اتصال هذا الالتزام بالالتزام الوطني القومي، بما في ذلك الخدمة الثقافية عامة، والرؤية الوطنية الواسعة.

وقد أشار هوبود إلى أثر الثقافة الروسية في المثقفين الأورثوذكس فقال: «إن روسيا برعايتها للثقافة قد أثارت، لاإرادياً، اهتماماً بالحضارة الغربية العلمانية في نفوس الأورثوذكس العرب. فقد قرأ الطلاب في المدارس الروسية أعمال غوغول وغوركي وتشيخوف ودوستويفسكي، وفضلوها على أعمال عن تاريخ الكنيسة. وظهر هذا الاهتمام واضحاً في المطالب المتزايدة في القرن العشرين بإدخال اللغتين الإنكليزية والفرنسية في مناهج التعليم. وقد توصلت الجمعية الفلسطينية إلى النتيجة المؤلمة أن انتشار الثقافة يشجع الأفكار التي بدأت تضعف الكنيسة الأورثوذكسية. وبينما كان في وسع الملة الأورثوذكسية أن تطلب الحماية الروسية وترحب بها، فإن الأورثوذكس العرب الذين كانوا يتطلعون إلى دولة عربية قومية، لم يرغبوا في أن يُعتَبَروا في حماية الروس.»[١٦]

إن تجربة العرب الأورثوذكس مع البطريركية اليونانية جعلتهم يرون القضية القومية سابقة للقضية الدينية. فإن كون البطريرك اليوناني مسيحياً أورثوذكسياً لم يتح لهم المساواة أو الشعور بالحرية حتى في إطار العقيدة الدينية - الطائفية، فالمناصب

الكهنوتية وزمام الحل والربط في يد اليونانيين. ومن هنا، فإن أية حماية أجنبية أُخرى باسم الدين لن تحمل لهم الخير، والمنطلق الرئيسي هو التحرر القومي أولاً. ومن خلال هذه الرؤية أيضاً يمكن أن ندرك فهمهم للحركة الوطنية عامة: فعلى المسلمين أيضاً أن يستردوا من الأتراك الخلافة المغتصبة. وقد أورد ميخائيل نعيمه الآراء التي كان ينشرها فيهم أستاذهم في السِّمِنار أنطون بلان: «فلا بد للعرب، إذا هم شاؤوا عيشاً فيه شيء من الاستقلال والكرامة، من أن يستردوا أرضهم وحرياتهم السليبة. وعلى المسلمين منهم أن يستردوا الخلافة المغتصبة. فالخلافة للعرب وحدهم. ولا يجوز أن تنتقل إلى الأتراك والأعاجم.»[١٧]

الهوامش

(١) Derek Hopwood, *The Russian Presence in Syria and Palestine, 1843-1914: Church and Politics in the Near East* (Oxford, 1969), p. 156.

ويشير هوبود في هامش هذه الصفحة إلى ما أُقر تدريسه من الأدب الروسي. وكانت الروايات المقررة هي: «الحرب والسلام»؛ «مذكرات صياد»؛ «الطفولة»، لكن لا يجوز تعليم: «المعطف»؛ «المفتش العام»؛ «حزن من العقل».

(٢) Ibid., p. 153.

(٣) سنة ١٩٠٢، اعترف الباب العالي بـ ٨٤ مدرسة من مدارس الجمعية كمدارس روسية لها الحقوق نفسها كما للمدارس الأوروبية في الإمبراطورية العثمانية. أنظر:

Ibid., p. 155.

(٤) Ibid., p. 156.

(٥) Ibid., p. 155.

(٦) Ibid.

(٧) Ibid., p. 158.

(٨) أنظر: قسم الترجمة، هامش ١٧.

(٩) ميخائيل نعيمه، «سبعون»، في: «المجموعة الكاملة لمؤلفات ميخائيل نعيمه» (بيروت، ١٩٧٢)، المجلد ١، ص ٢٣١.

(١٠) عمر محاميد وآنا دولينينا، «الاستشراق الروسي» (أم الفحم، ١٩٩٨). رسالة ميخائيل نعيمه بالإنكليزية إلى كراتشكوفسكي بتاريخ ٢٧ أيار/مايو ١٩٣١.

(١١) نعيمه، مصدر سبق ذكره، المجلد ٢، ص ١٤٩.

(١٢) أنظر: قسم الترجمة، هامش ١٨.

(١٣) أنظر: قسم وثائق ومصادر، هامش ٢٠.

(١٤) عيسى الناعوري، «أدب المهجر» (القاهرة، ط ٢، ١٩٦٧)، ص ٩٥ وما بعدها، تحت عنوان:

«النزعة الإنسانية».

(١٥) مجلة «الأقلام»، العدد ٢، السنة السابعة، تشرين الثاني/نوفمبر ١٩٦٩، ص ٧٤ - ٨٠.

(١٦) Hopwood, op. cit., pp. 211-212.

(١٧) نعيمه، مصدر سبق ذكره، المجلد ١، ص ١٤٢ - ١٤٣.

خاتمة

طمحت هذه الدراسة إلى غايتين:

(١) تأريخ وتوثيق ظاهرة ثقافية بارزة في حياة فلسطين، هي ظهور المعاهد التعليمية الروسية في أواخر القرن التاسع عشر ومطلع القرن العشرين، وأبرزها دار المعلمين الروسية (السِّمِنار) في الناصرة (١٨٨٦ - ١٩١٤).

(٢) استطلاع أثر هذا المعهد وخريجيه، وما أحاط به من مدارس في الجليل ودار المعلمات في بيت جالا، في الحياة الثقافية في فلسطين، والتفاعل بين طلائع النهضة الأدبية والثقافية في فلسطين وبين النهضة الأدبية العربية العامة التي ظهرت بوادر آثارها منذ أواسط القرن التاسع عشر في لبنان ومصر بصورة خاصة.

كانت المهمة الأولى توفير المواد الأولية للدراسة بالحصول على الكتب والمجلات وغير ذلك من المصادر غير المتوفرة. وإنها لمهمة عسيرة، إلاّ إنه أمكن بعد جهد شاق جمع مادة كافية تتيح استقصاء الملامح الأساسية والخروج بالنتائج الرئيسية للدراسة.

على خلفية الأمية الشديدة التي كانت سائدة في العهد العثماني، كان لإنشاء المدارس والمعاهد العلمية، التي بادرت إليها فئات تبشيرية غربية، دور مهم في مسيرة النهضة الأدبية والثقافية. هذا ما عرفناه من تاريخ مسيرة النهضة في لبنان ومصر، وهو ما كان أيضاً في فلسطين. وفي أعقاب فتح المدارس واتساع شبكة التعليم، كان هناك أثر المطبعة وظهور الصحافة بأنواعها ونشاط الحركة الأدبية في شتى الميادين.

وقد عرضت الدراسة أوضاع التعليم في فلسطين في أواخر القرن التاسع عشر، والمدارس التبشيرية، والمدارس الرسمية. ثم سلطت الأضواء على نشاط الجمعية الإمبراطورية الأورثوذكسية الفلسطينية الروسية في الجليل، وإقامة دار المعلمين في الناصرة (السِّمِنار) لضمان مِلاك من المعلمين لشبكة واسعة من المدارس.

وقد رأينا أن النهضة الثقافية والأدبية في فلسطين تدين ديناً خاصاً لهذا السِّمِنار باعتبار الحقائق التالية:

أولاً: في ميدان التربية والتعليم

هذا السِّمِنار هو مركز الدائرة في شبكة من المدارس بلغت ١١٤ مدرسة، كان يتعلم فيها نحو ١٥,٠٠٠ طالب وطالبة سنة ١٩١٤. وقد انتشرت هذه المدارس في الجليل وامتدت إلى لبنان وسورية. فهي عنوان حركة تعليمية امتازت بعدد من الملامح منها:

(أ) إتاحة نور العلم لأبناء القرى البعيدين عن المراكز المدينية. ولمّا كان التعليم مجانياً فقد أُتيح لأبناء الفلاحين الفقراء أن يتعلموا، وأن يجد المتفوقون منهم معهداً عالياً يرعى مواهبهم.

(ب) الاهتمام بتعليم اللغة العربية. وقد أشارت الدراسة إلى ذلك بشيء من التوسع.

(ج) الاهتمام بتعليم الفتيات، فقد كان هناك دار للمعلمات في بيت جالا موازية للسِّمِنار في الناصرة تعدّ كادراً من المعلمات. وكان عدد الطالبات في مدارس الجمعية يوازي عدد الطلاب، ولهذه الناحية أهميتها الثقافية والاجتماعية.

(د) التوجه التربوي الذي كان يعمد إلى الرعاية الفردية للطالب، وضمان كرامته بإلغاء العقوبة البدنية.

(هـ) التوعية القومية للطلاب في السِّمِنار.

وفي مضمار التربية والتعليم كان لخريجي السِّمِنار دورهم البارز في التدريس، الذي حملهم بعيداً عن بيوتهم وقراهم إلى بلاد بعيدة ليساهموا في حمل شعلة العلم، وبناء دعائم النهضة. إلاّ إنهم علاوة على ذلك ساهموا في هذا المجال على صعيدين:

(أ) تنظير التربية، بما ألّفه بعض الخريجين من كتب أو نشره في الصحف عن شؤون التربية.

(ب) إعداد الكتب التدريسية، وقد ساهم كثيرون منهم في تأليفها في مرحلة كان الكتاب نادراً، وخصوصاً الكتاب التدريسي.

ثانياً: في ميدان الصحافة

نشط كثيرون من خريجي السِّمِنار في ميدان الصحافة عامة، وفي الصحافة الأدبية خاصة. وامتد هذا النشاط من فلسطين إلى كل من مصر وأميركا الشمالية وأميركا الجنوبية.

ففي فلسطين كانت «النفائس العصرية»، التي أنشأها خليل بيدس، أول مجلة

أدبية فلسطينية. وقد استطاعت أن ترسخ أقدامها في العالم العربي والمهاجر، وأن تكسب احترام الأقلام وتقديرها في مختلف المواطن. وبذلك أمكنها أن ترعى الحركة الأدبية في البلد في أواخر العقد الأول والعقد الثاني من القرن العشرين، بل كانت هذه المجلة محور الحركة الأدبية في فلسطين في تلك المرحلة.

وعرضنا النشاط الصحافي الذي قام به سليم قبعين، الذي أصدر عدداً من الصحف في مصر، منها: «الأسبوع»؛ «عروس النيل»؛ «النيل»؛ وكذلك سلسلة الروايات الشهيرة، ثم مجلة «الإخاء» الأدبية الثقافية التي تمت الإشارة في إسهاب إلى ملامحها ودورها.

وفي فلسطين أيضاً كان نشاط إيليا زكّا، الذي تحول إليه امتياز صحيفة «النفير» بعد إعادة العمل بالدستور العثماني، فأصدرها في القدس، ثم يافا، واستقرت في حيفا. كما أصدر مجلة «حيفا» الناطقة بلسان العمال.

وفي أميركا اللاتينية، رأينا نشاط هؤلاء الخريجين في إصدار صحيفتي «كوردوبا» و«الجالية»، وكلتاهما في الأرجنتين، ثم صحيفة «الأفكار» في ساو باولو.

كما رأينا دور هؤلاء الخريجين في الصحف الأدبية في المهجر الشمالي، حيث أصدر عبد المسيح حداد صحيفة «السائح»، وأصدر نسيب عريضة مجلة «الفنون»، اللتين كانتا منبراً للرابطة القلمية ذات الأثر الكبير في مسيرة النهضة الأدبية العربية.

امتازت هذه الصحافة بفتح النوافذ على الأدب العالمي وخصوصاً الأدب الروسي، وساندت دعاة التجديد في المعركة التي احتدمت آنذاك بين القديم والجديد، بين الإبداع والجمود. ولم تهمل التراث، بل عرفت كيف تربط بين رعاية التراث وانطلاق التجديد. وكانت هذه الصحف منابر للأقلام المجددة، وحافزاً لمسيرة الحركة الأدبية والثقافية.

ثالثاً: في ميدان الترجمة الأدبية

رأينا أن كثيرين من خريجي السِّمِنار اهتموا بنقل الآثار الأدبية عن اللغة الروسية. وقد حظي اللون الروائي بحصة الأسد من هذه الترجمات. وأدرك هؤلاء المترجمون الثغرة الحضارية في تلك المرحلة، فعرفوا كيف يتصرفون على صعيد المضمون، ثم على صعيد الأسلوب.

إن لخريجي السِّمِنار الفضل الأول في تعريف الأدباء والقراء العرب بالأدب

الروسي الروائي، وفي ذلك توسيع للإدراك الحضاري من جهة، وتعزيز لمسيرة اللون الروائي في النهضة الأدبية الحديثة من جهة أُخرى.

وقد نشر هؤلاء الخريجون في الصحف المتنوعة ترجمات لروايات طويلة، ولقصص قصيرة. وعرضت الدراسة هذه الآثار وأشارت إلى ميزاتها.

رابعاً: الإنتاج الأصيل

علاوة على ذلك كله، فقد كان خريجو هذا السِّمِنار طلائع في الإنتاج القصصي، بما في ذلك القصة القصيرة والرواية الطويلة. وقد رأينا آثار الإنتاج القصصي الفلسطيني في مجلة «النفائس العصرية» منذ مطلع العقد الثاني للقرن العشرين، وفي كتابات خليل بيدس وإسكندر الخوري البيتجالي. ثم في كتابة الرواية الطويلة الأصيلة. وعرضت الدراسة أثرين روائيين لهذين الكاتبين، فحللت رواية «الحياة بعد الموت» لإسكندر الخوري، وهي أول رواية فلسطينية الأحداث، والتأليف، تدور حوادثها في إبان الحرب العالمية الأولى، ورواية «الوارث» التي كتبها خليل بيدس، وتدور أحداثها في مصر، في أثناء الحرب العالمية الأولى أيضاً.

لم نتناول في الدراسة الآثار الشعرية لهؤلاء الخريجين، وهي كثيرة. كما لم نشأ تناول الخريجين الذين أصبحوا من أعلام الرابطة القلمية، مثل: ميخائيل نعيمه، ونسيب عريضة، وعبد المسيح حداد، وإنما أردنا أن نبيّن دور الفلسطينيين منهم في مجرى الحركة الأدبية في فلسطين من زاوية المساهمة في الأدب النثري، في الرواية والمقالة.

وقد اتضح أن هؤلاء الخريجين كانوا طليعة الأدب الروائي الفلسطيني، كما كانوا محوراً للحركة الأدبية في العقدين الأول والثاني من القرن العشرين، يهيئون المنبر، ويرفدونه بالإنتاج الذي يسعى لمسايرة العصر والتجديد.

أمّا عن مدى المساهمة في مسيرة النهضة الأدبية العربية العامة، فيمكن الإشارة إلى ما يلي:

كانت الحركة الأدبية التي ساهم فيها وقادها هؤلاء الخريجون رافداً يصب في مجرى مسيرة النهضة عامة. وقد اطلعنا على انتشار الصحف التي أصدرها هؤلاء في مختلف الأقطار المجاورة وفي المهجر، ومساهمة الكتّاب من الأقطار الأُخرى فيها.

من ناحية أُخرى، تبيّن أن هذه الصحافة لم تقتصر على فلسطين، وإنما انتشرت

في مصر وأميركا الشمالية وأميركا الجنوبية. وإذا نظرنا إلى دور الخريجين المحليين مقترناً بدور الخريجين الذين نشطوا في المهجر الشمالي (في الولايات المتحدة) وجدنا أن له أبعاداً واسعة في حركة التجديد والإبداع في النهضة الأدبية الحديثة.

إلاّ إنه حتى لو حصرنا الدور في الخريجين الفلسطينيين، لوجدنا أن هؤلاء قدموا لحركة النهضة الأدبية مساهمة مهمة في ميدان الترجمة الأدبية، وفي ميدان الصحافة الأدبية، كما كانوا قوة مهمة ساندت الإبداع والتجديد في مسيرة النهضة عامة، سواء على صفحات «النفائس العصرية»، أو على صفحات مجلة «الإخاء» في مصر في العشرينيات والثلاثينيات.

المَرَاجِعْ

- أبو حنا، حنا. «رحلة البحث عن التراث». حيفا، ١٩٩٤.
- الأسد، ناصر الدين. «الشعر الحديث في فلسطين والأردن». القاهرة، ١٩٦١.
- ـــــ. «محاضرات عن خليل بيدس، رائد القصة العربية الحديثة في فلسطين». القاهرة، ١٩٦٣.
- أمين، أحمد. «زعماء الإصلاح في العصر الحديث». القاهرة، ١٩٤٨.
- أنطونيوس، جورج. «يقظة العرب». ترجمة علي حيدر الركابي. دمشق، ١٩٤٦.
- أنيتشكوفا، ن. م. «المؤسسات التعليمية والطبية التابعة للجمعية الإمبراطورية الفلسطينية في سورية وفلسطين»، جزآن (بالروسية). سان بطرسبرغ، ١٩١٠.
- بازيلي، قسطنطين. «سورية وفلسطين تحت الحكم العثماني». ترجمة طارق معصراني. موسكو، ١٩٨٩.
- بدر، عبد المحسن طه. «تطور الرواية العربية الحديثة». القاهرة، ط٢، ١٩٦٨.
- بيدس، خليل. «العقد الثمين في تربية البنين». بعبدا، ١٨٩٨.
- ـــــ. «شقاء الملوك». ملحق بمجلة «النفائس العصرية»، الجزء ٢، ١٩٠٨.
- ـــــ. «هنري الثامن». ملحق بمجلة «النفائس العصرية»، مجلد سنة ١٩١١.
- ـــــ. «ديوان الفكاهة». القدس، ١٩٢٤.
- ـــــ. «مسارح الأذهان». مصر، ١٩٢٤.
- ـــــ. «أهوال الاستبداد». بيروت، ط٢، لا تاريخ.
- بيلد، متتياهو. «ياسين فاتح الأبواب». مجلة «الشرق» (القدس)، العددان ١ و٢، السنة الثالثة، ١٩٧٢.
- ـــــ. «الترجمة الخلاقة: نحو دراسة للترجمات العربية للأدب الغربي منذ القرن التاسع عشر». ترجمة عمانوئيل كوركيس. مجلة «الأقلام» (بغداد)، العدد ٩، أيلول/سبتمبر ١٩٨١، ص ١١١ - ١٢٣.
- الجندي، أدهم. «أعلام الأدب والفن». دمشق، ١٩٥٤. الجزء الأول.
- حتي، فيليب وآخرون. «تاريخ العرب». بيروت، تصوير أُفست عن ط٣، ١٩٦٢.
- حنا، جورج. «قبل المغيب». بيروت، لا تاريخ.
- حوراني، ألبرت. «الفكر العربي في عصر النهضة». ترجمة كريم عزقول. بيروت، ١٩٩٧.

- خليف، وليد وسهير دياب. «أوراق من الماضي ورسائل منسيّة». الناصرة، ١٩٩٤.
- الخوري، إسكندر. «حقائق وعبر». القدس، ١٩١٢.
- ــــــ. «الشهادة في القرن العشرين». «النفائس العصرية»، ١٩١٢.
- ــــــ. «كاترين». «النفائس العصرية»، حزيران/يونيو ١٩١٣.
- ــــــ. «الحياة بعد الموت». القدس، ط٢، ١٩٤٧.
- ــــــ. «ذكرياتي». القدس، ١٩٧٣.
- خوري، شحاده ونقولا. «خلاصة تاريخ كنيسة أورشليم الأرثوذكسية». القدس، ١٩٢٥.
- داغر، أسعد. «المدارس الروسية في سوريا». المقتطف، العدد ١٠، ١٩٠١، ص ٩٠١ - ٩٠٤.
- داغر، يوسف. «صفحة مجهولة من تاريخ التعليم في سوريا ولبنان وفلسطين، الجمعية الإمبراطورية الفلسطينية الروسية». مجلة «الأديب»، العددان ١ و٢، كانون الثاني/يناير - شباط/فبراير ١٩٨٠، ص ١٦ - ١٩.
- دمشقية، عفيف. «الانفعالية والإبلاغية في بعض أقاصيص ميخائيل نعيمه». بيروت، لا تاريخ.
- رافق، عبد الكريم. «العرب والعثمانيون: ١٥١٦ - ١٩١٦». عكا، ط٢، ١٩٧٨.
- السائح، عبد الحميد. «فلسطين، لا صلاة تحت الحراب: مذكرات الشيخ عبد الحميد السائح». بيروت، ١٩٩٤.
- سالم، خليل. «إسكندر الخوري، حياته وأدبه». القدس، ١٩٨١.
- السكاكيني، خليل. «ما تيسر». القدس، ١٩٤٦. الجزء الثاني.
- سوميخ، ساسون. «بداية الترجمة الأدبية في القرن التاسع عشر ومشكلة الأسلوب القصصي». مجلة «الكرمل» (حيفا)، العدد ٣، ١٩٨٢.
- سويدان، شكري. «تاريخ الجمعية الإمبراطورية الأرثوذكسية الفلسطينية». بوسطن/ماس، ١٩١٢.
- طوبي، أسمى. «عبير ومجد». بيروت، ١٩٦٦.
- Tibawi, Abdul Latif. *Arab Education in Mandatory Palestine: A Study of Three Decades of British Administration*. London, 1956.
- عباس، إحسان. «فصول حول الحياة الثقافية والعمرانية في فلسطين». بيروت، ١٩٩٣.

- عباسي، محمود. «الحياة بعد الموت لإسكندر الخوري». مجلة «الشرق»، العددان ١ و٢، السنة الثالثة، ١٩٧٢.
- العسلي، كامل. «وثائق مقدسية تاريخية». عمان، ١٩٨٩.
- العودات، يعقوب (البدوي الملثم). «من أعلام الفكر والأدب في فلسطين». القدس، ط٣، ١٩٩٢.
- عورا، ميخائيل (مترجم). «الجنون في حب مانون». الإسكندرية، ١٨٨٦.
- عوض، عبد العزيز محمد. «الإدارة العثمانية في ولاية سورية، ١٨٦٤ - ١٩١٤». القاهرة، ١٩٦٩.
- فرح، رفيق. «تاريخ الكنيسة الأسقفية في مطرانية القدس، ١٨٤١ - ١٩٩١». بيروت، ١٩٥٥.
- كلداني، حنا. «المسيحية المعاصرة في الأردن وفلسطين». عمان، ١٩٩٣.
- الكيالي، سامي. «الأدب العربي المعاصر في سوريا». القاهرة، ط٢، ١٩٦٨.
- محاميد، عمر وآنا دولينينا. «الاستشراق الروسي». أم الفحم، ١٩٩٨.
- Mar'i, Sami. *Arab Education in Israel*. Syracuse, New York, 1978.
- المقدسي، أنيس. «الاتجاهات الأدبية في العالم العربي الحديث». بيروت، ط٤، ١٩٦٧.
- مناع، عادل. «تاريخ فلسطين في أواخر العهد العثماني، ١٧٠٠ - ١٩١٨ (قراءة جديدة)». بيروت، ١٩٩٩.
- الناعوري، عيسى. «أدب المهجر». القاهرة، ط٢، ١٩٦٧.
- نجم، محمد يوسف. «القصة في الأدب العربي الحديث، ١٨٧٠ - ١٩١٤». بيروت، ط٣، ١٩٦٦.
- نعيمه، ميخائيل. «المجموعة الكاملة لمؤلفات ميخائيل نعيمه». بيروت، ١٩٧٢.
  - «أبعد من موسكو ومن واشنطن». المجلد ٦.
  - «سبعون». المجلدان الأول والثاني.
- هلال، محمد غنيمي. «النقد الأدبي الحديث». بيروت، ١٩٧٣.
- الهواري، عرفان أبو حمد. «أعلام من أرض السلام». حيفا، ١٩٧٩.
- Hopwood, Derek. *The Russian Presence in Syria and Palestine, 1843-1914: Church and Politics in the Near East*. Oxford, 1969.
- ياغي، عبد الرحمن. «حياة الأدب الفلسطيني الحديث من أول النهضة حتى

النكبة». بيروت، ١٩٦٨.
- ياغي، هاشم. «القصة القصيرة في فلسطين والأردن، ١٨٥٠ - ١٩٦٥». القاهرة، ١٩٦٦.
- يهوشع، يعقوب. «تاريخ الصحافة العربية الفلسطينية في العهد العثماني». القدس، ١٩٧٤.
- ــــ. «تاريخ الصحافة العربية الفلسطينية في بداية عهد الانتداب البريطاني على فلسطين، ١٩١٩ - ١٩٢٩». حيفا، ١٩٨١.
- ــــ. «تاريخ الصحافة العربية الفلسطينية في نهاية عهد الانتداب البريطاني على فلسطين، ١٩٣٠ - ١٩٤٨». شفاعمرو، ١٩٨٣.

مجلات:

- «الإخاء» (القاهرة)، ١٩٢٤ - ١٩٣٣.
- «الأديب» (بيروت)، ١٩٨٠.
- «الأقلام» (بغداد)، ١٩٨١.
- «الشرق» (القدس)، ١٩٧٢.
- «الفنون» (نيويورك)، ١٩١٣.
- «الكرمل» (حيفا)، ١٩٨٢.
- «المقتطف» (القاهرة)، ١٩٠١.
- «المنار» (بيروت)، ١٩٠٢.
- «النفائس العصرية» (حيفا ثم القدس)، ١٩٠٨ - ١٩١٤، ١٩١٩ - ١٩٢١.
- «الهلال» (القاهرة)، ١٩٠٠، ١٩٠٣، ١٩٠٤، ١٩٠٧، ١٩١١.
- «الورود» (بيروت)، كانون الأول/ديسمبر ١٩٦٤، كانون الثاني/يناير ١٩٦٥.

مخطوط:

- «دفتر لأجل النشائد العربية» بخط إبراهيم وَرْوَر.
- «مفكرة ١٨٩٥ - ١٨٩٨». بخط إسكندر كزما.

ملاحق

مُلحَقٌ رَقـم ١
مُعَـلِمُون وَمتخَـرِّجُون

رشيد أيوب (١٨٧١ - ١٩٤١)

ولد في بسكنتا، وتعلّم في المدرسة الروسية هناك.

هاجر إلى الولايات المتحدة سنة ١٨٩٣.

سعى لإنعاش مسيرة الأدب العربي في إطار الرابطة القلمية، و«كان من أكثر الرابطيين إنتاجاً للشعر.»

من آثاره ثلاثة دواوين:

- «الأيوبيّات».
- «أغاني الدرويش» (١٩٢٨)، قدّم له ميخائيل نعيمه.
- «هي الدنيا» (١٩٣٩).

أنطون بلان (١٨٧٠ - ١٩٤٣)

ولد في حمص. وبعد إنهاء الدراسة هناك بعثه المطران الروسي للدراسة في روسيا. وبعد تخرّجه عاد إلى حمص سنة ١٨٨٨، حيث علّم العربية في المدرسة هناك. قبِل اقتراح إسكندر كزما كي يجيء للتعليم في السِّمِنار. وعلاوة على تعليم اللغة الروسية، علّم الجغرافيا والتاريخ، من سنة ١٨٩٠ إلى سنة ١٩١٤.

كان من معلمي ميخائيل نعيمه الذي حمل عنه ذكريات طيبة. وقد وصفه وصفاً طريفاً، فقال:

«كان المعلم أنطون زهيد الجثة، وسيم الوجه، سريع الحركات، خفيف الظل، ودون الربع من الرجال. وكنت - لولا شارباه - إذا نظرت إليه بشعره الأجعد المنفوش، حسبته ولداً كبيراً. ولكنه كان رفيقاً لتلاميذه ومعلّماً في آن. وكان له أسلوب بارع في تلقين اللغة الروسية وذلك بحملنا على حفظ عدد من المفردات لكل درس، ثم بالإكثار من التمارين والإملاء لترسيخ القواعد في أذهاننا، ثم بفرضه علينا تلخيص ما نقرأ أو الكتابة في شتى المواضيع التي كان يقترحها علينا، وبالتحدث إليه

ضمن الصف باللغة الروسية دون الاستعانة بالعربية» («سبعون»، ص ١٤٤).

في زمن الانتداب البريطاني التحق بسلك التعليم في المدرسة الثانوية في الناصرة. أُحيل على التقاعد سنة ١٩٤١. استقر بالناصرة ودفن فيها.

من آثاره:

- «النجوى»، مجموعة قصص قصيرة مترجمة عن الروسية.
- «في سبيل الحب»، رواية مترجمة عن الروسية (١٩١٢).
- «جغرافية فلسطين» (١٩١٠).

من تلاميذه: ميخائيل نعيمه، ونسيب عريضة، وخليل بيدس وآخرون.

إسكندر الخوري البيتجالي (١٨٩٠ - ١٩٧٣)

ولد في عين كارم. كان أبوه كاهناً وأمه معلّمة. بعد الدراسة في ابتدائية بيت جالا التحق بالسِّمِنار الروسي في الناصرة في أيار/مايو ١٨٩٨، ثم بمدرسة السالزيان في بيت لحم، وبعدها بكلية الفضيلة والعلم في بيروت، حيث تخرّج سنة ١٩٠٦.

سنة ١٩٠٧ سافر إلى القاهرة لدراسة الحقوق.

بعد إعادة العمل بالدستور العثماني سنة ١٩٠٨ رجع إلى البلد سنة ١٩٠٩.

عمل في التعليم، وشارك في المعركة ضد البطريركية اليونانية، واشترك في وفد الطائفة العربية الأورثوذكسية إلى الآستانة للمطالبة بحقوقها.

عند عودته عُيِّن معلماً للروسية في دار المعلمات في بيت جالا.

سنة ١٩١٧، سيق إلى الجندية، ففر والتجأ إلى دير.

سنة ١٩٢٠، التحق بمدرسة الحقوق.

سنة ١٩٢٧، عُيّن قاضياً للصلح وتنقل في هذه المهمة من بيت لحم إلى القدس والناصرة وصفد وطبرية وعكا.

سنة ١٩٤٥، أُحيل على المعاش فزاول المحاماة. وبعد النكبة عُيّن مستشاراً قانونياً للصليب الأحمر في منطقة بيت لحم والخليل، ثم مفتشاً لمدارس أبناء اللاجئين.

له كثير من الإنتاج الشعري والنثري.

من آثاره:

- «حقائق وعبر»، مقالات في اللغة والأدب والاجتماع (القدس، ١٩١٢).

- «الداء والدواء»، وفيه معالجات قصصية (القدس، ١٩١٨).
- «الحياة بعد الموت»، رواية (القدس، ١٩٢٠).
- «غبريلا الحسناء»، رواية مترجمة عن الفرنسية لأوغوست ماكيه، في ثلاثة أجزاء: ج١ (١٩٠٨)، ج٢ وج٣ (١٩١١).
- «المعلوم المجهول»، مجموعة شعرية (القدس، ١٩٣٦).
- «المثل المنظوم»، للأحداث (القدس، ١٩٤٣).
- «الحرب العالمية الثانية»، أحداثها منظومة (القدس، ١٩٤٦).
- «يوميات كهل»، عن الروسية، تأليف ألكسي أبوختين (١٩٧٢).
- «الطفل المنشد».
- «آلام وآمال»، البحث في الزواج بقالب روائي.
- «أدب وطرب»، نوادر وطرف من التراث العربي.
- «الفتاة الفارس»، رواية مترجمة عن الروسية.
- «جولة في أميركا».

خليل بيدس (١٨٧٤ - ١٩٤٩)

ولد في الناصرة. وهو من عائلة الصباغ، إلاّ إن لقب بيدس الذي أطلق على عمه غلب على اسم عائلته.

درس في السِّمِنار الروسي في الناصرة، وتخرّج مع الفوج الأول سنة ١٨٩٢. تولى بعدها إدارة عدد من المدارس الروسية، في حمص وبسكنتا وسوق الغرب وجديدة مرجعيون.

سنة ١٩٠٨، نقل إلى حيفا، وأصدر مجلة «النفائس العصرية»، ثم انتقل إلى القدس، وتابع إصدار مجلته، التي أغلقت في الحرب العالمية الأولى. ثم استأنف إصدارها في القدس بعد الحرب.

سنة ١٩٢٠، شارك في تظاهرة كبيرة في القدس، بمناسبة موسم النبي موسى، وخطب في الجماهير ضد وعد بلفور، فاعتقل وسجن في عكا، وكتب في إثر ذلك «حديث السجون».

علّم في مدرسة المطران في القدس إلى أن تقاعد سنة ١٩٤٥. وفي سنة ١٩٤٨، حينما نشب القتال، صمم على أن يبقى في بيته في القدس، لكنه اضطر

بسبب العنف إلى أن يمشي إلى سلوان، ثم انتقل إلى عمان، ومنها إلى بيروت، حيث توفي في شباط/فبراير ١٩٤٩.

من آثاره:

- «ابنة القبطان»، عن الروسية، لبوشكين (بيروت، ١٨٩٨).
- «القوزاقي الولهان» («تاراس بولبا»)، (بيروت، ١٨٩٨).
- «الطبيب الحاذق» (بيروت، ١٨٩٨).
- «العقد الثمين في تربية البنين» (بعبدا، ١٨٩٨).
- «تاريخ روسيا القديم» (بيروت، ١٨٩٨).
- «حفلات التتويج» (بيروت، ١٨٩٨).
- «الكسور الدارجة» (بيروت، ١٨٩٨).
- «مرآة المعلمين» (لبنان، ١٨٩٨).
- «شقاء الملوك»، عن الروسية (وهو أصلاً للكاتبة الإنكليزية ماري كورلي. نشر متسلسلاً في مجلة «النفائس»، سنة ١٩٠٨، ثم في طبعة ثانية سنة ١٩٢٢).
- «أهوال الاستبداد»، عن الروسية، لتولستوي (حيفا، ١٩٠٩؛ القاهرة، ١٩٢٧).
- «الحسناء المتنكرة»، عن الروسية، للكاتب الإيطالي إميل سلغاري (القدس، ١٩١١؛ ١٩٢٥).
- «الدول الإسلامية» (القدس، ١٩١٢).
- «تاريخ الطيران» (القاهرة، ١٩١٢).
- «ملوك الروس» (القدس، ١٩١٣).
- «درجات الحساب» (القدس، جزآن، ١٩١٣).
- «درجات القراءة» (القدس، سبعة أجزاء، ١٩١٣ - ١٩٢١).
- «أمم البلقان» (القدس، ١٩١٤).
- «هنري الثامن وزوجته السادسة»، للكاتبة الألمانية ف. ملباخ (القدس، ١٩٢١).
- «العرش والحب»، عن الروسية (القدس، ١٩٢١).
- «تسريح الأبصار فيما تحتوي بلادنا من الآثار» (القدس، ١٩٢٠).

- «الوارث»، رواية اجتماعية (القدس، ١٩٢٠).
- «الروضة المؤنسة في وصف الأرض المقدسة».
- «تاريخ القدس» (القدس، ١٩٢٢).
- «ديوان الفكاهة»، مجموعة قصصية (القدس، ١٩٢٤).
- «مختار البيان والتبيين» (مع شريف النشاشيبي)، (القدس، ١٩٢٤).
- «مسارح الأذهان»، مجموعة قصصية (مصر، ١٩٢٤).
- «الكافي في الصرف» (القدس، ١٩٢٥).
- «العرب: أبطالهم وأشهر حوادثهم» (القدس، ١٩٤٢).
- «الشاب المنتصر» (القدس، ١٩٤٥).

عبد المسيح حداد (١٨٩٠ - ١٩٦٣)

ولد في حمص، وتعلّم في المدرسة الروسية الابتدائية هناك، واختير للدراسة في السِّمِنار في الناصرة. وبعد التخرّج التحق بأخيه الشاعر ندرة حداد في الولايات المتحدة.

سنة ١٩١٢، أنشأ صحيفة «السائح» التي استمرت في الصدور حتى سنة ١٩٥٧، حين باع امتيازها لراجي الظاهر صاحب صحيفة «البيان»، وظل يكتب في الصحيفة المدمجة.

كان من المتحمسين لإنشاء الرابطة القلمية، «وفي بيته كان الاجتماع الأول لتحقيقها.»

بعد أن تعثرت مجلة «الفنون»، التي كانت منبراً للرابطة القلمية، أصبحت «السائح» ذلك المنبر.

من آثاره:

- «حكايات المهجر»، مجموعة قصصية (١٩٢١).
- «انطباعات مغترب» (دمشق، ١٩٦٢).
- علاوة على مئات المقالات في «السائح» و«البيان».

شبلي ناصر رزق (١٨٨١ - ١٩٥٤)

ولد في الناصرة. من خريجي السِّمِنار الروسي.

من أوائل المكرّمين بوسام الجمعية الإمبراطورية الأورثوذكسية الفلسطينية الروسية لتفوقه في الدراسة.

في أواخر سنة ١٩٠٠، هاجر إلى الأرجنتين، حيث أصدر صحيفة «كوردوبا».

شكري سويدان (١٨٧٩ - ١٩٤٧)

ولد في مرجعيون في لبنان. بعد إنهاء دراسته هناك قُبِل في السِّمِنار، وهاجرت عائلته معه إلى قرية الرينة، حيث أقامت سبعة أعوام، لتكون قريبة منه في أثناء الدراسة.

بعد تخرّجه عمل في الإطار الإداري للجمعية سكرتيراً للنظارة في دمشق، ثم معلماً في مرجعيون، ثم انتقل مع عائلته، سنة ١٩٠٠، إلى الولايات المتحدة حيث أكمل دراسته في جامعة هارفرد.

أصدر مجلة «الجامعة» في بوسطن. وظهر العدد الأول سنة ١٩٠٢.

من آثاره:

- «تاريخ الجمعية الإمبراطورية الأرثوذكسية الفلسطينية» (بوسطن/ماس، ١٩١٢).
- «درر المعاني في رد الغسّاني».

نعمه سليم الصباغ (١٨٨٥ - ١٩٧١)

ولد في الناصرة. درس في السِّمِنار الروسي. وعندما تخرّج عُيّن مديراً للمدرسة الروسية في منيارة. وفي سنة ١٩٠٩، نقل مديراً للمدرسة الروسية في كوسبا (الكورة)، ثم تنقل بين كل من أميون والناصرة وشفا عمرو والقدس وبيت لحم، وعاد ليعلّم اللغة العربية في ثانوية الناصرة، حتى أُحيل على التقاعد سنة ١٩٤١.

سنة ١٩٤٨ لجأ إلى لبنان، حيث عمل في التعليم في عدد من البلدات، كانت آخرها طرابلس، حيث عُيّن أستاذاً للأدب العربي في كلية طرابلس الشام، وأخيراً عاد إلى بيروت.

نظم الشعر ونشره في: صحيفة «كوردوبا» في الأرجنتين، ومجلة «الفنون» في نيويورك، ومجلة «النفائس العصرية» في حيفا والقدس، ومجلة «الإخاء» في القاهرة.

لم يجمع شعره في كتاب.

نسيب عريضة (١٨٨٧ - ١٩٤٦)

ولد في حمص. أنهى دراسته في المدرسة الروسية هناك، واختير للالتحاق بالسِّمِنار في الناصرة سنة ١٩٠٠. بعد أربعة أعوام اختير لمتابعة الدراسة في روسيا، لكن أوضاع الحرب الروسية - اليابانية آنذاك حالت دون ذلك، فأمضى عاماً آخر في الناصرة، وفي نهايته هاجر إلى الولايات المتحدة.

في أثناء دراسته في السِّمِنار تعرّف إلى ميخائيل نعيمه الذي التحق بذلك المعهد سنة ١٩٠٢، وتوثقت بينهما صداقة متينة تجددت حينما هاجر نعيمه إلى الولايات المتحدة سنة ١٩١١، وتمتّنت باستمرار.

نظم الشعر في سن مبكرة، وأحس بضرورة التجديد في الأدب العربي. في المهجر تعرّف إلى جبران وأمين الريحاني.

أنشأ مجلة «الفنون» سنة ١٩١٣ لتكون منبراً للتجديد. لكنها اضطرت إلى التوقف بعد عشرة أعداد. ثم عادت إلى الصدور سنة ١٩١٦ وتوقفت سنة ١٩١٨.

عمل في التجارة، ثم في تحرير جريدة «مرآة الغرب»، ثم في «الهدى».

من آثاره:

- ديوان «الأرواح الحائرة»، وهو لا يحوي كل شعره.
- «أسرار البلاط الروسي»، عن الروسية.

كلثوم عودة (١٨٩٢ - ١٩٦٥)

ولدت في الناصرة. بعد الدراسة الابتدائية في المدرسة الروسية هناك اختيرت للدراسة في دار المعلمات في بيت جالا، حيث تخرّجت بتفوق. زاولت مهنة التدريس في الناصرة، وكانت تنشر مقالات في مجلة «النفائس العصرية» في حيفا، وفي مجلة «الحسناء» في بيروت.

سنة ١٩١٤، تزوجت طبيباً روسياً وسافرت معه إلى روسيا. حين نشبت الحرب العالمية الأولى شارك الطبيب وشاركته كلثوم في معالجة الجرحى والتخفيف عنهم. ثم أصيب الزوج بعدوى مات في إثرها، تاركاً وراءه ثلاث بنات حمِلت زوجته عبء إعالتهن وتربيتهن.

عملت مع المستشرق كراتشكوفسكي في تدريس اللغة العربية في كلية اللغات الشرقية في مدينة لينينغراد. ألّفت عدداً من الكتب في تدريس اللغة العربية، وترجمت

عدداً آخر من العربية إلى الروسية وبالعكس. وتتلمذ عليها كثيرون من أجيال المستشرقين هناك.

سنة ١٩٢٨، زارت فلسطين وألقت محاضرات في عدد من المدن. وكان هدف الزيارة دراسة «حالة النهضة النسائية في فلسطين وسورية ومصر.» إلاّ إن السلطات لم تتح لها دخول مصر وسورية وكانت تلاحقها، فأمضت عطلتها في فلسطين، ثم عادت إلى روسيا (أنظر: مجلة «الإخاء»، العدد ٤، السنة السادسة، تموز/يوليو ١٩٢٩).

منحتها السلطات السوفياتية المدالية الذهبية مرتين تقديراً لنشاطها، وفي عيدها السبعين منحتها الدولة وسام الشرف.

من آثارها:

- «اللغة العربية للروس».
- «المنتخبات العصرية لدراسة الآداب العربية»، قدم له كراتشكوفسكي (لينينغراد، ١٩٢٨).
- ترجمت من العربية إلى الروسية كتاب «الأرض واليد والماء» للأديب العراقي ذو النون أيوب.
- ترجمت من الروسية إلى العربية كتاب كراتشكوفسكي عن «محمد بن عياد الطنطاوي، أول عربي علّم اللغة العربية في روسيا».
- تلخيص دراسة كراتشكوفسكي عن «أقدم مخطوط عربي في آسيا الصغرى».

ناصر عيسى (١٨٨٧ - ١٩٦٥)

ولد في الرامة. تعلم في المدرسة الروسية الابتدائية في بلدته، واختير لمتابعة الدراسة في السِّمِنار في الناصرة.

بعد تخرّجه عُيّن مديراً للمدرسة الروسية في بينو، قضاء عكار. ثم تنقل في إدارة عدد من المدارس الروسية في لبنان.

عندما نشبت الحرب العالمية الأولى ظل في كوسبا في لبنان، وعند انتهائها عاد إلى الرامة وعُيّن معلماً للعربية في عكا، ثم في بيت لحم، ثم عاد إلى عكا.

سنة ١٩٤٨، وصلت به الهجرة إلى العراق حيث عُيّن معلماً للأدب العربي في مدرسة الحلّة، وظل حتى سنة ١٩٥٨. بعدها مضى إلى طرابلس مستَقَره في غربته.

توفي في كوسبا في لبنان سنة ١٩٦٥.

من آثاره:

- «حياة آل رومانوف»، عن الروسية، شاركته في الترجمة زوجته بلاجيا عيسى (طرابلس، ١٩١٣).
- «المعذب البريء» (١٩١٣).
- «صفحات مطوية»، ديوان شعر.

جبران فوتيه (١٨٦٥ - ١٩٣٣)

درس في المدرسة الأورثوذكسية في بيروت، وحصل على تأهيل للتعليم سنة ١٨٩٨، وجاء لتعليم اللغة العربية في السِّمِنار.

عُرف بتمكّنه من اللغة العربية وقدرته على تعليمها، ونظم الشعر.

من آثاره:

- «السائغ الصرف في علمي النحو والصرف» (بيروت، ١٩١١).
- «الطرف الشهية في تحصيل القواعد الصرفية» (بيروت، ١٩١١).

سليم قبعين (١٨٧٠ - ١٩٥١)

ولد في الناصرة في أيار/مايو ١٨٧٠. كان من الفوج الأول من متخرّجي السِّمِنار الروسي. علّم في المجيدل. وفي سنة ١٨٩٧، اضطر إلى الهجرة إلى مصر لموقفه من السلطة العثمانية. علّم هناك في عدد من المعاهد، منها المدرسة العبيدية في القاهرة. وأصدر عدداً من الصحف، منها: «الأسبوع» و«عروس النيل» و«النيل»، وكذلك سلسلة الروايات، ثم أصدر مجلة «الإخاء».

خاض معركة عنيفة ضد السيطرة اليونانية على الطائفة الأورثوذكسية العربية، وتحمّل نتيجة ذلك عنت تلك السلطة. كان يقوم في صيف كل عام برحلة إلى فلسطين والأردن وسورية ولبنان، ويفرد في مجلته، «الإخاء»، باباً خاصاً لأبناء فلسطين.

من آثاره:

- «مذهب تولستوي» (القاهرة، ١٩٠٤).

- «حِكَم النبي محمد وشيء عن الإسلام في أوروبا»، عن الروسية، تأليف تولستوي (القاهرة، ١٩١٣).
- «مملكة جهنم والخمر»، عن الروسية، تأليف ل. تولستوي (القاهرة، ط١، ١٩٠٩؛ ط٢، ١٩٢٦).
- «أنشودة الحب»، عن الروسية، تأليف تورغنيف (القاهرة، ١٩٢٩).
- «ربيب بطرس الأكبر»، عن الروسية، تأليف بوشكين (القاهرة، ١٩٢٩).
- «مصرع القيصر نقولا الثاني وأهل بيته» (القاهرة، ١٩٢٢).
- «تاريخ آل رومانوف» (القاهرة، ١٩١٢).
- «أنواع الغرام في باريس»، عن الروسية، وُزّع هدية للمشتركين في مجلة «الإخاء».
- «قصص روسية»، عن الروسية، وفيه قصص بأقلام بوشكين، وغوركي، وبتروشفسكي (القاهرة، ١٩٢٩).
- «عبد البهاء والبهائية» (القاهرة، ١٩٢٣).
- «كيف تحافظ على صحتك» (القاهرة، ١٩٢٤).

قسطندي قنازع (١٨٧٤ - ١٩٦٤)

ولد في الناصرة. بعد الدراسة الابتدائية اختير للدراسة في السِّمِنار. ثم نال بعثة للدراسة في روسيا.

تخرّج سنة ١٩٠٢، وعاد ليدرّس في السِّمِنار في السنة نفسها حتى إغلاقه سنة ١٩١٤.

بعد الاحتلال البريطاني لفلسطين عُيّن مديراً للمدرسة الثانوية في الناصرة، وظل في موقعه هذا حتى أحيل على التقاعد سنة ١٩٣٦.

أسس الجمعية الخيرية الأورثوذكسية في الناصرة سنة ١٩٠٧. وكان له دور بارز في الحياة الثقافية في المدينة.

إسكندر جبرائيل كزما (١٨٦٥ - ١٩٣٧)

ولد في دمشق. بعد دراسته هناك في مدرسة يسوعية سافر إلى روسيا، حيث درس في الأكاديمية الروحية في موسكو. وعند عودته إلى الوطن علّم في بيروت ثلاثة أعوام، وقام بمهمات أُخرى في إطار الجمعية الإمبراطورية الأورثوذكسية

الفلسطينية الروسية. ثم اختير ليدير شؤون المدرسة «الداخلية» (السِّمِنار فيما بعد)، وليشرف على المدارس الروسية في الجليل.

هو الذي قرر أن تُنشأ دار المعلمين في الناصرة، وأن تُفتَح مدرسة للبنات.

جعل الناصرة مسكنه، إلاّ إنه في أواخر حياته عاد إلى دمشق حيث توفي.

من آثاره:

- «تفسير الصلوات» (بعبدا، ط٤، ١٨٩٦).
- «التاريخ للعهد القديم».
- «مختصر تاريخ العهدين».

ميخائيل نعيمه (١٨٨٩ - ١٩٨٨)

ولد في بسكنتا (لبنان). أنهى دراسته في المدرسة الروسية في قريته. ويقول عنها: «وهذه المدرسة كان لها أبعد الأثر في توجيه دراستي، وبالتالي كل حياتي.» اختير لمتابعة الدراسة في السِّمِنار في الناصرة، وعقب التخرّج من هذا المعهد مُنح بعثة للدراسة في السِّمِنار اللاهوتي في بلتافا في أوكرانيا.

بعد العام الرابع هناك قرر العودة إلى لبنان والسفر إلى باريس ليلتحق بالسوربون، لكن أخاه المقيم بالولايات المتحدة أقنعه بأن يمضي معه. وفي سنة ١٩١٢، التحق بجامعة واشنطن لدراسة الحقوق ونال الشهادة سنة ١٩١٦، لكنه لم يمارس المحاماة. جُنِّدِ سنة ١٩١٨ في الجيش الأميركي، ووصل إلى جبهة القتال في فرنسا في آخر سنة للحرب.

أنشأ مع جبران خليل جبران ونسيب عريضة وإيليا أبو ماضي وآخرين الرابطة القلمية، وكان أمين سرّها. عاشت الرابطة عشرة أعوام، من سنة ١٩٢٠ حتى سنة ١٩٣١، عام وفاة جبران.

عاد إلى لبنان سنة ١٩٣٢، وكرس حياته للكتابة والمحاضرة في لبنان وسورية وفلسطين.

لنعيمه كثير من المؤلفات في ميادين الشعر والمسرحيات والروايات والقصص والمقالات (٣٢ كتاباً بالعربية، وأربعة بالإنكليزية). وقد جمعت في «المجموعة الكاملة لمؤلفات ميخائيل نعيمه» (بيروت، ١٩٧٢).

فضيل النمر (١٨٨٨ - ١٩٦٥)

ولد في الناصرة. تخرّج من السِّمِنار الروسي سنة ١٩١١، وتولى إدارة المدرسة الروسية في زحلة. بعد الحرب العالمية الأولى انتدبه الأستاذ ساطع الحصري، وزير المعارف في سورية في إبان الحكم الفيصلي، لإدارة مدرسة نموذجية في دمشق.

عاد بعد ذلك إلى فلسطين، وتولى إدارة مدرسة بيت لحم الأميرية مدة اثني عشر عاماً، ثم تولى إدارة مدرسة رام الله الأميرية مدة سبعة أعوام.

نشر كثيراً من الشعر والنثر في الصحف، مثل: «النفائس العصرية»، و«الإخاء» القاهرية، و«الإخاء» الحمصية.

لم يجمع شعره في ديوان.

إبراهيم الياس ورور (١٨٧٩ - ١٩١٧)

ولد في الناصرة. امتاز في دراسته في السِّمِنار، فاختير لمتابعة الدراسة في روسيا في جامعة موسكو. تزوج هناك. ثم قتل هناك في أثناء الثورة سنة ١٩١٧.

من آثاره:

١ - «الليالي البيضاء»، عن الروسية، لدوستويفسكي.

٢ - كتاب لتعليم العربية للأجانب.

جاد ورور (١٨٨٠ - ١٩٥٤)

ولد في الناصرة. بعد دراسته في مدرسة البروتستانت في المدينة تابع دراسته في السِّمِنار. وفي سنة ١٩٢٢، سافر إلى الأرجنتين حيث أصدر مجلة «الجامعة»، وترأس تحرير صحيفة «كوردوبا».

من آثاره:

- «أميرة بعلبك»، رواية مترجمة عن الإنكليزية، تأليف رايدر هَكَرْد.
- «ناتاشا»، رواية مترجمة عن الإسبانية، تأليف مانويل غلفار.

مُلحق رقم ٢
هكذا أنشدوا

مما وصل إلى يدي دفتر صغير، كتب عليه بخط الثلث الجميل: «هذا الدفتر لأجل النشائد العربية - يخص إبراهيم ورور»، ثم بالخط الرقعي: «وكان ابتداؤه في ١٠ آب [أغسطس] شرقي سنة ١٨٩٦.»

آمّا إبراهيم ورور، صاحب هذا الدفتر، فهو ابن الناصرة، ومن تلاميذ السِّمِنار. وقد ورد اسمه، وبعض التفصيلات عنه في مفكرة مدير السِّمِنار، الأستاذ إسكندر كزما، التي وصلت إلى يدي أيضاً.

والمادة في هذا الدفتر في ٣٣ صفحة عدا الغلاف. وهي تتألف من ٢٣ نشيدة.

فالمادة، إذاً، هي مجموعة الأناشيد التي كان يتعلمها طلاب السِّمِنار وينشدونها. وهم الذين يدرسون ليصبحوا معلمين للأجيال المقبلة، وموجهين للنفوس.

لذلك، فإن مراجعة هذه الأناشيد تلقي ضوءاً على جوانب متعددة، أهمها ما يتعلق بصوغ رؤية هؤلاء الطلائع سياسياً واجتماعياً.

في ذلك الحين كانت بلادنا ترزح تحت الحكم العثماني، وكان يعتلي سدة الحكم السلطان عبد الحميد الذي اشتهر بالاستبداد والبطش، والذي جرى الانقلاب ضده فيما بعد لإعادة العمل بالدستور سنة ١٩٠٨.

الطابع العام لهذه النشائد هو التمجيد والمديح. والمحاور هي:

١ - السلطان عبد الحميد.

٢ - القيصر الروسي.

٣ - الجمعية الروسية، والأمير سرجيوس بالذات.

٤ - المسيح - الدين.

١ - عبد الحميد

النشيدة الأولى هي في مديحه، وتبدأ بهذا البيت:

لسان التهاني ينادي الملا   أتاكم سلام من أفق العلا

مليك جليل سعيد سَفَر   يزيل الكَدَر ويبدي الدُّرَرَ

حميد السجايا مفيض النِّعَم

ومنها:

حُفِظنَا جميعاً بِعِزّ حماه   لنيل المعالي بحسن رضاه

إلـهـي أَدِمْـهُ مـلاذاً لـنـا   وركناً على سرير الهنا

ومجد سناه ينير الأمم

ولا تكاد نشيدة تخلو من ذكر السلطان، فتكون الإشارة إلى فضله وعدله والدعوة إلى الله أن يصونه. لكن في النشيدة الثالثة إشارة طريفة إلى إلغاء الضرائب (المكوس) يوم جلوسه:

أَدِم بِعِزٍّ يا مجيد   مولي الأنامْ

سلطاننا عبد الحميد   سامي المقام

دور:

فاضت يداه بالطروس   فيض الكئوس

وقد انجلت عنا المكوس   يوم الجلوس

فاحفظه يا محيي النفوس   لكل عام

وتُستهل النشيدة السابعة بهذا البيت:

دام سلطانُ البرايا   غوثُنا عبدُ الحميد

بَدْرَ عزٍّ للرعايا   في سما العصر الجديد

لا أود أن أعرض حصة السلطان في كل الأناشيد، فما أوردته نموذج كاف.

إلاّ إنه لا بد من الإشارة إلى النشيدة السادسة عشرة، فهي باللغة التركية، ومنها:

حَقْ بِناي دَوْلَتي   دائمُ اولْسُونْ هَرْ زمانْ

أمّا النشيدة الشهيرة، التي ذكر ميخائيل نعيمه في كتابه «سبعون» أنه تعلمها، فهي النشيدة التاسعة عشرة، ومطلعها:

يا ربَّنا كن واقيا   عبد الحميد الغازيا

نشيدة أولى

لسان الترابي ينادي للمنو :: أتاكم سعودكم من فوق العلو

بمكة جليل سعيد سفر :: يزيل الكدر ويبدي الدرر

حميد السجايا سنيه النعم

دور

يجود علينا بعلم سما :: وحلم عظيم وفضل همى

الى دائم مددا لنا :: وركنا على سرير الهنا

ومجد سناه سنير الأمم

دور

حفظنا جميعا بعز حماه :: لنيل المعالي بحسن رضاه

لنغدو رجالا بإذنه ربنا :: نحمده ما دنا ...

ونسعد الدعاء لباري النسم

صفحة من دفتر الأناشيد التي كان ينشدها طلاب السمنار. والدفتر بخط ابراهيم دردور، وقد أرخ: ١٠ آب شرقي سنة ١٨٨٦.

ملك سما وتعزّزا وعلى الملوك تميَّزا
وَسَطا وغازَى بل غزا وغدا البشير مناديا

٢ - القيصر الروسي

النشيدة الثانية تشدو بمديح قيصر روسيا، وتدعو له:

احفظ لنا دوماً يا ربّ يا منّان
وَصُنْ لنا القيصر إلى مدى الأزمان

لكن مؤلف هذه النشيدة متحفظ، لا يضع رجله في موضع قبل أن يحتاط، فقد استهل قوله:

شمس الضحا بَزَغَت من أفق مولانا

ثم:

طير السما (ناغا) دوماً على الأغصان
والناس قد هتفت فليحي ذا السلطان

ثم يورد الدعاء للقيصر بعد هذا الاستهلال.

وفي النشيدة العاشرة تحية للضيوف الروس الذين قدموا إلى السِّمِنار، أو غيره:

وَفَدَ القومُ الأفاضل فانتفى عنا العنا
وهزار الشكر ناغى يا لَفَضْلٍ نالَنا

وفي النهاية يأتي الدعاء الصريح لقيصر الروس:

يا إله النصر يا من أنت للكل مجيب
بالأمان احفظ وعزّز قيصر الروس الحبيب

٣ - الجمعية الروسية

وهي المشرفة على السِّمِنار والمدارس الأُخرى. وتشير النشيدة الثامنة إلى رجال الجمعية بالقول: «يا أسياد»، وفي النشيدة الثالثة عشرة ذكر لاسم الجمعية:

هاك رياض العلم قد عاشت بماء الفُضَلا
وبِاْعْتِنا الجمعيةِ تحيا الأماني والعلا

ولا بد من ذكر الأمير سرجيوس راعي الجمعية:

سرجيوسَ الفضل احْفَظَنْ يا ربّ دوماً بالهنا

وكـاف مــن يـسـعـى لـنـا   وامـنـحـه غـايـات الـمـنـى

وفي النشيدة الرابعة عشرة اعتراف بالولاء، إذ يخاطب رجال الجمعية:

هـا إنـنـا فـي حـمـاكـم   بـنـيـن نـبـغـي رضـاكـم
مَـبْـدَأُنـا فـي كـل عـام   إقـرارُنـا بـأعـتـنـاكـم

وفي النشيدة الثالثة والعشرين ذكر لـ «سيدي سرجيوس إذ قد زرع - حُب علم طاهر».

٤ - المسيح - الدين:

هذا المحور أقل النشائد عدداً. ففي النشيدة الرابعة احتفال بميلاد المسيح ومجيء المجوس:

نـجـوم الأفـق قـد هـلَّـت   وجـنـد الـلـيـل قـد ولّـت
جـنـود الله قـد أعـلـت   نـشـيـد الـمـجـد لـلـفـادي

لكن مديح أقطاب الكهنوت لا بد من أن يرد حتى في هذا الإطار، ففي النشيدة الثانية والعشرين، بعد الاستهلال:

كـوكـب الـقـدس تـجـلّـى   مــن سـمـا الأرض الـفـدا
وسـنـاء الـحـق هَـلَّ   فـابْـشِـرُوا وافَـى الـهـدى
فـلـسـطـيـن فـاسـتـنـارت   واكـتـسـت ثـوبَ الـجـلالْ
وكـؤوسُ الـعـلـم دارت   مـذ جَـلَـت عـيـن الـكـمـال

ثم يأتي تمجيد نيقوديموس، الحَبْر الخطر:

نـيـقـوديـمـوس قـد تـسـامـى   فـيـه مـجـد قـد عـلا
وهـو فـي ذا الـعـصـر قـام   يـنـشـر فـيـنـا الـعـلـى

هذه هي المحاور التي تدور حولها هذه الأناشيد!

مُلحَق رَقم ٣
صُــوَرٌ وَوَثَـائِق



اسكندر كزما وعائلته



إسكندر كزما مع هيئة المعلمين في السمنار الروسي في الناصرة



قسطندي قنازع



جبران فوتيه



شبلي ناصر رزق



خليل بيبس



سليم قبعين



انطون بلان

صورة من شهادة الجمعية الامبراطورية الارثوذكسية

Свидѣтельство

Императорскаго

Православнаго Палестинскаго Общества

Саббагъ, Неаме,

уроженецъ Назарета, окончившій четырехлѣтній общеобразовательный курсъ въ Назаретской учительской семинаріи, а также двухлѣтній практическій курсъ, во время котораго занимался преподаваніемъ въ образцовомъ училищѣ, удостоенъ званія учителя начальныхъ школъ Императорскаго Православнаго Палестинскаго Общества, во удостовѣреніе чего и выдано настоящее свидѣтельство [illegible] 1905 года.

Помощникъ Предсѣдателя Императорскаго Православнаго Палестинскаго Общества [illegible]

Секретарь [illegible]

Предсѣдатель Педагогическаго Совѣта [illegible]

Члены Педагогическаго Совѣта [illegible]

شهادة

الجمعية

الامبراطورية الارثوذكسية الفلسطينية

ان نعمة صباغ من مدينة الناصرة قد اتم في مدرسة المعلمين (السمينار) بالناصرة الدروس العامية المحدثة في المدة القانونية (اربع سنين) والدروس العملية في مدة السنتين [illegible] فيهما التعليم في المدرسة الانموذجية اليومية واستحق [illegible] في المدارس الابتدائية للجمعية الامبراطورية الارثوذكسية الفلسطينية واشعاراً بذلك قد اعطيت له هذه الشهادة [illegible]

[illegible]

١٤٠

شهادة نعمه الصباغ

ИМПЕРАТОРСКОЕ

ПРАВОСЛАВНОЕ ПАЛЕСТИНСКОЕ

ОБЩЕСТВО.

ИНСПЕКТОРЪ

Палестинскихъ Учебныхъ Заведений

и

Управляющий Подворьями.

[illegible] خوري من اهالي قرية البقيعة التابعة لقضاء صفد وستحق [illegible]

معلم متمرن في مدرسة الصبيان [illegible] المخصوصة بالجمعية الامبراطورية الارثوذكسية

الفلسطينية الروسية والكتابة في الناصرة ولاجله اعطيت هذه الشهادة [illegible]

[illegible] ٢٩ تموز [illegible]

معاون ناظر المدارس العالية للجمعية الامبراطورية الارثوذكسية الفلسطينية

س. أفريليف



شهادة "معلم متمرن" باسم إبراهيم خوري – من أهالي البقيعة، مؤرخة في ٢٩ تموز ١٩١٤.

الصفحة الأولى من مفكرة مدير السّمنار (مكبرة)

الدورية		الثاني لسنة ١٣٠٠					معهد الدول ١٨٩٦				
	[illegible]	[illegible]	[illegible]	[illegible]	[illegible]	[illegible]	[illegible]	[illegible]	[illegible]	[illegible]	الأيام
		٥	٤	٣	٢	١	٤	٣	٢	١	
	E.Dp. A.Cr.	قطع	مطالعة	مساحة	تعليم	حساب	مطالعة	عربي	حساب	تعليم	الاثنين
	D.T. E.Dp.	ترتيل	جغرافيا	تاريخ	عربي	دروس	تعليم	عربي	دروس	حساب	الثلاث
	A.Cr. D.T.	تنزه	تعليم	تاريخ	عربي	حساب	خط	عربي	تعليم	دروس	الأربعا
	E.Dp. A.Cr.	رسم	مطالعة	عربي	دروس	مساحة	مطالعة	تعليم	عربي	دروس	الخميس
	D.T. E.Dp.	ترتيل	خط	تعليم	عربي	دروس	خط	عربي	دروس	حساب	الجمعة
	A.Cr. D.T.	—	تعليم	جغرافيا	تاريخ	مساحة	تعليم	قطع	تعليم	دروس	السبت

من مفكرة كزما – قائمة الدروس – بالحجم الأصلي

من مفكرة مدير السمنار: جدول الدروس للصفين الأول والثاني - ١٨٩٥/٩٦ . (الصفحة مكبّرة) .

صفحتان من مفكرة الاستاذ اسكندر جبرائيل كرما - مدير السمنار - بالعكس بالحجم الاصلي. في الواحدة: قائمة بأسماء التلاميذ في السنة الدراسية ١٨٩٦/٩٧ وفي الثانية: جدول الدروس.

قياسات البزات	عدد	أسماء التلاميذ
١٠٢	١	ابرهيم جابر
١٠٢	٢	ابرهيم وردور
١٠٢	٣	اكرم سماده
١٠٢	٤	اسعد فرج
١٠٢	٥	الياس شكري
١٠٢	٦	الياس نصيب
١٠٢	٧	انطون خانج
١٠	٨	X ايوب نصار
١٠٢	٩	X توفيق ضومط
١٠٢	١٠	توفيق كرزمه
١١	١١	X حاتم سمعان
١٠٢	١٢	حبيب داود
١٠٢	١٣	حنا خليل
١٠	١٤	يوحنا خوري
١٠	١٥	X خليل حنا
٩	١٦	خليل سليمان
١٠٢	١٧	داود الايوب
١٠٢	١٨	سليم رزق
١٠٢	١٩	سمعان يوسف
٩	٢٠	شكري سويدان
١٠٢	٢١	X عبدالله جرجي
١٠٢	٢٢	عبدالله موسى
١٠٢	٢٣	عيسى حنا
٩	٢٤	عطاالله نجار
١٠٢	٢٥	X فرج كلطي
١٠	٢٦	* قيصر موسى
١٠	٢٧	متري خوري
١٠٢	٢٨	متري صالح

عدد	أسماء التلاميذ	قياس البزات
٢٩	حنا سمعان	١٠٢
٣٠	ناصر دياب	١٠٢
٣١	نصر سعدان	١٠٢
٣٢	نعمه جرجي	١٠٢
٣٣	نعمه خليفه	١٠
٣٤	نقولا خانج	١٠
٣٥	يعقوب حنا	١٠
X	~~[illegible]~~	

الصف الأول

عدد	
٢	١ ابرهيم وردور
٥	٢ الياس شكري
٨	٣ ايوب نصار
٩	٤ توفيق ضومط
١١	~~[illegible]~~
١٤	~~[illegible]~~
١٥	~~[illegible]~~
١٦	٨ خليل سليمان
١٧	٩ داود الايوب
٢٠	١٠ شكري سويدان
٢٦	١١ قيصر موسى
٢٨	١٢ متري صالح
٢٩	١٣ حنا سمعان
٣٥	١٤ يعقوب حنا

الصف الثاني

عدد	
١	١ ابرهيم جابر
٦	٢ الياس نصيب
٧	٣ انطون خانج
١٠	٤ توفيق كرزمه
١٨	٥ سليم رزق
٢١	٦ عبدالله جرجي
٢٣	٧ عيسى حنا
٢٥	٨ فرج كلطي
٢٧	٩ متري خوري
٣٠	١٠ ناصر دياب
٣١	١١ نصر سعدان
٣٣	١٢ نعمه خليفه

الصف الثالث

عدد	
٣	١ اكرم سماده
٤	٢ اسعد فرج
١٢	٣ حبيب داود
١٣	٤ حنا خليل
١٩	٥ سمعان يوسف
٢٢	٦ عبدالله موسى
٣٢	٧ نعمه جرجي
٣٤	٨ نقولا خانج

قائمة بأسماء التلاميذ، وقياس ملابسهم التي كانت توزع عليهم مجاناً.

صفحة أخرى من مفكرة كرزما . العلامة القصوى ,, ٥ ''

من مفكرة كزما

زيارات أوقات الدروس في الداخلية

المعلم كتب على اللوح بعض الجمل بخط [illegible] جميل فقرأها أحد التلاميذ ثم كتبوا [illegible] في دفاترهم تحت مناظرة المعلم الذي في الوقت نفسه [illegible] كتابتهم [illegible]

[illegible] المعلم [illegible]

التلميذ [illegible] . [illegible] التهجية [illegible]

[illegible] (nonyaaf .. [illegible])

[illegible] (ابا [illegible]) على اللوح كان [illegible] nonyaaf [illegible] parlasy [illegible]

[illegible] mp [illegible]

[illegible] : المعلم كان [illegible] أسئلة [illegible] (nonyaaf) [illegible]

[illegible]

المعلم كان [illegible]

لا نعرف الأول [illegible]

[illegible] : [illegible] . المعلم [illegible] (توقيعه) [illegible]

[illegible] . [illegible] التلميذ [illegible]

كان المعلم [illegible] أما [illegible]

[illegible]

من مفكرة كزما- مكبرة

شهر كانون الثاني
١٨٩٦

[illegible]

آذار

[illegible]

صفحتان من مفكرة كزما - مكبرتان

من مفكرة كزما

صفحات من قائمة الكتب في "مكتبة التلاميذ"
بخط كرزما (الصفحة مصغرة).

الفصل الثاني

الباب الرابع

الفلسفة الطبيعية والرياضيات

نمرة	اسم المؤلف	اسم الكتاب	عدد النسخ	عدد المجلدات	المكان	السنة
١	الدكتور جورج بوست	نظام المملكات في سلسلة ذوات الفقرات (الحيوانات والطيور)	١	١	بيروت	١٨٨٢
٢	عزتلو شاكر افندي نجم اللبناني	منتخبات الصناعة في فن الزراعة	١	١	بيروت	١٨٨٤
٣	نعمة خير افندي البستاني	مطول في الجبر	١	١	بيروت	١٨٨٦
٤	ابرهيم الحوراني	الآيات البينات في غرائب الارض والسموات	١	١	بيروت	١٨٨٤
٥	فرهات الياس	الروض الزهري في الجبر المدرسي	١	١	=	١٨٨٥
٦	محمد افندي نعمة الله نوفل الطرابلسي	زبدة الصحائف في اصول المعارف	١	١	=	١٨٧٤
٧	الدكتور فانديك	النقش في الحجر جزء اول	١	١	=	١٨٨٦
٨	=	= = = = ثاني في علم الكيميا	١	١	=	١٨٨٦
٩	=	= = = = ثالث = الطبيعيات	١	١	=	١٨٨٢
١٠	=	= = = = رابع = الجغرافية الطبيعية	٢	١	=	١٨٨٢
١١	=	= = = = خامس = الجيولوجية	١	١	=	١٨٨٢
١٢	=	= = = = سادس = للهيئة	١	١	=	١٨٨٨
١٣	=	= = = = سابع = النبات	١	١	=	١٨٨٨
١٤	=	= = = = ثامن = النطق	١	١	=	١٨٨٩
١٥	————	كتاب منتخبات الصناعة	١	١	=	١٨٨٦
١٦	المرسلين الاميركان	واجبات الاولاد	١	١	=	١٨٨٦
١٧	مطبعة الاباء اليسوعيين	الدلالة الجلية على مدار الكتب الروحية	١	١		١٨٨٤
١٨	ترجمة منابوس دياب تاليف فرنسيسكو سراقيوس	مرشد الاولاد اي رسالة مختصرة في واجبات الاولاد	٣	١	اورشليم	١٨٨٢
١٩	نخله مشاقه	الرسالة المرسلة البرهان على صحة الديانة	١	١	بيروت	١٨٦٧
٢٠	مار تيرلمس البطريرك الاورشليمي	مختصر في مبادي علم آداب الاخلاق	١	١	(شوا)	١٨٩٥
٢١	رسالة فيتو	رسالة في تربية الاولاد	١	١		
٢٢	جمع وتنسيق رشيد افندي تماتري	كتاب منتهى المنافع في انواع الصنائع	١	١	بيروت	١٨٩٦

Kalkas [illegible]

الفصل الثاني

الكتب المالية

باب ثالث

اداب اللغة: روايات وقصص

نمرو	اسم الكاتب المؤلف	اسم الكتاب	عدد النسخ	عدد المجلدات	محل الطبع	سنة الطبع	ملاحظات خصوصية
A1		مجم	1	1	بيروت	1886	
1	الحريري	كتاب مقامات	1	1	=	1885	
2	ناصيف اليازجي	مجمع البحرين	1	1	=	1889	
3	ابن تمام الطائي	ديوان	1	1	=	1208	
4	عبد الرحمن ناجم افندي	صدح الحمام . وسجع الحمام في الآداب والحكم	1	1	=	1888	
5	يوسف نجم فوفاس	فاكهة البطائح	1	1	=	22	
6	فوليير ترجمة امين خوري	رواية مروبا	1	1	استنبول	1299	
7	ابو الحسن علي البصري	كتاب آداب الدنيا والدين	1	1	بيروت	1884	
8	شاكر شقير	قصة الغلام الحبيب	1	1	=	1885	
9	=	قصة جزء الخلاص وتليها قصة الولد الشرير	1	1	=	1888	
10	=	= ادوين الروبي وتليها قصة الولد الصياد	1	1	=	1878	
11		قصة اسعد الخليل	1	1	=		h. ypu. zaulee
12	يوحنا بنيان	كتاب الرحلة المقدسة	1	1	=	1877	
13	خليل افندي الخوري	رواية جنفيات	1	1	مصر	1886	
14	منشئ المقتطف	رواية تلسب الاسد	1	1	بيروت	—	
15	سليم سركيس	حرب الوردتين	1	1	=	1886	
16	عمر بن الفارض	ديوانه	1	1	مصر		hypu jelau
	نسيب افندي خوري	كتاب انبعاث الاسد الاحيا جول البركة في ترك الشكل	1	1	بيروت	1886	
17	محمد راسب						
18	نقولا ابراهيم رزق الله	رواية الاميرة جوليا	1	1	=	1889	
19	ابو تمام الطائي	ديوانه اشعار الحماسة	1	1	بيروت	1885	
20	شاكر شقير	قصة فريد ورشيد	1	1	=	1886	
21	= =	= البطة الثمينة	1	1	=	1885	
22	= =	= التحفة المسكوبية	1	1	=	1885	
23	= =	مجاهل افريقيا	1	1	=	1885	
24	شاهين عطية	دقائق تمالك	1	1	=	1889	
25	—	فكاهات اللسان	1	1	=	1887	
26	—	قصة كاردو الهندية	1	1	=	1886	
27	—	شرح قصة امرجين					

جدول يحتوي على معاهد الجمعية

في سوريا وفلسطين سنة ١٩٠٣

	صبيان	بنات
١ اليهوديه		
١ بيت جالا سمنار علمي للبنات		٤٠
٢ بيت جالا مدرسه خارجية	٨٠	٢٦٧
٣ بيت ساحور « «	٤١	٨٤
٤ « لحم « «	٤٦	٤٦
٥ اورشليم « «	٢٥	٧٨
	١٩٧	٥١٥
٢ الجليل		
٦ الناصرة سمنار علمي للمعلمين	٤٩	
٧ « مدرسة خارجية	٨٦	
٨ « « «	٢٠	١٠١
٩ عبلين « «	٣٣	١١
١٠ ابو سفان « «	٥٣	١٢
١١ البعنه « «	٤٢	١٤
	٤٤٥	٦٥٣

تابع ما قبله	صبيان	بنات
	٤٤٥	٦٥٣
١٢ البروة مدرسة خارجية	٦	
١٣ البقعية « «	٥١	١٨
١٤ كفركنا « «	٢٦	١٨
١٥ كفر ياسيف « «	٦٥	٢٤
١٦ معلول « «	٩	١١
١٧ المجيدل « «	٦	١٢
١٨ الرامة « «	٨٢	٤٠
١٩ الرينة « «	٢٠	
٢٠ طرعان « «	٣	١٣
٢١ حيفا « «	٤٨	
٢٢ حيفا « «	١٢	٧٥
٢٣ شعب « «	١٠	٧
٢٤ الشجرة « «	١٥	
٢٥ يافا الناصرة « «	٣	٩
	٨٠١	٨٨٠

رقم	المحل		صبيان	بنات	ملاحظات
	تابع ما قبله		صبيان	بنات	
٣	بيروت		٨٠١	٨٨٠	
٢٦	حي المصيطبة	مدرسة خارجية	٣٠٠	١٩١	على اسم النبي ايليا
٢٧	« المزرعة	« «	٣٨	١٣٤	« « الملاك ميخائيل
٢٨	« راس بيروت	« «	١٣	٦٣	« « والدة الاله
٢٩	« الرميله	« «	٦٠	٢٤٤	« « القديس نقولا
٣٠	« راس بيروت	« «	٣٧	١٠٢	: : جوارجيوس
			١١٤٩	١٦١٤	
٤	جنوبي سوريا				
٣١	دمشق المدينة	مدرسة خارجيه	٣٣	١٦٩	
٣٢	: الميدان	: :	١٦٠		
٣٣	: :	: :		١١٨	
٣٤	عين الشعرا	: :	٥٤		
٣٥	عينا الفخار	: :	١٠١		
٣٦	: :	: :		٩٢	
٣٧	عربين	: :	٤٢	٢	
٣٨	عرنه	: :	٢٣	١٩	
٣٩	بسكنتا	: :	١١٣		
			١٦٧٩	٢٠١٩	

تابع ما قبله

	صبيان	بنات
	١٦٧٩	٢٠١٩
٤٠ بسكنتا مدرسة خارجية		٦٦
٤١ بلودان « «	٢٤	٣٦
٤٢ بتغرين « «	١١٦	
٤٣ « « «		١٢٦
٤٤ داريا « «	٢٥	١٥
٤٥ دير عطيه « «	١١٤	٥٧
٤٦ جديدة عرطوز « «	٩٨	٣٨
٤٧ « مرجعيون « «	٢٠٦	
٤٨ « « « «		٢٠٦
زحلة « «	١٢٣	
٥٠ زحلة « «		٩٥
٥١ الزبداني « «	٦٤	
٥٢ قلعة جندل « «	٥٦	٢٢
٥٣ قطنا « «	٣٩	١٤
٥٤ كفير « «	١٠٦	
٥٥ « « «		٨١
	١٧٠٢	٢٨٠٥

	تابع ما قبله		صبيان	بنات
			١٧٠٢	٧٨٠٥
٥٦	المعرة	مدرسة خارجية	٦٠	١٥
٥٧	معلولا	= =	٤٠	٤
٥٨	معرونية	= =	١٩	١
٥٩	مشغره	= =	٣٦	١٩
٦٠	الملقة	= =	٩٧	
٦١	=	= =		٩٤
٦٢	راشيا السفلى	=	١٢٧	
٦٣	= =	= =		١٧؟
٦٤	=	= فوقى	٩٠	
٦٥	=	= فوقى		٨٠
٦٦	صحنايا	مدرسة خارجية	٤٦	٣٣
٦٧	صيدنايا	= =	٩٦	٤٣
٦٨	سوق الغرب	=	٧٦	٧٢
٦٩	صور	=	٣٩	٣٤
٧٠	الحدث	=	٩٣	
٧١	=	=		٧١
			٢٠٢١	٣٣٣٥

تابع ما قبله	صبيان	بنات
	٢٠٢١	٣٣٣٥
٧٢ حاصبيا مدرسة خارجية	٩٢	
٧٣ ″ ″ ″		٥٥
٧٤ حمص ″ ″	٥٣٧	
٧٥ ″ ″ ″		٣٩٠
٧٦ ″ حميدية ″ ″	٢٨٠	
٧٧ ″ ″ ″ ″		١٥٥
٧٨ حينه ″ ″	٤٥	
٧٩ الشويفات ″	١٥٥	
٨٠ ″ ″		١٦٠
	٣١٣٠	٤٠٩٥

٥ سوريا الشمالية

٨١ الميناء مدرسة خارجية	٢١	٢٩٢
٨٢ ″ ″ ″	٢٠١	
٧٣ اميون ″ ″	٢١٩	
٨٤ ″ ″ ″		١٢٥
٨٥ ينو ″ ″	٢٥٩	٩٤
	٣٧٣٠	٤٦٥٦

تابع ما قبله

	صبيان	بنات
	٣٧٣٠	٤٦٥٦
٨٦ دير دلوم مدرسة خارجية	٢٠	٤
٨٧ جبرائيل » »	٥٥	[illegible]
٨٨ دوما » »	١٧٠	
٨٩ » » »		١١٩
٩٠ الكيمه » »	٦٣	٨
٩١ كسبا » »	١٤٦	
٩٢ » » » »		١٠١
٩٣ كفرون بيت بدزا »	٨٤	٢٨
٩٤ اللاذقية »	١٥	١٨٠
٩٥ » »	٢٢٤	
٩٦ منياره »	١١١	٣٤
٩٧ مشتى بيت الحلو »	١٦٣	
٩٨ » » » »		٦٠
٩٩ رحبه »	١٨٠	٤٢
١٠٠ طرابلس »	٢١٩	
	٥١٧٩	٤٣٥٦

تابع ما قبله		صبيان	بنات	
		٥١٧٩	٤٣٥٦	
١٠١	طرابلس مدرسة خارجية	٧	١٩٩	
١٠٢	الحكور « «	٥٠	٢٠	
		٥٢٤٦	٤٥٧٥	٩٨٢١

مستوصفات الجمعية

اورشليم عدد المرضى ٢١٦٨ بيت جالا ٢٦٥٠ بيت لحم ١٥٦٧ دمشق ٢٩٤٧
الناصرة ٢٦٢٥ حمص ١٩٢١ المجموع يكون ١٣٨٧٨
وذلك عن شهر كانون ثاني سنة ١٩٠٧

عن كتاب شكري شويدايه
"تاريخ الجمعية الامبراطورية الارثوذكسية الفلسطينية"
« ص ٢٠١ - ٢٠٨ »

﴿ ترجمة فتاة غسان الى اللغة الروسية ﴾

حضرة الفاضل منشئ الهلال الاغر

بعد السلام اخبركم اني ولله الحمد قد فرغت من ترجمة الجزء الاول من رواية فتاة غسان الى اللغة الروسية وعزمت على طبعها عند الفراغ من ترجمة الجزء الثاني فارجو ان تأذنوا لي بنشرها لافادة بني الروس . واذا سألتم عن سبب تأخري بطلب الاذن الى الآن فاتيكم بالحق المبين : ذلك اني لما رأيت غيري استأذن حضرتكم بترجمة ارمانوسة المصرية وغيرها ولم يتم مشروعه خفت ان احسب لديكم نظايره فاردت ان اترجم الجزء الاول من الرواية ثم استأذنكم بتتميم الترجمة . هذا هو الامر الذي دعاني الى التأخير عن الاستئذان الى الآن . هذا واني شاخص بعد شهر تقريباً الى روسيا للسكنى فيها وسأنشر الرواية هناك باذن الله ولن اكتفي بنشر فتاة غسان فقط ولكنني سانشر غيرها من مؤلفاتكم المتنوعة ولهذا ارجو ان تكون الرخصة منكم في ذلك عمومية اعني ان تسمحوا لي بترجمة كل ما اريد من كتاباتكم في الهلال الاغر اذا امكن ونشره (الناصرة) نعمة يعقوب جرجورة

(الهلال) لقد صدقنا ما اشرتم اليه في صدر كتابكم وهو تخوفكم من ان نظن فيكم ما وقع لنا مع الآخرين . فقد ترجمت رواياتنا كلها تقريباً الى الانكليزية أو الفرنساوية او الروسية او التركية وبعضها ترجم الى لغتين او اكثر من هذه كما ذكرنا ذلك بالهلال في حينه باسماء الطالبين . ولكننا لم نرَ رواية منها صدرت مع علمنا ان كثيراً منها تمت ترجمته وتهيأ للطبع

ومن هذا القبيل ترجمة رواية المملوك الشارد الى اللغة الروسية فقد ذكر لنا مترجمها الاديب خليل افندي بيدس غير مرة انه فرغ من ترجمتها وسيباشر طبعها ولا ندري ما تم لها . على انا لا نلوم حضرات المترجمين في ترددهم ونحن اعلم الناس بما يحول دون النشر من النفقة والمشقة التي لم يتعود اهل وطننا الاقدام عليها . ولكننا نعتقد اعتقاداً متيناً انهم اذا اقدموا على ذلك عادوا شاكرين

فلا مانع عندنا من التصريح لحضرتكم بما طلبتموه بل نحن نشكر لكم على العناية . لكننا نرجو ان تحققوا املنا بنشر ما تترجمونه وترسلوا الينا باسملة منه

...دم بمناسبة ذلك الى حضرات الادباء الذين سبق منا التصريح لهم بترجمة ... اللغات الاخرى ان يكتبوا الينا بما تم لهم بشأنها لاننا لا نعرف عنها الآن ... سؤال اليوم. واذا كان عذرهم في التأخر عن النشر تصعب من نفقات ... فليرسلوا الينا الترجمات ونحن نقوم بالنفقات اللازمة والاتكال على الله

مجلة "الهلال" - تموز ١٨٩٩
الجزء ٢٠/السنة السابعة .

ترجمة رواية الانقلاب العثماني

الى اللغة الروسية

«وارستر ماس اميركا» شكري افندي سويدان

قرات روايتكم الجديدة «الانقلاب العثماني» وبما انها تبحث عن الدستور وكيف ناله الاحرار العثمانيون مما تفتقر اليه الامة الروسية احببت نقلها الى هذه اللغة ليطلع الروسيون عليها كما سيطلع عليها الفارسيون في ترجمتها الفارسية لعلهم يعتبرون . فاستأذنكم في ذلك . وساقدمها للطبع حلما افرغ من الترجمة

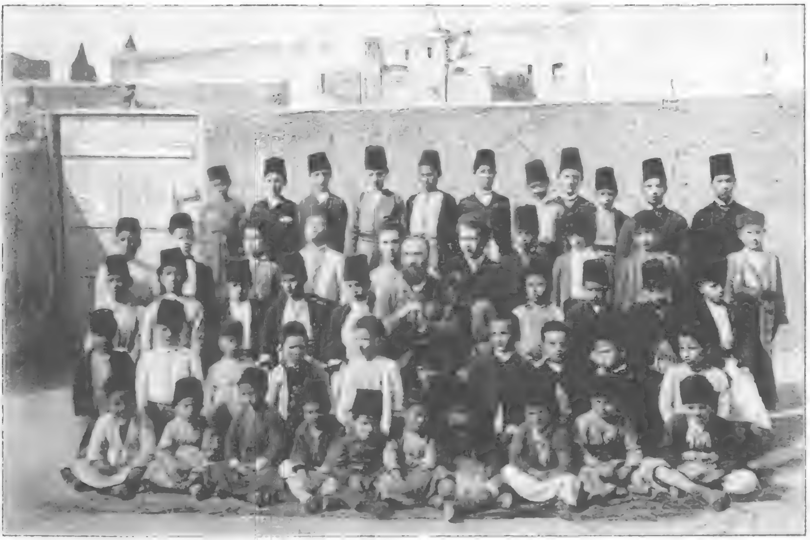
«الهلال» نشكركم لحسن ظنكم في هذه الرواية ويسرنا ان تنقل الى اللغة الروسية ولا مانع عندنا من نقلها . غير اننا نشترط ظهورها في وقت معين والا جاز التصريح في ترجمتها الى سواكم . لان الغرض من ترجمة الكتب نشرها في الامة المنقولة الى لسانها كما لا يخفى على حضرتكم

مجلة "الهلال" - تموز ١٩١١/السنة ١٩/الجزء ١٠



طلاب دار المعلمين (السّمنار) في الناصرة .

المصدر: هذه الصورة وما يليها من: ن. م. أنيتشكوفا، «المؤسسات التعليمية والطبية التابعة للجمعية الإمبراطورية الفلسطينية في سورية وفلسطين» (سان بطرسبرغ، ١٩١٠). (المحرر)



مدرسة البنين في الناصرة- سنة 1890 .



مبنى "الداخلية" في الناصرة .



قـــاعة الاستقبال في " الداخلية " في الناصرة .



المدرسة الداخلية للبنين في الناصرة - سبتمبر/ايلول 1897 .



مدرسة البنات في الناصــرة.



مكاتب "الجمعية" في بيت جالا – الساحة الداخلية .



مبنى المعهد في بيت جالا.



"داخلية البنات " في بيت جالا يونيه/حزيران سنة 1897.

الفرقتان الثانية والثالثة في الصف الأول في مدرسة البنات في بيت جالا .

مدرسة البنات في القدس .



مدرسة البنات في حيفــا- يناير/كانون الثاني 1895.

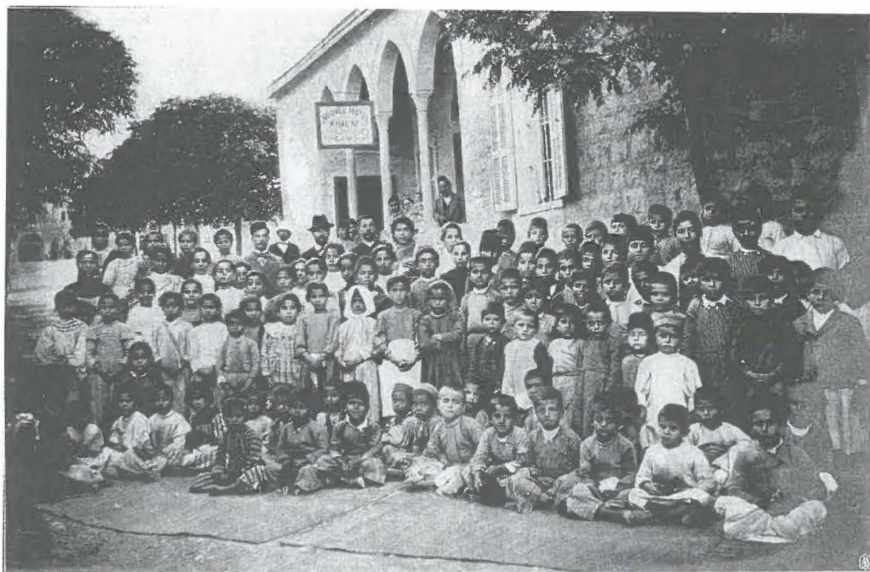


مبنى المدرسة المختلطة في الرامـــة.

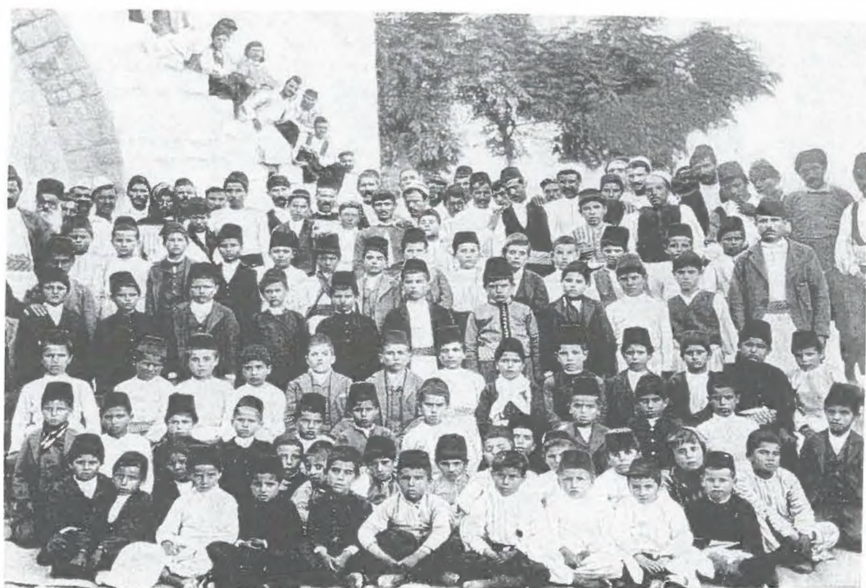


مدرسة الذكور في الرينة – فبراير/شباط سنة 1892 .

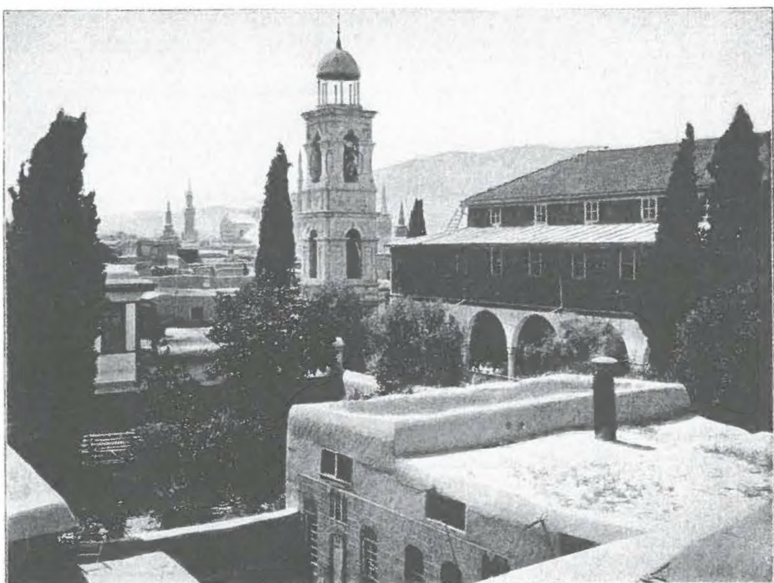
مدرسة البنات في مار الياس – بيروت



المدرسة المختلطة في سوق الغرب .



مدرسة البنين في أميون.



الكاتدرائية ومدرسة البنات في دمشق .



أحد الصفوف في مدرسة البنين في حمص .

الكتاب

شهد النصف الثاني من القرن التاسع عشر اهتمام عدد من الدول الأجنبية بإنشاء مدارس في بلاد الشام في ظل الحكم العثماني لهذه البلاد. وقد امتاز الجهد الروسي في هذا المضمار بإنشاء شبكة من المدارس في فلسطين - الجليل وبيت جالا - وفي كثير من المواقع في لبنان وسورية بلغت ١١٤ مدرسة سنة ١٩١٤ تضم ١٥,٠٠٠ طالب وطالبة، وتبرز بينها دار للمعلمين في الناصرة، ودار للمعلمات في بيت جالا. وكانت الخطة أن تتحول دار المعلمين في الناصرة إلى جامعة، لكن نشوب الحرب العالمية الأولى أوقف ذلك.

كان لخريجي هذه المعاهد دور مهم في مسيرة النهضة الثقافية العربية عامة، بما تجسد في مساهمة الرابطة القلمية في المهجر التي كان نصف أعضائها منهم.

أمّا في فلسطين فكانت لهم الريادة في انطلاقة النهضة بعد إعلان الدستور العثماني سنة ١٩٠٨.

يجمع هذا الكتاب الخيوط لرسم تفصيلات الحدث، ويرصد دور هؤلاء الخريجين في ميادين الصحافة والتربية والترجمة والإبداع الأدبي.

المؤلف

شاعر وباحث ومربّ. ولد في الرينة (قضاء الناصرة) سنة ١٩٢٨.

عمل مديراً للكلية الأورثوذكسية العربية في حيفا، ومحاضراً في جامعة حيفا وكلية إعداد المعلمين.

علاوة على المجموعات الشعرية له كثير من الأبحاث في التراث الثقافي الفلسطيني، وسلسلة من قصص الأطفال.

حائز وسام القدس للإبداع الشعري، وجائزة فلسطين للسيرة الذاتية.

ISBN 9953-453-03-9



$ 8.00